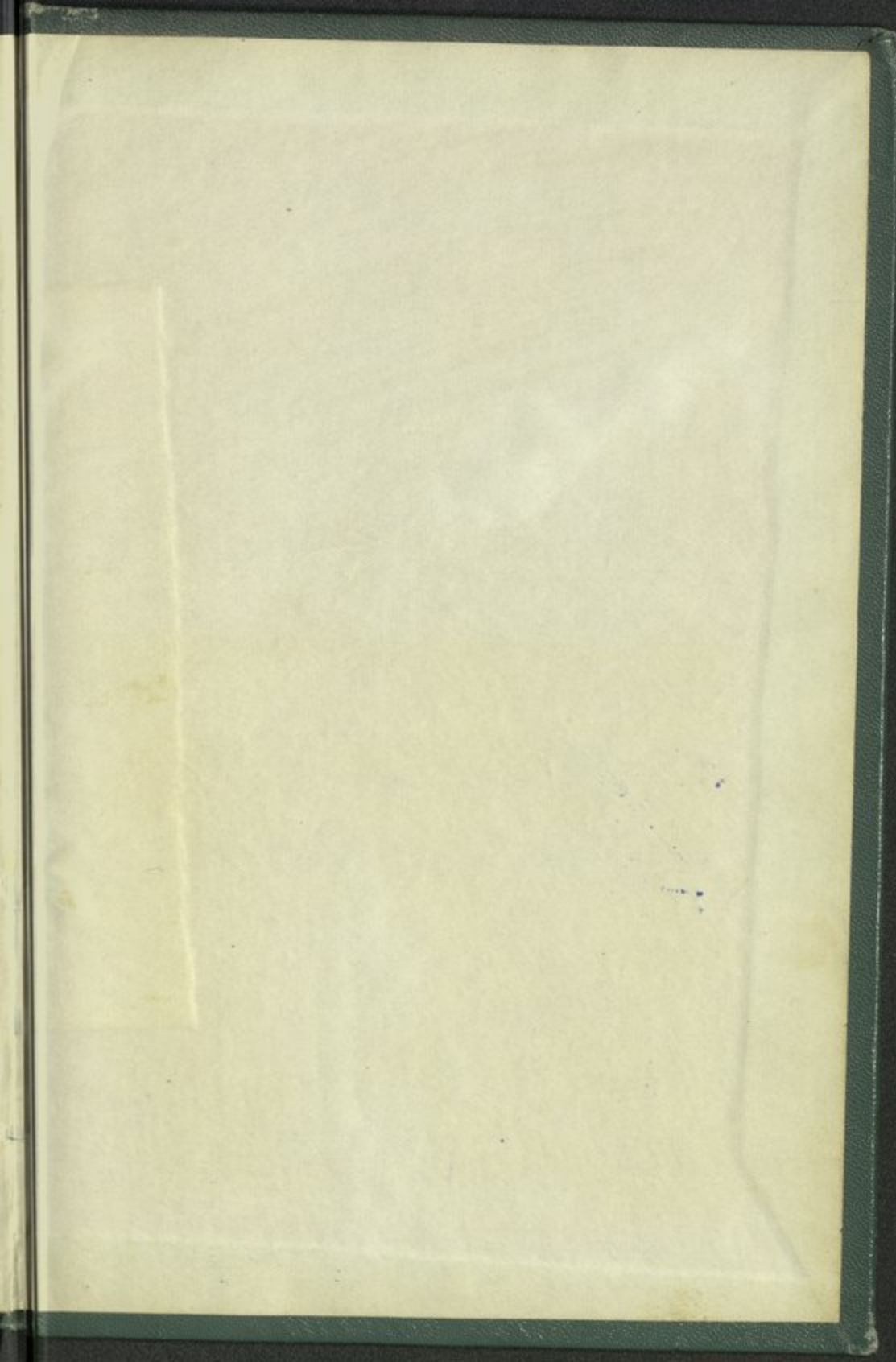


القرآن

من هنا تعلم



301.153
G41mA

~~APR 16 '58~~

~~MR 6 '59~~

~~MR 20 '59~~

~~1~~

~~1~~

~~1~~

~~1~~

~~MAY 25 '61~~

~~DEC 5 '61~~

~~MAY 25 '62~~

~~MAY 25 '62~~

~~MAY 25 '62~~

J. Lib.

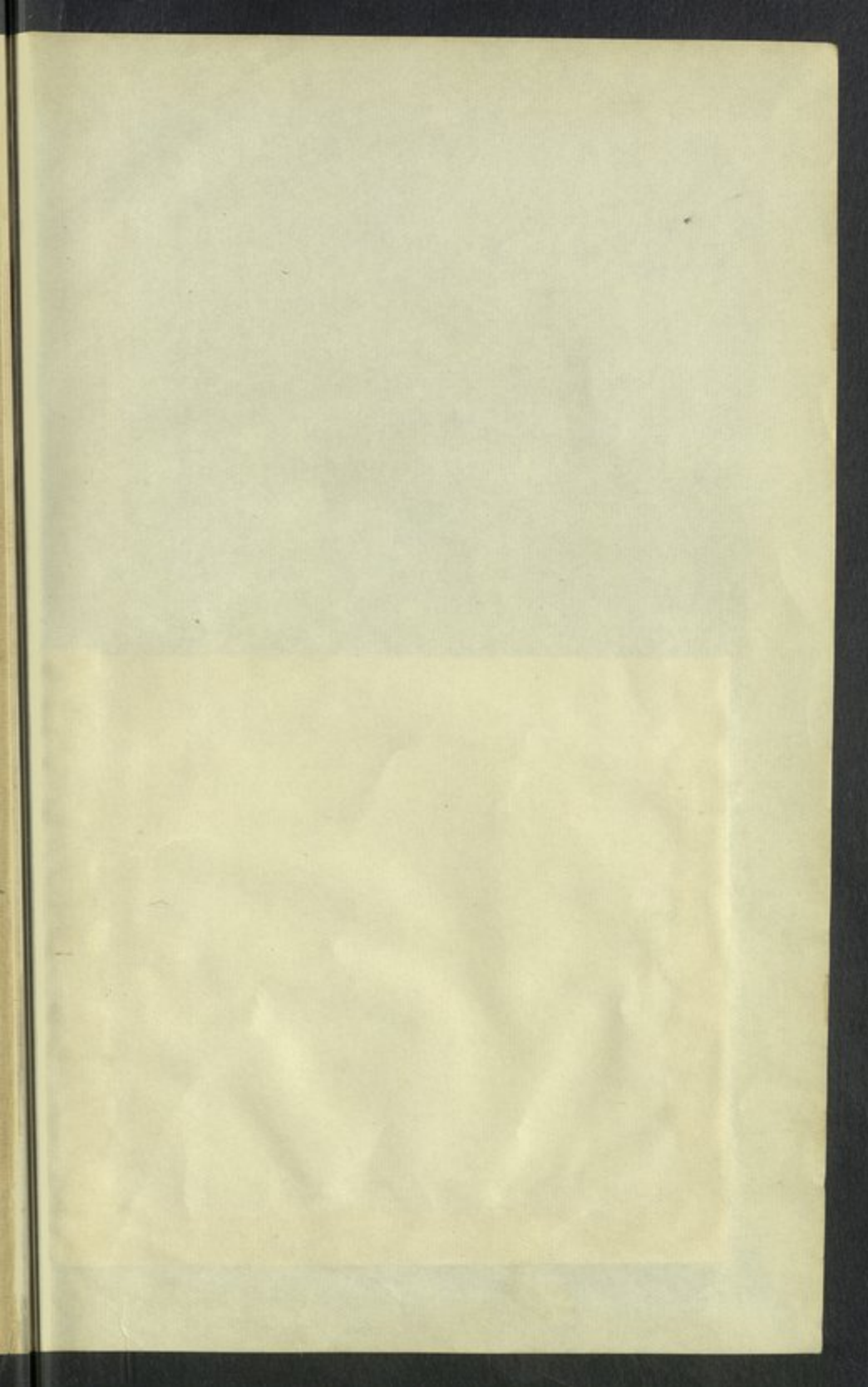
~~1 FEB 1979~~

~~1 Jun 72~~

~~1 Oct 70~~

JAFET LIB.

~~7 MAR 1977~~



مجتل الغنزالى

301.153

G41m A

C.1



مَرْهَبٌ سَائِفٌ فَعْلَامٌ
مَرْهَبٌ سَائِفٌ فَعْلَامٌ

cat. 6 Nov. 53

القاهرة
مطبعة دار الكتب العربى
١٩٥١



٨ ١٣٧٠	صفر	{	الطبعة الأولى
م ١٩٥٠	نوفمبر		
٨ ١٣٧٠	ربيع أول	{	الطبعة الثانية
م ١٩٥٠	ديسمبر		
٨ ١٣٧٠	شوال	{	الطبعة الثالثة
م ١٩٥١	يوليه		

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

الإسلام كلمة الله ألقاها إلى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ليلبثها الناس جميعاً ، وليقيم على أساسها دولة الحق والعدل والإحسان ، ويمحوها دعائم الباطل والظلم والطغيان . وليس الإسلام فوق مستوى العقول فتضل في فهمه ولا مخالفاً للفطر فتعيد عنه .

والإنسانية على ضوء الوحي وهداية العقول تستطيع أن تحقق مثلها العليا وتبلغ أهدافها الكبرى دون أن تتعثر أو تضل الطريق .

عرف هذا دعاة الفكرة الإسلامية بعدما رأوا تصدع الحضارة الغربية وفشلها في إيجاد حياة مستقرة ينعم الناس في ظلها ويشعرون معها بالسعادة والرفاهية ، فهبوا يطالبون ولاية الأمور وأصحاب الحل والعقد بوجوب الأخذ بتعاليم الإسلام ويذيعون في الناس أنها وحدها هي سبيل الإنقاذ وطريق الخلاص . وفي أثناء التحمس لهذه الفكرة وخلال التكتل حولها انبعث صوت ناب منكر ، يحاول التشكيك في تعاليم الإسلام والخط من قيمتها كوسيلة عملية للإصلاح ، وكنهاج لأمة تريد أن تشق طريقها إلى المجد وتنبؤا مكاتها تحت الشمس .

طلع كتاب « من هنا نبدأ » لا يرسم الطريق الصحيح أو يضع الخطة المثلى بل يعطى أعداء الإسلام وخصومه سلاحاً يشبهونه في وجوه المصلحين . وكم طرب الخصوم وصفقوا لهذا الاتجاه . إنه عالم أزهرى يريد أن ينحى

الإسلام عن واقع الحياة ، إنه يلبس الحق بالباطل ويصرح بأنه كتب بعض فصول الكتاب ليهاجم به حملة الإسلام ودعائه من حيث الفكرة والمبدأ . . وهو بهذا يسجل على نفسه أنه خصم للإسلام والمسلمين . . لم يكن بد من أن يقوم في وجهه رجل من رجالات الإسلام وعلم من أعلامه ، ليضع الأمور في نصابها ويكشف عن زيف كتاب « من هنا نبدأ » وزغله ، ويظهر حقيقة الإسلام كما جاء في كتابه وعلى لسان نبيه .

وها هو ذا فضيلة الشيخ محمد الغزالي يقدم كتاب « من هنا نعلم » ليدحض به الشبهات التي أثارها صاحب كتاب « من هنا نبدأ » ويميط اللثام عن أخطاء كبيرة وقع فيها ، ويظهر الإسلام في نقائه وصفائه ، على أنه الدين القيم المنقذ للحضارة والحارس لمقوماتها النبيلة ؛ « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وكم كان موفقاً كل التوفيق حين كتب مبيناً علاقة الدين بالدولة وأنهما وحدة لا تقبل التجزئة ، وأن كل محاولة للفصل بينهما إنما هي إفساد للإسلام وعدوان عليه كعقيدة وشريعة على السواء . وقد استوعب الدلائل الحاسمة في هذا الموضوع في باب « إسلامية الحكم لا قوميته » .

وإذا كان صاحب « من هنا نبدأ » قد أساء إلى الإسلام ورجالاته عندما تكلم عن « الدين والسكينة » ففوه على القاريء إذ سلك الإسلام مع غيره من الأديان الباطلة في نظام واحد ، وسوى بين علماء الإسلام — أخطأوا أم أصابوا — وبين كهنة (براهما) وسدنة (بوذا) .

فإن فضيلة الأستاذ محمد الغزالي قد فضح هذا التمويه الجريء وأنصف الإسلام ممن تاجروا به كما أنصفه ممن تهجموا عليه .

وفي باب « المرأة والمجتمع » يسرد تعالىم الإسلام التي أعطت المرأة حقها كاملاً وحددت لها وظيفتها الصحيحة ، وحمتها من التيارات العابثة ومطامع الشهوات الدنيئة . وتعقب باستنكار مسلك الطياشين المخدوعين بأوروبا ممن طوّعوا للمرأة ولأنفسهم المروق من شرعة الأدب والفضيلة ، والتمهيد لحياة التحلل والانطلاق الأعمى .

وأما كلام فضيلة الأستاذ عن الإسلام والاشتراكية ، فحسبنا أن نذكر أنه كان الرائد الأول للكتابة المستفيضة في هذا الموضوع فقد أخرج للناس من قبل « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » ، و « الإسلام والمناهج الاشتراكية » ، و « الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين » .

وهذه الكتب وما نشر له من بحوث متصلة بها ، تعد المصادر الأولى لما ظهر بعد ذلك من كتابات في الاشتراكية الإسلامية .

وهكذا يأبى الله ألا تثار حول دينه شبهة إلا ويقيض لها من يهتك سترها ويرزح غبارها : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » .
نسأل الله أن يمجزيه عن الإسلام خير الجزاء ، وأن يوفقه للعلم النافع ، والعمل الصالح .

صالح عثمانوي

٨ محرم سنة ١٣٧٠

مقدمة الطبعة الثانية

التدين طبيعة أصيلة في أهل هذا الوادي ، عرفوا به من فجر التاريخ إلى يوم الناس هذا ! .

على عهد الفراعنة الأولين كانت حضارة مصر متميزة بهذا الطابع الفريد ، كان المصريون يفكرون فيما بعد الموت ، ويستعدون للدار الآخرة استعداداً لم يؤثر عن غيرهم مثله ، ويتخذون الأهبة لثواب القبر وعقابه ، ويعتبرون الحياة الدنيا جسراً مخلود طويلاً ! ذلك .. على حين كان جيرانهم بين محبوس في سجن الضرورات المادية الضيقة ، أو مشغول بالجدل الفلسفي المتشعب . فلما ظهرت المسيحية ، واعتنقها الرومان ، ودخل فيها المصريون ، لم تلبث الفوارق بين الطبيعة المخلصة في تدينها والطبيعة الجافة الملتوية ، أن تكشفت وبرزت . فقدم المصريون شهداء كثيرين لعقائدهم . وثبتوا أمام تجهم الرومان وعسفهم .

ولا يزال المصريون الأقباط أخلص لمسيحياتهم ، وأحفظ لشعائهم من مسيحي أوروبا . والعالمي منهم يؤدي واجبات دينه كما لا يؤديها أسقف غربي ! ! .

ثم جاء الإسلام . وساح حملته في آفاق العالم يرضون على الناس آياته ، ويلطمون الجبابرة الذين أوصدوا الأبواب على التقاليد البالية ، ثم دفعوا بالأمم وراء حواجزها . وتفرست الأمم في ملامح هذا الدين الجديد ، ومحصت عناصره . فلما اطأنت إليه بدأت تطرح ما ورثت وتأخذ ما عرفت .

وكان المصريون في طليعة من دخلوا في دين الله أفواجا .

لقد دخلوا بإخلاصهم العريق ، وإيمانهم الوثيق ، وإقبالهم المعهود على الحق ، واستعدادهم القديم لبذل النفس والنفس في سبيل ما يعتقدون .
ومرت العصور بأحداثها فإذا بمصر عند الظن بها . زلزلت الأرض زلزالها تحت وطأة التتار الذين محوا معالم الحضارة في أزهر العواصم وأنصر البقاع .
واندفع السيل المجنون إلى حدود مصر يبغى القضاء على أمنع معاقل الإسلام في الدنيا . فشاء الله أن يلقى على هذه الحدود حتفه . فتلاشى وذاب .
وكذلك اندفعت الصليبية الغربية في غلّ دفين وتوحش مريع ، اندفاع العواصف المدمرة ، ورجفت شتى بلاد الإسلام من عنف الولايات التي أنزلها بها أولئك الغزاة السفهاء . وانتصبت مصر أمام هذا الروع ، وظلت مائتي عام تقاوم حتى ارتدت خاسئاً ذليلاً ! .

إن التدبّر مفتاح الشخصية المصرية ! فإذا وجدت هذه النفس الطيبة متنفّسها العميق في الإسلام كقعيدة ، وسياجها المتين في الإسلام كنظام ، وإذا وجد الإسلام من هذه الأمة الطيبة أفئدة تهوى إليه ، وتنفذ تعاليمه وتحقق أهدافه ، فانتظر نهضة ناجحة ومستقبلاً مشرقاً وخيراً غزيراً ، لا لمصر وحدها ولا للعروبة وحدها . ولكن للعالم أجمع .

والمستعمرون للشرق الإسلامي يعرفون هذه الحقيقة جيداً ، ولا يتوجسون شراً من شيء توجبهم من قيام حركة إسلامية تصل ما انقطع من تاريخنا ، وتتصل اتصالاً مباشراً بفطرتنا وميولنا ، وترشحنا للقيام بواجبنا العتيق ، على النحو الذي أنقذنا به الحضارة الإسلامية ، يوم بصقنا على الهياج التتري فأطفأنا ناره ، وتصدينا للهجوم الصليبي ففككنا آصاره ، وغسلنا أقداره !
ومن ثم ركّز الإنجليز والفرنسيون وغيرهم من كهنة السياسة وزبانية الاستعمار

— ركزوا قواهم في فصل الدين عن الدولة ، وإبعاد الإسلام عن ميادين
النشرية والتنفيذ ، ودفعه إلى الوراء ليعيش إلى حين — في مسجد مهجور ،
أو لتقرأ آياته في حفل كئيب .

ولئن بذل الاستعمار الخارجي جهوداً متتابة في هذه السبيل ، فلا ننسى
أن جهود الاستعمار الداخلي تسانده من ناحية أخرى فهي تعمل دائبة على
إفساد معنى الدين ، وخلق جيل يأكل بالإسلام ويعين عليه . وبصرف
عواطف الشعب المؤمن إلى مجال الخرافة والبدعة والجهل .

وكما تضع مياه النيل هباء في أعماق البحر الأبيض لا يستفاد منها في
إخصاب ولا إثمار . تضع مشاعر الإيمان المستكن في قلوب العامة والخاصة ،
وتتبخر في الفضاء الواسع الذي خلقه الاستعمار الداخلي ، ولا يزال يحافظ عليه
ليؤدي وظيفته . وظيفته في تثبيت الهمم النشطة ، وتفرغ الانفعالات الحارة ،
والميل بروحانية الأمة وتدينها الموروث ، إلى الذل والاستكانة والبلادة . . .

ومنذ ثلاثين سنة ثارت هذه الأمة ثورة عارمة على الإنجليز زحزحتهم عن
أماكنهم ، وخذشت كبرياءهم .

وكان الثوار في العاصمة يخرجون مواكب مواكب من الجامع الأزهر .
كان روح الدين تأبى إلا الإعلان عن وجودها فهي تنبعث من قلب مسجد!
واحتال الإنكليز واحتال أذنابهم معهم على اللعب بأثار الثورة العظيمة ،
فما زالوا يتعقبون مظاهر الإسلام في كل ميدان حتى حُصرت أخيراً في التوافه
الفارغة . وبلغ من جرأة الإلحاد أن دُرست في الجامعة كتب تحاول الطعن
على النبي العظيم محمد ، وأن حاول طالب التقدم برسالة لنيل الدكتوراه تقوم
على التشكيك في أخبار القرآن .

ومضى الاستعمار في طريقه فاصلا الدين عن الدولة والمجتمع والخلق فصلا
لبيل أفكار الأمة وقطع حاضرها عن ماضيها .

أفتراه بعد ذلك قدم للأمة عوضاً تنخدع به عما فقدت من تراثها الغالى ؟
كلا . إن تعليم الطير أن تمشى على الأرض أيسر من تدريب هذه الأمة على
النهوض بلا دين . ولن يغنى في ذلك عوض البتة . . .

وقد ألفنا كتابنا « من هنا نعلم » لتقرير هذه الحقائق المعروفة أكثر مما
ألقناه للرد على كتاب : « من هنا نبدأ » .

فإن القافلة الشاردة قد بدأت سيرها الغلط من سنين عديدة ، ولم تكن
في انتظار الشيخ خالد لتهم على وجهها في تلك المتاهة التي يفكرها الإسلام .
إن روح المقاومة الدينية تتقد في قلوب الأفراد والجماعات ، وقد قررنا أن
نعيش مسامين في ظل الكتاب والسنة — أو نموت .

وإذا مقتنا فلن نهلك — في هذا الكفاح — وحدنا ، بل يجب أن
يموت أعداء الإسلام معنا أو قبلنا .

والإسلام الذي نؤمن به وندعوله هو الذي جاء به محمد من عند ربه ،
وقام به أولو الأمر من بعده قياماً مبرراً نزيهاً . وليس هذا المسخ المصنوع من
أهواء الحكام السفلة ، أو تقاليد الكهّان المنافقين ، فإن عدوان هؤلاء
معروف من قديم على حقائق الديانات الأولى :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأخبار سوء ورهبانها ؟

فباعوا النفوس ولم يربحوا ولم تغل في البيع أثمانها !

فلنعم هذا أولا ، ولندلو زمام الركب الثانة عن الصراط المستقيم ، ثم

لندفع به « في ضمان السماء » إلى الغاية المرجوة والغد الكريم ؟

محمد الغزالي

مقدمة الطبعة الأولى

من حق الإسلام علينا أن ندفع للطاعن التي وجهت إليه ، ومن حق نهضته الأخيرة أن نزيح العوائق التي وضعت أمامها . ولقد رابتنا الحملات التي استهدف لها ديننا في أهم تعاليمه ، كما رابتنا الاستغلال المنظم لشبهات المفترين وتخرصات الجاهلين . واستبان لنا أن هناك مؤامرة واسعة النطاق دبرها الغزو التبشيري ، والاستعمار الثقافي ، لينال بها من مكانة الإسلام في قلوب بنييه ، وليوحد بها أبواب الأمل في وجوه المجاهدين ضد الإلحاد والاحتلال

ونحن نعرف أن « أوروبا » في القرون الوسطى أعلنت على الإسلام حرباً ظلت دائرة الرحي مائتي عام ، ارتدت بعدها الصليبية الغازية ، وهي لم تشف غليلاً لحقدها ، ولم تطفى ناراً لخصومتها الملتهمية

ثم جاء العصر الحديث والعزم القديم كامن بين الجوانح المنطوية على البغضاء والتعصب ، وكانت ظروف الهجوم مواتية هذه المرة لضرب الإسلام في صميمه وتمزيق أمتة الكبرى شعوباً وقبائل ، ثم توزعها أسلاباً خائرة منهوكة بين الطامعين والحقادين ، وتواضعت دول « أوروبا » أن تحارب بكل أسلوب نزعات الحنين إلى الحكم الإسلامي والتشريع الإسلامي ، حتى أنها لتنص فيما تبرم معنا من معاهدات على أن تكون قوانيننا السائدة امتداداً لقوانين الغرب الفاسدة ، وحذار ثم حذار أن تصلوا التشريع بمناخه الأولى من كتاب الله وسنة رسوله . إنها الرجعية التي جئنا بلادكم لننقذكم منها !!

وفي سورة الكفاح وغضبة الإيمان لنصرة الله ورسوله ، صدر منذ سنين كتاب « الإسلام وأصول الحكم » وفيه يزعم مؤلفه الشيخ على عبد الرازق

أن لاصلة للدين بالدولة ، فكان لهذا الكتاب من عالم مسلم في هذه الفترة العvisية من تاريخ الإسلام أسوء الأثر ! واعتبره المجاهدون في سبيل الإسلام عملاً خدم به صاحبه — من حيث يحتسب أو لا يحتسب — قضية الاستعمار الصليبي ، ومن ثم سحب الأزر منه شهادة العالمية . . .

وفوجئنا بعدها بالشيخ عبد المتعال الصعيدي يحاول هدم الحدود الإسلامية المستقرة في الكتاب والسنة ، زاعماً أن الأمر بها للندب لا للوجوب وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم (!) إلى آخر هذا اللغو الفارغ المتهافت .

ثم صدر أخيراً كتاب « من هنا نبدا » للشيخ خالد محمد خالد ، وهو الكتاب الذي أفردنا للرد عليه هذه الرسالة . وقد تضمن آراء جديدة ، وأخرى مشابهة لما سبق أن أبداه الشيخ على عبد الرازق .

وقد أحرزنا أن وجدنا فيها من الشطط والخلط ، ما يبرق بالناس عن الإسلام لوبدهوا الفهم والإصلاح من عندها كما يريد الاستاذ .

إن حرية الرأي لا تعنى حماية الخطأ وإعطاءه حق الحياة ، وأقصى ما يناله الخطأ أن يعيش ريثما يعدم ويتوارى ، والطريق التي تؤثرها أن نحارب الفكرة بالفكرة ، ونحن كممثلين للإسلام لانهاى أى هجوم عليه ، لأننا موقنون أنه سوف يتكسر على حدوده . ولذلك نحن نتلقف الشبه والاعتراضات والأوهام ونتركها تضطرب وتسعى ثم نقذف بينها بالحق الذى أنزله الله فيعود الأمر كما قال الشاعر :

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

وأحب أن أذكر أنى صديق للشيخ خالد منذ سنين ، ولكن ابن القيم لما رأى عوجاً في كلام شيخ الإسلام إسماعيل الهروى — وكان صديقاً له —

قال : شيخ لإسلام حبيب إلينا ، والحق أحب إلينا منه !! .
ولقد تحدث الناس أن الأزهر ربما سحب شهادة العالمية من الشيخ خالد
وهذا إجراء أرى أن التعليق عليه واجب .

فإن الأزهر يكيل بكيلين ، بل بعدة مكايل في هذا الموضوع ، فقد
أصدر قراراً ضد الشيخ على عبد الرازق ثم عاد فأبطاله ، واكتفى بنقل الشيخ
عبد المتعال من السكليات إلى القسم العام ! . وجُرّم الشيخ خالد هو جرم
هؤلاء الأشياخ .

وهناك شيء يختلج في النفس : هل الأزهر يحاسب على الخطأ العلمي وحده
أم على الخطيئة النفسية كذلك ؟ .

إننا نعرف أن الشيخ أحمد شاكر القاضي بالمحاكم الشرعية أصدر فتوى
بأن الإخوان المسلمين كفار !! وأن من قتلهم كان أولى بالله منهم (كذا)
والرجل الذي يصدر هذه الفتوى كان ينبغي أن يطرد من زمرة العلماء ، ومع
ذلك فلا نحسب أحداً أجرى معه تحقيقاً . . .

وهناك شيوخ كانوا يقودون حركات التعصب الإقليمي في الأزهر ويعيدون
الجاهلية الأولى بأقبح صورها ، بقيت معهم شهاداتهم ما فكر أحد في سحبها
منهم ! وهناك شيوخ بنيت أخلاقهم على محاربة الكفايات ، والضعينة على أولى
السبق والفضل ، احتلوا في الأزهر مناصب ضخمة ونشروا في أرجائه الفوضى
العلمية ، وشردوا منه أفضل علمائه ! لماذا يترك هؤلاء جميعاً يحملون شهاداتهم
العلمية والدينية ، ونفكر في سحب العالمية من الشيخ خالد وحده ؟ . إننا نرجو
أن يعيد الأزهر النظر في موقفه كله بإزاء هذه المسائل وأشباهها .

أما نحن فسنكتفي بتمحيص الحقائق في كتابنا (والله يقول الحق وهو
يهدي السبيل) .

إسلامية الحكم لا قوميته

« أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا

لِقَوْمٍ يَرْفِقُونَ » . (قرآن كريم)

« لتتقضى عرا الإسلام عروة عروة ، فأولها تقضاً الحكم ، وآخرها

الصلاة . . . » . (حديث شريف)

« يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة . وحد يقام في الأرض

بحقه أزكى فيها من مطر أربعين عاماً » . (أثر نبوى)

فساد قديم

بحسب الكثيرون إن الإسلام كشرعية ، عطلت أحكامه منذ قرن فقط ، أى منذ أن جعلت القوانين الفرنسية أساس الحكم في البلاد . أما قبل ذلك فقد كان الإسلام بخير في عقيدته التي تسكن القلوب ، ونظمه التي تسود المجتمع ! ! وهذا غلط . فالتشريعات الجنائية والمدنية التي استقدمت ليست إلا فروعا من الدستور الذي يقوم عليه أصل الحكم ، ويحدد العلائق بين الأمة وولاة أمورها ، قبلما يحدد العلائق بين أفراد الشعب إذا تنازعوا أو اتصلوا .

وقد كان هذا الدستور الخطير معدوماً ، في الوقت الذي كانت فيه الأحكام الشرعية منفذة في المسائل التافهة والمشاكل الصغيرة .

ولعل فقدان هذا الدستور هو الذى أتاح لواحد من الحكام (المسلمين) أن يلغى بحجة قلم تشريعات القرآن والسنة ليحل مكانها قوانين الدولة الفرنسية المسيحية أو للملحدة !!

وفقدان هذا الدستور هو الذى مهد الطريق لظهور طائفة من الحاكمين بأمرهم يباشرون السلطات العامة على نحو مطلق ، ولا يحكمون المسلمين بحسب بل يحكمون الإسلام نفسه ، ويميلون بنصوصه مع الهوى ، ويتصرفون فيه بالحو والاثبات على ما يشتهون ، وقد رأيت كيف عطل أحدهم القصاص والحدود وأباح الزنا والربا ! ! فانظر : أتجد انطلاقا في شئون الحكم يصل بأصحابه إلى هذا الحد الشنيع من السيطرة والإرهاب تخرس معه السنة العلماء وتذهل فيه جماهير العامة ! ! مع أن الأمر يتصل بالدين وهو قوام الدنيا والآخرة . . ؟ إن

الحكم المستبد شيء خطر جداً ! . إنه سرطان الأثم الذي يلتهم كيائها ، ويستهلك قواها ، ويذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها خلقاً ولا شرفاً .

ونحن مبتلون بمعالجة المظاهر والغفلة عن العلة الدفينة ، فالوجه الشاحب نذارى صفوته بالأصباغ ، والجسم الناحل نذارى عوارده بالملابس . أما الكشف عن الداء الخفي القاتل فذلك مالا نأبه له . . . وكذلك سكتنا عن دستور الإسلام في أصول الحكم فضاعت ، ثم تبعها الفروع فانتعانت ، وسقطت تعاليم الدين وحقوق الشعب في برائن الحكومات المستبدة كما تسقط المدن المفتوحة تحت وطأة الجيوش المتغلبة فلا ترى إلا غصباً ونهباً . . .

فلما استيقظ المسلمون أخيراً ، وقرروا العودة إلى الإسلام في عقائدهم وشرائعهم ، بدأوا يجرؤون الحقيقة من ذنبها ؛ لا من رأسها ، ويطلبون عودة الفروع قبل الأصول ، وينادون بتطبيق القصاص والحدود وغيرها قبل أن يطمئنوا . هل ستظل الأوضاع السياسية التي تبيح للحاكم ماأن يطوح بالتشريع الإسلامى مرة أخرى كما حدث قبلاً . وهل ستظل الأحوال الاجتماعية الظالمة التي تساند هذه الأوضاع وتجعل عامة الناس يتنفسون في أضيق من سم الخياط ؟ على أن رهبة الحكومات الجائرة جعلت فريقاً آخر من الناس يفكر تفكيراً مضطرباً مريباً . . . لقد رأوا حكاماً يقومون باسم الدين ويرتكبون مظالم فادحة ، فلما جنبوا عن مواجهة هؤلاء الحكام بالآثام التي يفعلونها ، رأوا أن يحملوا الدين نفسه أوزار الحاكمين باسمه ، ومن ثم قالوا : لا يصح للدين أن يحكم . . . ولماذا ؟ لأن بعض الذين لبسوا مسوح الدين فعلوا كيت وكيت . فعلى الدين أن يبوء بعارهم ، ويرجع بأصارهم ! ! وهذا منطق يجافى العقل والعدل ، ولا ينبغي الالتفات إليه . . ؟

وأولى من ذلك أن نكون رجالاً لا نخاف في الله لومة لائم ، وأن نعلن

سخطنا واحتقارنا لأولئك الذين ينصبون أنفسهم حكما باسم الدين
وهم لا دين لهم ! والذين لا يهمهم من الدين إلا أن يكون تدعيا لإثرتهم
وخادماً لشهواتهم ! .

وأن نسقط من أعيننا كذلك كل عالم يبيع دينه بعرض الدنيا ، ويمشي
في ركاب الظالمين ابتغاضاً عن سيئاتهم أو يبرر تصرفاتهم .

الحكم أداة لا بد منها لكل إصلاح

إن الإسلام ليس نظرية هندسية حسب المرء منها أن يفهم صحتها ويذكر
أدلتها ، أو فلسفة عقلية يتسلى الإنسان بمطالعتها ويدرسها إذا شاء لبعض
عشاقها . . . بل هو منهاج استوعب مجموعة ضخمة من التعاليم الروحية والعمالية
وقدم للناس قواعد يينة للإصلاح العام تمس من قريب شئون الفرد والمجتمع
والدولة . . ومن الذى يزعم أن دعوة إصلاحية تتبعد عن ميدان الحكم وتزهد
في الاستفادة منه لمبادئها ؟ إن الإسلام لو لم ينص على أنه دين يبنى السيطرة على
الدولة لما كانت هناك غرابة — مع ذلك — لا تجاهاه إلى الحكم ومحاولته
أن ينسلم مقاليد . .

ألا ترى الثورة في فرنسا ؟ لقد قامت باسم الحرية والإخاء والمساواة .
فلم تنفذ أغراضها بالتبشير والدعاية ، ولكنها أسقطت الحكومة القائمة واستولت
على زمام السلطة وباشرت تنفيذ مبادئها . . واعتبر اتجاهها إلى الحكم بداهة
لا تتحمل جدلاً . والثورة الحمراء التي اندلعت في روسيا وقامت على مبادئ
« ماركس » ؛ لم يخامر أصحابها قط أن الحكم بالنسبة لأغراضهم نافلة ، وأن
أفكارهم يمكن أن تعيش بعيداً عن مراسيم السلطة ، ومظاهر القوة وهيمنة
الدولة . . والإسلام قد جاء بمبادئ أركى وأتقى من المبادئ التي تمخضت عنها
هاتان الثورتان ، وسبل الإصلاح التي شرعها يجب أن تحفر بحجارها العميقة

في حياة الناس وتاريخ الدنيا بالأسلوب نفسه الذي يتجه إليه دعاة الحق والخير في كل زمان ومكان .

وهو ما حدث مع الرسول العظيم صاحب هذه الشريعة ، فقد بدأ هادياً ومبشراً ونذيراً ، وانتهى قاضياً وحاكماً ، بعد ما تحولت رسالته من طور الدعوة التي تُطارَد وتضطهد ، إلى طور الدولة التي تأخذ لربها ونفسها ما تريد . . . والحكومة التي أقامها الإسلام حكومة فكرية معينة ، ومبادئ مبيّنة ، وهي — في نظر نفسها وعند الناس — ممثلة هذه الفكرة وحاملة لواثها ، وهي إذ تطلب التمسكين في الأرض والاستيلاء على الحكم إنما تقصد إلى تحقيق مراميها : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » . وكما أن دولة مثل روسيا عرفت باحتضانها للشيوعية وقيامها عليها ، فالمفروض أن الدولة في الإسلام إنما تنهض على احتضان مبادئ الإسلام والدفاع عنه والدعوة إليه — بالحسنى لا بالإكراه — والهدف الأول لوجودها تقديس عاطفة التدين واحترام حقوق الله وجعل كلمة الله هي العليا . وقد قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمهام رئيس الدولة على هذا الأساس الواضح ، وكذلك مضى على سُنَّته الخلفاء الراشدون من بعده ؛ طلبوا الحكم ووصلوا إليه لا لشيء من جاه الدنيا وزينتها — فالدنيا وشهواتها كانت تحت أقدامهم ودبر آذانهم — ولكن لله ولي كتابه وابتغاء وجهه . وقد أفنوا أشخاصهم وأموالهم وأولادهم حتى قامت للإسلام حكومة ترعى عقيدته وتنفذ شريعته . . .

وسنسوق النصوص التي تستبين فيها معالم الدولة في الإسلام حتى يتضافر العقل والنقل على توكيد هذا المعنى . وقبل سوق هذه النصوص ينبغي أن نلقى ضوءاً كاشفاً على الحالة العامة التي تواجهنا .

بقية من الحروب الصليبية

إن حرمان الإسلام من حقه المقرر في الحكم واعتباره ديناً معزولاً عن الدولة هو جزء من العداوة التقليدية التي تكنها أوروبا للإسلام وأهلها ، وهي ترمى من ورائها إلى القضاء على الإسلام كدين ، بعد أن تغلح في القضاء عليه كنظام . . .

والنزعة الصليبية هي التي أوحى بإبقاء التشريع الوضعي وإحباط كل محاولة لإحياء التشريعات السماوية التي نص القرآن على ضرورة تطبيقها .
وقد يرتاب البعض في أن أوروبا تحركها ضد الإسلام نزعات صليبية حادة ويتخذه بما يقال ويشاع من أن أوروبا طلقت الأديان جملة ، وأن بينها وبين المسيحية أشياء وأشياء ! والحقيقة ما نقول ، فملك إنجلترا يلقب رسمياً بحامي المسيحية ، والبند الأول في برنامج حزب المحافظين إقامة حضارة مسيحية ، والحزب الحاكم الآن في إيطاليا الحزب الديمقراطي المسيحي ، وقد صوّتت الكثرة في بلجيكا للحزب الاشتراكي المسيحي ، ويوجد في دول أوروبا كافة ساسة يصدرون في أعمالهم عن روح مسيحية خالصة . . .

وصحيح أن هناك نزاعاً نشب منذ قرون بين الكنيسة والدولة انتهى بإقصاء الكنيسة وهزيمتها . بيد أن الكنيسة أدركت آخر الأمر أن ما حاق بها من هزائم سببه أغلاط بعض رؤسائها ومسالكتهم الشاذة ، فأصلحت من شأنها واتصلت بالحياة العامة مرة أخرى ، وظلت ترسخ أقدامها حتى سمعنا المارتيال (النبي) يقول في أثناء دخول القدس : « اليوم تنتهي الحروب الصليبية » . . .

وهو رجل عسكري وليس براهب ولا قسيس . وقد بلغ من حقد أوروبا

على الإسلام وأهله أن سمحت بقيام إسرائيل وأمدتها مادياً وأديباً بما يعينها على القوة والعدوان . وهذه الدولة التي تعيش في أحضان الغرب المسيحي تمثل اليهودية على أنها دين ودولة ! وهكذا يراد بالإسلام وحده أن يحرم من أسباب السلطان وأن يعيش فلسفة روحية مجردة ، في الوقت الذي تتسلح فيه اليهودية وتتسلح فيه المسيحية وتسخران دول العالم ضدنا . أفهذا ما يريده الأستاذ خالد؟ ولا شك أن الاستعمار أفلح في خلق جيل من المسلمين يعينون على أنفسهم ويحاولون — مع أعداء الإسلام — أن يقضوا على دينهم . ويوجد الآن للأسف الشديد جمهور من المثقفين يعتقدون أن الإسلام دين لا دولة ؛ بل الأدهى من ذلك أن بعض العلماء قد حطّب في هذا الحبل ، وما أظنهم يعنون ما يقولون . ! إن الدولة ليست للإسلام اليوم — وهذا منكر كبير وحَدَّثَ خطير — ووقوع ذلك على أنه افتيات على الدين وانتقاص من حقه ظاهر . أما محاولة تبرير الواقع وإعطائه الصورة التي يرضاها الإسلام ، فهي محاولة لاستدراج الدين إلى الرضا عن الجريمة والرضوخ للضميم والاعتراف بموت نصفه ثم إبقاء النصف الآخر على أبواب الفناء . إن الحكم في الإسلام ليس سياجاً فقط لحماية حدوده من عدوان خصومه والصادين عنه ، بل هو كذلك قيام على حقائقه الأولى بالتعليم والتربية والأمانة والتوجيه . وسنستعرض الآيات والسنن الدالة على ذلك ونرد على الاعتراضات والشبه التي أثارها بعض المؤلفين .

شبهات حول الحكم الديني

يقع في الوهم أن الحكم الديني إذا أقيم فسيكون رجاله هم أنفسهم أولئك الذين نسميهم الآن « رجال الدين » وقد تثبت في الخيال صور لعلماء كبيرة ولحى موفورة وأردية فضفاضة . وقد تتوارد هذه الصور وملاساتها الساخرة

فنظن أن الوزراء في هذه الحكومة سيديرون عجلة الحياة إلى الوراء وينشغلون بأمور لا تمت إلى حقائق الدنيا وشئون العمران بصلة ومن يدرى ؟ فقد يشتغلون بالوعظ ومحاربة البدع والاستعداد للحياة الآخرة .
وحسبهم ذلك من الظفر بالحكم ! .

وهذا وهم مضحك ولعله بالنسبة إلى الإسلام خطأ شائن ، فنحن لا نعرف نظاماً من الكهنوت يحمل هذا الاصطلاح المريب « رجال الدين » وقد يوجد فريق من الناس يختص بنوع من الدراسات العلمية المتعلقة بالكتاب والسنة ؛ وهذا النوع من الدراسات لا يعدوا أن يكون ناحية محدودة من آفاق الثقافة الإسلامية الواسعة ، تلك الثقافة التي تشمل فنوناً لا آخر لها من حقائق الحياتين ومن المعارف المادية وغير المادية . . .

والعلماء بالكتاب والسنة يمثلون فريقاً من المسلمين قد يكون مثل غيره أو دونه أو فوقه ، ولم يكن التقدم الفقهي مرشحاً للحكم في أزهى عصور الإسلام . وقد كان أبو هريرة وابن عمر وابن مسعود من أعرف الصحابة بالكتاب والسنة ومن أكثرهم تحديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فهل كانت منزلتهم في بناء الدولة الإسلامية منزلة الخلفاء الأربعة أو منزلة سعد بن أبي وقاص أو خالد بن الوليد أو أبي عبيدة بن الجراح ؟ .

الواقع أن المسلمين كافة رجال لدينهم — أو ذلك ما يجب أن يكون — والذي يخدم دينه في ميدان القتال أو السياسة أو الحكم أو الصناعة أو العلم هو لا ريب رجل لدينه لا غبار عليه ، وليس أحد أحق من أحد بهذا الوصف ولا كان احتكاراً لطائفة دون أخرى يوماً ما .

والصورة الصادقة للحكومة الدينية — كما يقيمها الإسلام — صورة رجال أحرار الضمائر والعقول ، يفنون أشخاصهم ومآربهم في سبيل دينهم وأمتهم .

صورة كفايات خارقة ، وثروات عريضة ، من بعد النظر ، ودقة الفهم ، وعظم الأمانة ، تسعد بها المبادئ والشعوب .

صورة أفراد لهم مهارة عبد الرحمن بن عوف في التجارة ، وابن الوليد في القيادة وابن الخطاب في الحكم ؛ قد يولدون في أوساط مجهولة فلا تبرزهم إلا مواهبهم وملكاتهم في مناحي الدنيا وميادين العمل .

إن الحكم الديني ليس مجموعة من الدراويش والمتصوفة والمتنعين في ظل الخرافات المقدسة . . . ويوم يكون كذلك فالإسلام منه برى . .

هل توجد الآن حكومات إسلامية ؟

وقد يظن أن الحكم الديني أعطانا معالم واضحة عن أهدافه وعن أساليبه فيما نرى ونسمع بجزيرة العرب : اليمن جنوباً ، ونجد والحجاز شمالاً . وعلة هذا الظن أن تلك الأقطار وحدها هي التي تقطع يد السارق ، وتجلد الزاني ، وتقيم حدود الله ؛ أي أنها هي الحكومات المسلمة التي بقيت مصرّة على تنفيذ هذه الأحكام في عصر قد جحدتها ونفر منها نفوراً شديداً . ونحن لانمارى في أن الحدود من الإسلام ، ولكننا نستغرب أن تحسب الإسلام كله ! ونحن نريد أن تقام الحدود لتحفظ الحقوق ، وتوطد الأمن ، وتحرس الفضائل ، لأن تقام الحدود لتقطع يد لص صغير سرق دريهمات ، ثم يدرأ الحد ، بل لا يفكر في إقامته أبداً على لص سرق القناطير المقنطرة من خزانة الدولة ، ومن موارد الشعب ! .

وجزيرة العرب من أفقر بلاد الله إذا نظرنا إلى معيشة سكانها . فإذا علمت أن عدداً من الأسر قد احتكر أقواتها وهيمن على إنتاجها ووضع في جيبه ثمن معادنها وبتروها ، فهل تجرؤ على القول بأن هذا حكم ديني ،

بل هل تجرؤ على القول بأن هذا حكم مدنى ؟ . إن كثيراً من بلاد الكفر
أعدل حكماً ، وأرق ضميراً ، وأرفع مستوى من هذه البلاد ! . فكيف يظن
أن ما بها من فوضى وجور واعتساف صورة لحكم إسلامى ؟
وما هو إلا مجتمع تعس من السادة والعبيد ؟ ! .

لقد قلنا إن التشريعات الجنائية والمالية ليست إلا فروعاً من الدستور
الذى يجب أن يقرر أولاً وتحدد فيه حقوق الحاكم والمحكوم ، فإذا فقد هذا
الأصل فأى غناء للفرع بعد فقدانه ؟ . وجزيرة العرب ليس فيها دستور
إلا سلطان الفرد المطلق ، عندما يكون لسان الحال لحاكم ما هو لسان المقال
الذى نطق بفرية فرعون الكبرى عند ما صرخ فى أتباعه « أنا ربكم الأعلى »
فكيف يقال إن هناك قانوناً قائماً ، أو إن هناك حدوداً محترمة ؟ ! .
لقد كان بيت المال — أيام الخلافة الراشدة — للأمة ، وللحاكم منه
الفتات الذى يمسك عليه حياته فقط .

أما فى جزيرة العرب فبيت المال للحاكم ، يأخذ منه أولاً نصيب الأسد
ثم يرمى بفضلاته للمصالح العامة ! .

فكيف يقال إن هذه حكومات دينية ؟ وإن حدود الله فيها أقيمت ؟
إن هذه البلاد — للأسف البالغ — بحاجة ماسة إلى ما يحفظ عليها كيانها
المجرد ، فإن تم لها ذلك أمكن أن ترفع إلى المستوى الذى يرسم لها الإسلام !
وقبل أن تصل إلى هذه المرتبة لا يجوز ألبة أن يقال : هذه حكومات
طبقت الإسلام ديناً ودولة .

مثار الخطأ . . .

ولكن زميلنا الأستاذ خالد في كتابه « من هنا نبدأ » بدلاً من أن يذكر هذه الحقيقة ويعامل على ضوءها الحكومات التي تنتسب للإسلام ولا تخضع لتوجيهه فيحملها أوزار مسلكتها ويخلص الإسلام من جريرتها — حمل الدين نفسه هذه الآصار الثقال ، ثم بنى على ذلك أنه ما دام هناك حكام قد قاموا باسم الدين فأخطأوا ، فليقتص الدين عن الحكم أبداً ، وليحرم من السلطة التنفيذية !!

إن هذا ظلم للإسلام وتجاهل لأهدافه ، ثم هو ترك للمجرم الذي أشيع شهواته باسم الله ورسوله . . .

لماذا لا نقول بملء أفواهنا : إن هناك أفراداً سطوا على تاريخ الإنسانية — وكانوا على حظ كبير من الجراءة والمغامرة — فسرَقوا أقطاراً وأجيالاً ، وأسسوا بأسمائهم الشخصية دولا ، وصنعوا لأنفسهم وبنيتهم مجداً ؛ وعملهم هذا — برغم الهالة التي أحاطت به — لا يعدوان أن يكون صورة مكبرة ألف مرة أو ألف ألف مرة للسارق الصغير الذي يسرق آنية من بيت أوقرشاً من جيب ! وأن هذا السارق الصغير في أثناء عدوانه على حق الفرد وأمنه قد يقتل أو قد يجرح من يعترضه . وكذلك يفعل الذين ظهروا في تاريخ البشرية يلبسون ثياب القادة والفاحين والمغامرين . إنهم يدوسون حقوق الجماهير ويحطمون مقوماتها . وقد أصبحت أم شتى في الشرق الإسلامي المسكين بعاهات مستديمة عندما تعرضت لنزوات أولئك الأفراد الطامحين . . .

لماذا لا نضع الجريمة وأصحابها داخل إطار أسود ثم نقول : هؤلاء لا صلة للإسلام بهم ؟ بل إن الإسلام — مثل الشعوب — متورث من صنيعهم به واستغلالهم لنصوصه . أما أن نحمل الإسلام آثام هؤلاء فذلك خطأ بعيد .

الحدود وضرورة إقامتها

ويبدو أن خالداً لم تعجبه طريقة تنفيذ الحدود في الحكومات المنعوتة بأنها إسلامية فوقع في الخطأ السابق نفسه إذ حمل على الحدود ، بدل الحملة على الملابس والأوضاع الاقتصادية السائدة هناك .

والحملة على الحدود التي شرعها الإسلام لا مبرر لها ولا أساس .
والقول بأنها موقوفة التنفيذ ، أو أنها للإيهام المجرد ، أو أن الرسول عطلها يوم شرعت قول يحانب الصواب .

إن الأوامر بإقامة الحدود صريحة في الكتاب والسنة .

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بتنفيذها جميعاً في أحوال كثيرة ورفض فيها الشفعاء من أعز أحابيه واكتفى أحياناً بالقرائن الحاسمة ، ولم ينتظر توافر الشهود ؛ مما جعل بعض الفقهاء يأخذون بالقرينة في موضع الشهادة ويقيم الحد بها . وصحيح أن الرسول راجع بعض الناس عندما اعترفوا على أنفسهم بالجريمة بيد أن لذلك تفسيره الذي يظهر سره ويكشف حكمته ، وهو إن دل على شيء فعلي سمو الدين وعظمته . إن الغرض الأول من إقامة الحدود محاربة الجريمة وتعقب الزناة والسفلة واللصوص .

ولاشك أن بعض المؤمنين قد يلم بسيئة مما حرم الله فيضيق لذلك صدره وتسود الحياة في ناظره ، ويهرع إلى الرسول يبغى أن يظهر نفسه بالموت أو بما يشبهه .

فهل هؤلاء المساكين الذين زلت أقدامهم من حيث لم يحتسبوا ، يصح اعتبارهم مجرمين خطرين ، فسارع إلى التنكيل بهم متى وقعوا في أيدينا ؟
إن الرسول ليس وكيل نيابة مهمته حصار المتهم بين المواد التي تهلكه :

ولكنه قبل ذلك مرب كريم ومعز رحيم وهو القائل : « أقبلوا ذوى المروءات
عثراتهم . فوالله إن أحدهم ليعثر ويده بيد الرحمن » .

فإذا جاءه شاب تكاد عينه تقطر دماً لمعصية انزلق فيها — وهؤلاء غالباً
من ذوى العواطف المتهاجة — فمن حق المجتمع بل من حق الإنسانية كلها
أن تستبقى حياة هؤلاء الأشخاص ذوى الضمائر الحساسة والمشاعر المرفهة .

وهذا ما فعله الرسول عندما راجع المقرين بالحدود وأعطاهم فرصة الفكاك
منها . وإنك إذ تتصور هذه الفتاة التى أسموها الغامدية ، وقد جاءت تطلب
الرجم — وهى حامل — فلما أرجئت جاءت تطلب الرجم ومعها رضيعها ،
فلما أرجئت جاءت تطلب الرجم ومعها وليدها يسعى ، ويده قطعة خبز ؛
أنحسب الرسول كان يترك هذه الفتاة ليسىء بتركها إلى المجتمع ؟ كلا إنها التوبة
من الخطيئة تسعى على قدمين . إنها تشبه أن تكون ملكاً كريماً لا بغيّاً
ملوثة . فإذا رأينا الرسول يعامل أضرابها من الرجال والنساء معاملة خاصة ،
فلهذه الحكمة البالغة فقط .

أما حيث يظهر المسلك الملعوج ويبدو حق المجتمع فى محاربة الفسق
والعدوان فقد أمر الرسول بالقتل والصلب ولم تأخذ به بأحد رأفة ، أمثالاً
لأمر الله ، وقياماً على تعاليم دينه .

إن قصار النظر من الباحثين فى الحدود يريدون أن يفهموا من وقف
التنفيذ فى بعض القضايا أن المبدأ القانونى نفسه قد انهدم ، وأن قيام التشريع
وضرورة الحكم به قد أصبحا موضع شك ! .

ومن أين داخلهم هذا الفهم السخيف ؟ . إن القوانين الموضوعية فى هذا
العصر لم تتعرض لهذا الابهام ، مع أن القضاء كثيراً ما ينظر إلى الملبسات التى
تحيط بالمتهم ، والظروف التى تسكتنف القضية ، ثم يصدر حكماً مخففاً أو موقوفاً

وكما تتحوّل الجنح إلى جنایات تتحول الجنایات إلى جنح ، فهل يقال : إن الدولة قررت إلغاء القانون ، لأن الملبسات تتحكم في أوصافه وفي إنفاذه أو إيقافه ؟ أم يعتبر القانون قائماً ويعتبر النظر إلى هذه الملبسات جزءاً من القانون ؟ .
 إن هذا ما يقوله العقلاء . ولست أدري كيف خبط الشيخ خالد — ومن قبله الشيخ عبد المتعال — في هذا الموضوع فزعم أن قوانين الحدود ليست جدية (!) أليس هذا هو الهزل ؟ ! .

عن عائشة : « أن قريشاً أهمهم شأن الخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ؟ وظنوا أنه لا يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبيب رسول الله ، فكلمه أسامة رضى الله عنه . فقال : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ! وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ! » .

وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله يقول : « من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله تعالى فقد ضاد الله عز وجل » .

وعن الزبير أنه لقي رجلاً قد أخذ سارقاً يريد أن يذهب به إلى السلطان فشفع له الزبير ليرسله ، فقال : لا ، حتى أبلغ به السلطان . فقال الزبير : إنما الشفاعة قبل أن يبلغ السلطان ، فإذا بلغ السلطان لعن الشافع والمشفع .

إن الجرأة على الحدود التي شرع الله لعباده جزء من تملك المدنية العصرية وقوانينها الحديثة . و « أوروبا » لن تطرب لكلام أوجل في أذنيها نغماً من انصلاح المسلمين عن دينهم كعقيدة وشريعة . ثم إن أمر العقيدة والشريعة سواء . والعقل المدخول الذي يريد منا أن نتأول نصوص الفقه التشريعي

في الحدود والقصاص والمعاملات سوف يطلب منا غذا أن نتأول كذلك نصوص الإسلام الأخرى في الصلاة والصيام والزكاة والحج ، فليست هذه أولى من تلك بوقف التنفيذ ! بل إذا سرنا على منطق التعطيل — كما رَدَدَهُ الشيخ خالد — فإن العبادات ستسبق المعاملات إلى أودية الفناء .

تكلمت في كتاب « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » عن جريمتي السرقة والزنا ، فلم أخدش الحدود التي قررها الدين — وحاشى أن أفعل — ثم خضت في ملابسات التنفيذ اليوم خوفاً حراً ، ولو قد سلك العلماء هذا المسلك لأنصفوا الدين وأراحوا الناس وأقروا العدل . . .

جزء من عمل الحكومة الدينية

فالذين يفهمون أن الحدود موقوفة التنفيذ لمثل هذه الملابسات ، أو لما أحيطت به من ضمانات ، إنما يسيئون فهم النصوص الثابتة والآثار الواردة . وقد رأى الأستاذ خالد أن هذه الحدود — على فرض ثبوتها وبقائها — يمكن أن تضم إلى القانون المعتاد وتشرف على تنفيذها حكومة مدنية ، لاصلة للدين فيها بالدولة .

ونحن نقول : إن الحدود ثابتة باقية ، وإنها بعض تعاليم الإسلام التي تنهض بها الحكومة المعتزة بدينها المتعصبة له .

ولو أن إنجلترا أدخلت الحدود في أحكامها ما تحولت بذلك إلى دولة إسلامية ! فالدولة في الإسلام ممثلة فكرة — كما أسلفنا القول — تعيش بها وتعيش لها ، كما تمثل روسيا الشيوعية وتقيم نظامها في الداخل وعلاقاتها في الخارج على ضوء الإخلاص التام لفكرتها .

من قال إن وظيفة الدولة تطبيق عدة أحكام جزئية فقط ؟ . إن الإسلام في الميدان السياسي ديمقراطية حرة ؛ وفي الميدان الاقتصادي اشتراكية معتدلة . وقواعد التربية التي يدعم بها الأخلاق ويضبط بها المجتمع كثيرة ، ووظيفة الدولة أن تقيم كل شيء في الأمة ، وأن تسوق الرجال والأموال لتحقيق هذه الاتجاهات التي نصحت بها تعاليم القرآن والسنة . أما أن نتخيل صورة شاب سفيه كيزيد ، أو مجرم سفاك كالخجاج ثم نقول : هذه ثمرات الحكم الديني فشرود عن الصواب ، واتهام لا موضع له .

هل نريد إيماناً أعزل أمام إلحاد مسلح ؟

اتفق الباحثون من المسلمين ومن المستشرقين على أن عقيدة التوحيد أساس الإسلام . وقد كتبنا في مقال لنا منذ عامين : أن استقرار هذه العقيدة معناه توطد حقوق الإنسان من حرية وإخاء ومساواة ، إذ أن التوحيد الحق يعني أن البشر كافة عبيد الله ، فإذا تأله أحدهم وحاول فرض نفسه على غيره ، وجب قمعه وردّه إلى مكانه على عجل . . . ولكن المتكبرين من أرباب المال والجاه لا ينزلون عن سلطانهم الموروث بسهولة ؛ ومن ثم لا يتركون هذه العقيدة التي تزلزلا أوضاعهم تنتشر في هدوء .

وليت من لم يكن بالحق مقتنعاً يخلى الطريق فلا يؤذى من اقتنعا ولذلك منذ ولد الإيمان في الأرض ولد الجهاد معه ! وهو لم يشق طريقه في الحياة إلا على ركام من أحداث الشهداء ، وقد استمعنا إلى رسل الله وهم أحسن الناس بياناً ، وأعفهم غرضاً ، وأصدقهم كفاً ، يحاولون بالإقناع الجرد أن يصلوا إلى الأفتدة المعلقة ، فماذا حدث لهم وبماذا أجيبوا ؟ إننا نستقرئ القرون السافرة فلا نجد إلا أقواماً « جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم

فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ . . . وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ .

وليتهم سكتوا عن ذلك . فما هي إلا أيام حتى نستمع إلى دوي السلطة الغالبة يتكشف عن هذا الإنذار : « وقال الذين كفروا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا » . . .

فإن تكن الدولة للكفر تمنحه في الحياة هذا المنطق العنيد ، فمن البدايات التي يجب ألا تناقش أن تكون للإيمان هو الآخر الدولة التي يدفع بها عن نفسه في بيئته الأولى ووطنه الذي يأرز إليه ويحتسب به ؛ الدولة التي يساند بها أشياعه في سائر بلاد العالم ، بل يحارب بها الظلم حيث كان .

وقد بدأ الإسلام كذلك . طرده الدولة القائمة بمكة فكان أن أسس دولته بالمدينة . . . ثم استعاد ما فقد أول أمره . فلما نهضت الدولة الإسلامية الأولى على قدميها كان عملها الأول أن ساقطت جيوش التحرير أفواجاً لتسدك الكسروية المتأهلة في فارس والقيصرية المتأهلة في الروم ، ولتمنح حق الحياة الكريمة للجماهير التي ترعرت دهرًا تحت وطأة هذه السلطات السفهية ، وكان من المستحيل في ظل السطوة المقررة للملوك الأقدمين أن تنشر دعوة أو تستنقذ أمة بالحاجة والإفناع . وقد شعرت المسيحية في عصور الاضطهاد الأولى أنها في حاجة ماسة إلى سلطان يدفع عنها الأذى والعدوان ، فسعت إلى الحكم — مع قلة النصوص لديها بشأنه — حتى استولت عليه . . . فهل الإسلام الذي تكاثرت نصوص الحكم فيه هو الذي يقال عنه : إنه دين لادولة ؟ ومتى يقال ذلك ؟ في العصر الذي تسلمت فيه مبادئ كارل ماركس وأصبح إنكار الألوهية عقيدة القاهرة ، تهدم بها المساجد في القوقاز ويشرد بها ثلاثون مليوناً من المسلمين . . . وفي العصر الذي استيقظت فيه الخوصومة

التقليدية بين الشرق الإسلامي والغرب الصليبي ، لأن هذا الغرب يأبى
إلا استذلانا واحتلال بلادنا وقص أجنحة الإسلام بإلغاء تشريعاته وهدم
تقاليده ، مستوحياً بذلك الكنيسة التي تعمل فيه من وراء ستار ؟ ! إن الدولة
في الإسلام لم تسكن في عصر من العصور ألزم له منها الآن ، لا لأنها جزء
من كيانه الحى فحسب ؛ بل لأن هذا السكبان كله مهدد بالزوال ، في عالم تدور
فيه أعاصير الفتن ولا يقوى على البقاء فيه إلا الأقوياء . إن الحكم من الناحية
العلمية إن لم يكن شطر الإسلام فهو شرط بقائه ، ومن الناحية الواقعية نستطيع
الجزم بأن الحكومات التي لا إسلام لها ليست إلا امتداداً لشهوات الاستعلاء
والتشبع واحتقار الأديان جملة ، وإهمال أوامرها تفصيلاً . . . هذا في الشرق .
أما في الغرب فقد علمت أن المسيحية لها سيطرة غير مباشرة على تلك الحكومات
فما يقوله الأستاذ خالد من أن الدين ليس إلاعلامات تنصب أول الطريق
لترشد المارة إلى اتجاهاته المختلفة ، وأنه — لذلك — لا علاقة له بالسلطات .
هذا كلام خيالي يشبه الشعر الحالم ، فالطريق مليئة بالقطاع والدين إن
لم يسر فيها قافلة منظمة يوشك أن تتخطفه الشياطين من هنا ومن هناك .

غرائز الحكومة الدينية

اختار الشيخ خالد هذا العنوان ؛ ليسرد تحته مثالب الحكم الديني ، كما توهمها ! وكأنه يصف طباع وحش مفترس الأظفار ، مخضَّب الأنياب من دماء الضحايا ! . وم يكن سروري كبيراً لو أنه جعل العنوان : « غرائز الحكم الاستبدادي » مثلاً ، ثم أبان بُعد هذا الحكم عن الإسلام وظلمه لدين الله ودنيا الناس جميعاً !! إنه بهذا ينصف الدين من الأوغاد الذين استغلوه شر استغلال وافاتوا به على الحق المجرد ، والمنفعة المنشودة للشعوب المظلومة .

ثم هو بهذا لا يقع في تناقض مع نفسه كهذا الذى وقع فيه عندما كتب تحت العنوان « غرائز الحكومة الدينية » يقول : « هى بعيدة عن الدين كل البعد . فالحقيقة أن الحكومة الدينية وإن ظفرت بهذه التسمية التى توهم أن لها بالدين صلة لا تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله بل من نفسية الحاكمين وأطماعهم ومنافعهم الذاتية . . . » فلماذا إذن تسمى حكومة دينية ؟ ما دام دستورها لا يمت بصلة إلى كتاب الله وسنة رسوله ؟ ثم لماذا تطرح أوزارها على الدين نفسه فيحرم من الحكم عقاباً له على تصرفات هى ضد طبيعته وشريعته ؟ ولماذا لم يقترح الأستاذ خالد بعدما تكلم عن طبيعة الإسلام أن تلتزم الحكومة الدينية حدود هذه الطبيعة الواضحة ، أو تجرد من لقب لا تستحقه وتدمغ بالصفة التى تناسبها ؟ على أن الأستاذ مضى فى طريقه يحارب فى غير عدو ، ويخصى عيوباً سبعة للحكومة الدينية ، هى حيثيات إقصاء الدين عن السياسة ، وطرده للأبد من الدواوين والمراسيم . فلما أعوزته الأمثلة التى تشهد لهذه النتيجة قال : « وفى الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أحوال مروعة حتى أن حاكماً دينياً واحداً — وهو الحجاج — أباد البقية الكريمة من صحابة رسول الله » .

ولأول مرة يفرع سمى أن الحجاج حاكم ديني !! وما أظن الحجاج نفسه طمح فى هذا اللقب وما أظن أحداً من المؤرخين أسبغ عليه هذا الوصف الغريب ، لكن الأستاذ خالد فعلها ، وانتقل منها إلى أن ديناً يحكم الحجاج باسمه لا يصح له أن يحكم . . .

قال ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعرى لسليمان بن عبد الملك يصف الحجاج :

« يا أمير المؤمنين . كان عدو الله يتزين تزين المومسة ، ويصعد المنبر

فيتكلم بكلام الأخيار . فإذا نزل عمل عمل الفراغة . وأكذب في حديثه من الدجال . »

وتاريخ الحجاج مثل صارخ لفسق الحكام عن أمر الله واستهتارهم الفظيع بالدماء والجرائم . ولولقى جزاءه في الدنيا لكان الشفق أهون عقاب ينزل به .

ومع ذلك فقد أصبحت تصرفاته في نظر خالد تفسيراً للإسلام ، يؤخذ حجة على كتاب الله وسنة رسوله !! .

ونستطيع أن نضم إلى هذا الدليل أن نابليون بونابرت — رضى الله عنه — اعتنق الإسلام ولبس عمامة التقى والصلاح على أيدي علماء الأزهر ، ثم ارتكب بعد ذلك من الجرائم السياسية ما نعلم . . . مما لا يصح معه قط أن يعتبر الإسلام ديناً ودولة — بعد تصرفات نابليون الشائنة — فإن طبيعة الحكام الدينيين القاسية تجرى في دمه !! وتنطق بخطورة تحكيم الدين في الشؤون العامة .

شطط !!

ينقد الأستاذ خالد الحكومة الدينية فيتساءل « دستورها الذى تعمل له وتقوم به ماهو ؟ إنها حين تسأل هذا السؤال تفر وتهرب إلى الغموض الذى لا تستطيع أن تعيش إلا فيه وتقول : هو الدين هو القرآن ، لكن القرآن — كما قال على — حمال أوجه — والسنة كذلك . . . » . وهذا الكلام سيء جداً ، فلو أن الطعن فى أشخاص الحكام باسم الدين ملاً صفحات الكتاب كله ما اكرثنا لذلك ، ولكن الطعن نضح هنا على الدين نفسه فأصبح متهماً بالغموض والإيهام ففجاج الحكومة الدينية بعدما كانت معللة

باتباع الأهواء والشهوات ، أصبحت معلة بأن القرآن غامض وأن السنة كذلك ، وأن دستوراً يعتمد عليهما في سياسة الشعوب إنما يعتمد على فراغ . وهنا نختلف مع المؤلف اختلافاً كبيراً ، فاقترآن كتاب واضح يقول فيه منزله « تلك آيات الكتاب المبين » والسنة مزيد من البيان لما أجمل القرآن ذكره من تفاصيل العبادات والحوادث . ومن أيسر الأمور أن تعرف من الكتاب والسنة طائفة ضخمة من العقائد والأحكام قرّرت ولم تستجر حولها الآراء ولم تتكاثر الوجوه ، ولو كانت نصوص القرآن والسنة بالمتابة التي ذكرها المؤلف لما عاش الإسلام يوماً واحداً ، ولما ربي رجلاً واحداً . وقد استشهد الشيخ خالد على آراء كثيرة بالآيات والأحاديث ، فقال : « إن إحدى خصائص الدين قبل أن تخالطه الكهانات تحريّر البشر من النسلط والاستغلال » ووصل إلى هذه النتيجة السليمة من نصوص الدين نفسه التي وصفها بأنها حمالة أوجه . . .

صحيح أن القرآن اعتمد في أحكامه وتوجيهاته على التعبيرات العامة والألفاظ المرنة حتى يسير العصور كلها إلى قيام الساعة . وهذه آية من آيات إعجازه . بيد أن العموم والمرونة شيء آخر غير الغموض والإيهام ! ! وقد كان الخوارج على عهد علي يكفرون المذنب ويلتقفون آيات الوعيد فيسيئون تطبيقها على الناس ، وعلى وفقهاء الصحابة يدرون أنهم الدراية بالملابسات التي صحبت نزول هذه الآيات ، ومن ثم وصى ابن عباس ألا يحاجّ هؤلاء الخوارج بالآيات المجردة بل بالسنة الموضحة فهي أشبه بمذكرة تفسيرية للقانون . ولم يقل أحد من العلماء أبداً إن كلا من السنة والكتاب مشكل ، وحمال أوجه .

نعم إن علي بن أبي طالب أوصى ابن عباس لما أرسله لمناظرة الخوارج ألا يحاجهم بالقرآن ، لأنهم يشغبون به ، ويحيثون إلى صيغ العموم فيه فيطبقونها على الكافر والمؤمن غير ناظرين إلى شروح السنة لها . فكان علي يريد مواجهتهم بالنصوص الحاسمة من كلام رسول الله ، حتى يقطع جدلهم ؛ والسنة في نظره تفسير لا مهرب منه . فإيهام القارىء أن علياً يرى أن السنة حمالة لوجوه ضرب من التدليس العلمى لا يستساغ !!

والاعتماد على هذه الحكمة في اتهام القرآن والسنة بالغموض لا قيمة له ألبتة . إن كان المقصود من هذا الكلام أن النصوص التى جاء بها القرآن مشبهة للدلالة فغير صحيح . فلو كانت بعض الآيات المتصلة بذات الله وصفاته فوق مستوى العقول ، فإن آيات العقائد والأحكام والأخبار والأوصاف — وهى أكثر القرآن — محكمة . ثم هى وحدها منبع التشريع ومناط التكليف « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات — هن أم الكتاب — وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فينبغون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » .

وهذه الآيات المحكمة ، منها قطعى الدلالة فى موضوعه بحيث لا يتحمل إلا معنى واحداً لا ريب فيه ، وهو كثير فوق الحصر . . .

ومنها ما يكون مرناً للفظ بحيث يتحمل معانى عدة تستفاد بحسب قواعد اللغة وأساليبها . وفارق كبير بين المرونة والفوضى !! وهناك علم أصول الفقه قد بين الأئمة فيه طرائق استدلالهم وقواعد استنباطهم ، على نحو بلغ الغاية من الدقة . وقد تكلم علماء الإسلام فى دلالات الكتاب والسنة وفجّروا منها بحاراً من الأحكام الزخارة والصور الرائعة ؛ هى إلى اليوم آية من آيات الله فى القوة والسمو والوضوح . فلما جاء على الإسلام عصر أصبح المتهمون فيه

هم قضاة الناس وولائهم ، جاء الشيخ خالد يستدل بأقضية المتهمين وأفهامهم على غموض الكتاب والسنة ! .

ونحن نعلم أن الناس يُعَيَّرُونَ بتركهم للدين وخروجهم على أحكامه — كما يفعل الوعاظ — !! بيد أن الشيخ خالداً يُعَيَّرُ الإسلام بخروج البعض عليه ويريد ليحمله تبعة أعمالهم . فإذا ضلّ الحجاج فالعلة في نظره أن التشريع غامض ، لأن الحجاج حاكم ساقط . . . وتطرد الأمثلة في استدلاله على هذا النحو المتداعى ، حتى يخرج منها في النهاية بأن الدين ليس أهلاً لأن يحكم! ولو كان عبث الأحكام بنصوص الحكم سبباً لإهدار العمل بها ، فلم لا يكون عبث العامة بسائر الأحكام في العقائد والآداب سبباً لإهدارها كذلك ؟ . وننفذ أيدينا من الدين وتكاليفه جملة ! . أحسب أن هذه ستكون نهاية المطاف في الحملة التي تشنها الإباحية على الإسلام . وما هدم الحكم الديني غير أول النذر .

نم إن المسألة لم تكن ولن تكون أبداً غموض حكم الله في أمر من الأمور إنما المسألة هل تنفذ الأحكام أم لا ، وهل تسير في سبيلها الممهدة أم تلتوى بها المأرب الدينية ؟ وهل تسمح لها بأداء رسالتها أم تفسدها بالتجمل والتأويل ؟ أما ما يقوله الأستاذ خالد من أن علياً ومعاوية كانا يتنازعان الاستدلال على وجهة نظرهما بآيات واحدة وأن أصحاب عليّ وهم يحرصون على دم معاوية كانوا يقدّمون بين أيديهم طليعة هائلة من الآيات والأحاديث هي نفسها التي كان يحرص بها أصحاب معاوية على دم عليّ وقتاله . فهذا كلام باطل وفهم سيئ لبواعث القتال الذي نشب ، ومعناه أن القرآن يصلح للاستدلال على الشيء وضده ، وأن غموضه المريب جعله سلاحاً ذا حدين يصيب العدو والصدّيق معاً ! ونحن نزيد الأدلة استطراداً على صحة هذا الكلام (!) : فقد زجرت رجلاً ممن

يجرون خلف النساء ، يبغى بهن الفاحشة فقال لى مستدلا على وجهة نظره من القرآن الكريم نفسه : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ » ؟ .
وحدث أن نَفَتْ حكومة مصرية بضمة آلاف من خيار المؤمنين وأفاضل المسلمين ، ففتحت لهم السجون والمعتقلات واستدلت على ذلك بقوله تعالى :
« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » .
وعندما أعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ كتب أحد الشيوخ يُغرى العرب بالعمل مع جيوش الحلفاء المحتلين ضد الترك المسلمين فقال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .
وهكذا نُحْمِلَ القرآن الكريم لوثات العقول والنفوس ، ومطامع الكبراء والسفهاء ونلبس الحق بالباطل ونقول إن القرآن حَمَالٌ أوجه ! . فإذا تنازع الأمين والخائن آية من كتاب الله تركنا الآية بينهما ووقفنا مكتوفي الأيدي بدل أن نصفع الدجَال الوقح ونضع الحق في نصابه ! . وهكذا يقف الأستاذ خالد من النزاع بين يزيد والحسين وبين علي ومعاوية ! فيحمل القرآن النبعة لأنه مطاط ، ويقر من قولة الحق في هذه المآسى القديمة وما قد يشابهها في هذه الأيام من أحداث . !

إسرائيل

ما كان على اليهود من حرج لو أنهم أسَمَوْا الدولة التي اقتطعوها من كيانتنا وأسسوا فيها ملكهم (الجمهورية اليهودية) أو (الاتحاد الاشتراكي اليهودي) أو غير ذلك من الأسماء التي تتفق مع الواقع لديهم ، فإن النظام السياسي الذي ارتضاه القوم لأنفسهم نظام جمهوري بحت ، ولم يُسعد القدر هؤلاء اليهود كما

أسعد جيرانهم في الأردن والحباز واليمن ! فتحكمهم أسر رفيعة العمد راسية الأوتاد تضي على الدولة اسمها وتنسب الحكومة إليها فيقال : الحكومة المتوكلة اليمنية ، والأردنية الهاشمية ، والعربية السعودية . ويقال كذلك الحكومة الوايزمانية اليهودية . . لا ، إن القدر لم يسعدهم بذلك — بعد — كما أسعد جيرانهم من العرب الأشاوس . كذلك لا يكذب اليهود على الواقع لوجملوا الاشتراكية عنوان دولتهم . فالاقتصاد الجماعي يسود المستعمرات الزراعية ولعله أساس النشاط الصناعي والتجاري . وليس هناك مجال لعهود الإقطاع وأشباهها عندهم ، كما هو الحال عندنا في بلاد الإسلام .

ومع ذلك فقد زهد اليهود في هذه الشارات البراقة والعناوين التي يمكن التوسل بها إلى كسب قريب في محافل العالم السياسية . أجل لقد رفضوا هذه الأسماء ، وعادوا القهقري إلى التاريخ القديم ينيشون في تراثه ، وينقبون في آثاره وطولوا عشرات القرون ثم ظهوروا بعد ميلاد عيسى بألفي عام ؛ ظهوروا على الناس باسم إسرائيل ، رمز تمسكهم بدينهم وتشبههم بذكرياتهم واحترامهم لمقدساتهم . واليهود الذين فعلوا ذلك هم أساطين المال والعلم ودهاقين السياسة والاقتصاد . وفيهم من اشترك في تفجير الذرة ومن ساهم في كثير من المخترعات ، ومع ذلك فما شعروا بخجل من الالتقاء لدينهم ، ولا فكروا في التخلص من آصاره .

ذلك يحدث بين اليهود في الوقت الذي تجد فيه مأفوناً كل بضاعته من العلم قشور قرأها ، أولغة أجنبية أجادها ، أو تناليد أفرنجية عرفها ، أو ملابس أوربية ارتداها ؛ ثم هو يتحدث عن الدين فيلوى لسانه بكلمات الرجعية والجلود ، فإذا تسكّون جيل من هؤلاء الحق يقف من الإسلام هذا الموقف الزرئ فأى بلاء يصيب الإسلام منه ؟ .

أليس من العجائب التي تلدها الليالي السود أن الذين برزوا في العلم للمادى

يؤمنون بأديانهم الباطلة ، وأن الذين طالعوا أنبياء مقتضية عن هذا العلم يريدون أن يكفروا بالدين الحق أى بالإسلام الخفيف ؟ ! .

بدعة فصل الدين عن الدولة

إن تجريد الدين من سلطانه وحرمانه من حقه في السيادة والحكم بدأ أول الأمر مع المسيحية ، وتاريخ العصور الوسطى يسجل صراعا بين السلطين الدينية والزمنية ، ايس هنا موضع تفصيله .

والضرورات العملية جعلت المسيحية ديناً ودولة . وإن كانت نصوصها العلمية لا تذكر ذلك في جلاء وصراحة ، ونحن نعذر رؤساء الدين المسيحي في سعيهم للحكم ، لأننا نعرف أن الحكم في أيدي أعداء المسيحية — قديما — عرض المسيحيين الأقدمين لفتن هائلة . ولقد كادت الوثنية الحاكمة تقضى على الإنجيل وأتباعه ، فن حق هؤلاء أن يستخلصوا الحكم من أعدائهم وأن يستأثروا به في أيديهم . ومن ثم أصبح الباباوات حُكَّاماً بعد مراحل من الاستيلاء على السلطة التنفيذية .

غير أن حكم الباباوات أساء أبلغ إساءة إلى العلم وألحق الحضارة فكانت الثورة ضده عنيفة شاملة ولم تستطع أوربا أن تسير في موكب العمران والتقدم حتى تخلت تماماً عن كل أثارة لنفوذ رجال الدين .

وفي هذا العصر نلاحظ أن الكنيسة أصاحت شأنها وهذبت مسلكها واسترجعت أغلب ما فقدت من نفوذ وأصبح رجالها ملوكا غير متوجين وأصابع الكنيسة تعمل عملها في توجيه السياسات الداخلية والخارجية للكتلة الغربية التي تنزعها أمريكا وإنجلترا . والذي يسمع تصريحات مستر تشرشل ومستر ترومان في هذه الأيام يظنها قد كتبت لتكون عظة الأحد في كنائس نيويورك ولندن

لقد كان الأمر منذ قرن عداً بين الدين المسيحي والدولة وهو في هذا القرن ودّ مكيّن وتحالف ظاهر .

والمغفلون من ساسة مصر الذين يرون أن الدولة يجب أن تبتعد عن الدين لا يزالون يقرءون كتب القرن السابق من تاريخ أوربا . ولعلهم لم يشعروا بعد بأن السادة الذين يقلدونهم قد غيروا آراءهم فغيّروا كذلك معهم .

ولقد روى البخاري ومسلم : أن تقرأ من الإنس كانوا يعبدون تقرأ من الجن فأسلم نفر من الجن واستمسك الآخرون بعبادتهم ، فنزل قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه »

ولنفرض أن أوربا أصرت على فصل الدين عن الدولة لأن تعاليم المسيحية لا تأتي ذلك ، فمن الذي قال إن المسيحية في ذلك كالإسلام ! وأن القرآن كالإنجيل ! إن مقارنة النصوص والدلائل هي الفصيل الحاكم على طبيعة كلتا الديانتين وهي ميسورة لكل ذي تفكير .

وتم حقيقة تاريخية أخرى تفرق بين الحكم الديني في الإسلام وبين الحكم الديني في المسيحية .

فليست لحاكم ما في الإسلام قداسة ولا صفة إلهية خاصة ، فالخلفاء الذين أخطأوا في أحكامهم وجدوا من الرعية من يقوم باسم الله ورسوله وبدافع من الإسلام وحده ، لينقد تصرفاتهم ويكشف أخطاءهم وخطيئاتهم ، فإذا أسقطهم أقام حكماً دينياً آخر ، هو في رأيه أقرب إلى الحق ، وأعان على ذلك أن كل شخص في الإسلام رجل للدين ، وليس الدين احتكاراً على طائفة دون أخرى أما المسيحية فعلى العكس ، تجد للدين رجالاً موقوفين عليه ، لهم مراسيم وحقوق خاصة والدين ألصق بهم من غيرهم والحكومات التي أقامها هؤلاء

الرجال كانت تتمتع بلون فريد من القداسة والترفع . وكانت الشعوب تنظر إلى أعمالهم كأنها انجماهايات الدين نفسه ، وكان صلة الشعوب بالدين لا تتم إلا عن طريق هؤلاء الرجال ! . فلما ضاق الناس ذرعا بتصرفات آباء الكنيسة انفجروا ضد الدين ورجاله جميعاً ، فهو بهم وهم به . ! !

شتان بين الإسلام والمسيحية في هذا المضمار من ناحية البحث العلمي والواقع التاريخي على السواء .

الحكم الاسلامي بين اليهودية والنصرانية

عند ما أذكر الإسلام والأديان السابقة أذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم في حق عيسى : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينه نبي » ، والأنبياء إخوة أبناء عالات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » وإذا كان هذا الإحساس الصادق هو ما يمكنه نبينا لنبي المسيحية ، فاستمع كذلك لما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم في حق موسى ؛ قال ابن عباس : « قدم رسول الله المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء . قال : ما هذا ؟ قالوا يوم صالح ؛ نحيى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم . فصامه ! فقال صلى الله عليه وسلم : أنا أحق بموسى منكم ! . ثم صامه وأمر بصيامه » . ذلكم موقف رسول الإسلام من مؤسسي الدينين العظيمين قبله .

وإنما أخذ الإسلام على كل من اليهود والنصارى أنهم ينتمون إلى الدين ادعاء ولا يصنعون له شيئاً . وقد جاء في القرآن الكريم : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » فإن الانتساب المجرد إلى دين ما لا يكفي ، ولو أخلص أهل الكتاب في إيمانهم لتأدى بهم ذلك إلى احترام القرآن ورسوله ، ولكنهم لم

يحترموا كتبهم احتراماً علمياً ، فلم يحترموا ما بعدها طبعاً .

ولقد ظهر منذ ربع قرن « الإخوان المسلمون » يدعون إلى تطبيق التشريعات السماوية ، سنّاً بسن وعيناً بعين ، وحسب الناس أن ذلك رجوع إلى القرآن وتعصب له وحده . ولو كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى صادقين في تدينهم لنادوا بذلك أيضاً ، فهذه الأحكام جاءت بها التوراة وصدقها الانجيل قبل نزول القرآن بقرون . وكذلك تحريم الربا والزنا وغيرهما ، ولكن الحقيقة أن العاطفة الدينية الخالصة التزمه لا وجود لها اليوم إلا بين أتباع محمد وتحت راية القرآن ، والحكم الإسلامي وحده هو الذي يُنتظر منه أن يحارب الإلحاد بحرارة وينصف موسى وعيسى من أتباعهما والمدجلين باسمهما وإني لأذكر أن الأستاذ وهيب دوس الحماي كتب في مجلة « الشئون الاجتماعية » مقالاً بعنوان « الطفولة المشردة » جاء فيه :

« أليست حضارة العالم تقوم الآن على تعاليم موسى وعيسى ومحمد ! . هل كان أحد هؤلاء الثلاثة شيئاً يذكر عند ما كان في مرحلة الطفولة ؟ . ألم يكن أولهم لقيطاً على الوصف الذي ورد في التوراة ؟ . ألم يكن ثانيهم في حكم اللقيط ينتسب إلى نجار ؟ »

فما كاد هذا المقال ينشر حتى ثارت نائرة الأزهر فكتب محتجاً على وزارة الشئون كيف تبيح نشر مثل هذا ؟ وكيف يعبر عن سيدنا عيسى أو موسى بأنه لقيط ؟ . وكيف يقال عن ابن البتول أنه ينتسب إلى نجار ؟ ! . والسكائب كما رأيت من أعيان المسيحيين في مصر والمدافع عن المسيح هو الأزهر مدرسة القرآن والسنة .

إن حاجة العالم إلى حكم إسلامي يقيم فيه الموازين القسط ويقوم فيه على حراسة الوحي أمر لا يسوغ التشكك فيه من أحد العقلاء .

سلطة روحية وزمنية

لكي نعرف حاجة الإسلام إلى الدولة وأن الحكم ضرورة لا يحصى عنها في وصول الدين إلى أهدافه المرسومة ننقل هذه النبذة من كتابنا « الإسلام والمناهج الاشتراكية » بعنوان عمل الدولة :

[في الإسلام عبادات شخصية يؤديها الأفراد أداء مباشراً كالصلاة والصيام وما يقرب منهما ، وفيه كذلك عبادات اجتماعية يؤديها الأفراد بوساطة الدولة كالجهاد والقصاص وإيتاء الزكاة وما شابه ذلك . . والأصل في هذا الضرب من العبادات . . . أنه لحفظ كيان الجماعة الإسلامية وتأمين سلامتها في الداخل والخارج ، ولتثريث قليلا في فهم الطريقة التي تؤدى بها هذه العبادات . . . أمر الإسلام بالجهاد في سبيل الله فهل من المستطاع أن يذهب كل فرد على حدته لقتال الأعداء ؟ وهل يقال إن الأمة نزلت عند حكم الله إذا أرسلت أبناءها فرادى قياماً بواجب السكفاح المنشود ؟ لا ، بل هناك تجنيد عام وقوى متساندة وقيادة منظمة ، ووسائل عرفتها الأمم بالبداهة فكونت الجيوش ورسمت الخطط ، وعلى الفرد أن يسلم نفسه في سن معينة للدولة وهي تصنع به ما تشاء وتكلفه بما ترى وبذلك يكون قد أدى ركن الجهاد . ولو أدى هذا الواجب الاجتماعى بأسلوب فردى لفشلت الدولة في الدفاع عن نفسها بل لفشل الفرد في العودة بنفسه سالماً . كذلك تكاليف الخدمة الاجتماعية التي تفرض على المرء أنواعا من الزكاة والصدقات والضرائب . . الخ .]

إن الإسلام عقيدة وأنظمة وأعمال . ووظيفة الدولة محددة في القرآن والسنة تحديداً لا يحتمل لبساً . ويوم يفقد الإسلام سيطرته على الحكم فستبقى الكتلة الساحقة من تعاليمه حبراً على ورق لأن تنفيذها عن طريق الفرد

مستحيل ، وليست العبادات الاجتماعية هي التي ستشل وتذوى فقط ، بل العبادات الشخصية المحضة من صلوات واستغفارات وصيام وحج وغير ذلك إنها عندما تحرم كنف الدولة تنكش وتموت ! فكيف إذا توجهت لها الدولة ونبذت ذويها وحرمتهم رعايتها . . .

إن وظيفة الحكم في الإسلام ليست إدارية فقط ولا قضائية فقط ، بل هي إدارية قضائية عبادية ، تضم النواحي جميعاً في عروة لا تنفصم ، فالخليفة في نظر الإسلام إمام للصلوات كما هو فيصل في الخصومات . وإذا كانت تقاليد القضاء الآن تجعل القاضي يصدر الأحكام بصفته نائباً عن رئيس الدولة فإن الإمام في مسجده كان ينبغي أن يؤم الناس بوصفه كذلك نائباً عن رئيس الدولة ! .

والنصوص الفقهية الباقية الآن في أيدينا تكشف عن ازدواج السلطتين الروحية والزمنية في شخصية الحاكم ، فهو القائد الأعلى وهو القاضي الأعلى وهو الإمام الأعلى . . . ولولا غلبة الاستعمار الثقافي وسيطرة الدول المسيحية على الشرق الإسلامي ما انفصلت ناحية العبادة عن أختها ، ولما عرا الناحيتين الأخيرتين من المسخ والنشويه ما تم على حساب التشريع الإسلامي للأسف الشديد .

إن هذا الكلام واضح . فما يقوله الشيخ خالد (إن الهداية إلى الفضيلة عن طريق الترويض هي رسالة الدين) أي أنه لا ضرورة لقيام دولة ! يكفي أن يتطوع بعض الناس بهذه الهداية ! لو شاءوا . ثم قوله (ألم تأت يوماً على طريق ممتد فرأيت مع بدايته علامات ترشدك إلى متجهه ؟ وهل هو ممدد للسير أم به مالا يمكن من عبوره إن تعاليم الدين كذلك) أي أنها كالعلاقات الممر والخضر التي تنظم المرور في الطرق ، فليس من شأن الدين إلا مجرد

الإرشاد الآلى وليس له اتصال ما بالحكم . . . هذا الكلام بالنسبة إلى الإسلام تخليط وشروء . فللدولة في الإسلام وظيفة تسقند الليل والنهار قبلما تنتهى من أعبائها وظيفه السهر فى الداخل والخارج على حراسة العقيدة والإعلان عنها والتبشير بها وتحقيق أنظمتها وإنفاذ أحكامها والإشراف العام على شئون أتباعها وتكوين الأجيال الجديدة من بينها وبناتها وتسخير الأعمال المدنية لخدمتها . . . أما أن الدين كعلامات المرور فلا حاجة به إلى حكم ، فكلام يفنده الواقع ، فلو أن علامات المرور لم تساندها قوة تنفيذية لما أبه لها الكثيرون . ومن ثم وقف الجندى — وهو شارة الحكم — إلى جوارها . ومن ثم وضعت اللوائح والقوانين وأقيمت محاكم المرور لتتبع المخالفات المتوقعة من الطائشين والمنهورين .

على أن هذا الكلام كله ينطوى على مغالطة مستهجنة . فمن الذى يزعم أن الترويض والإقناع محور الإصلاح فى الحياة العامة ، وأن تأسيس الأخلاق وحمايتها وبجانية الرذائل ومطاردتها لا تعتمد إلا على هذا الأسلوب النظرى المدرسى الناعم الرقيق ؟ وأى مجتمع فى الأولين والآخرين قام على هذا الأساس ؟ وأين إذاً مكان الحكومات ووزاع السلطات ورهبة القانون ورجال الأمن وغير ذلك مما يعتبر ألزم اللوازم فى طبائع العمران البشرى . . ؟ ؟ ؟

إن قوانين الأخلاق لم تستغن يوماً ما عن قوانين الجنبج والجنائيات . وإن العظاات ، والنصائح لم تكن إغلاق السجون وتعطيل المحاكم . وقدتما قال عثمان « إن الله يزعم بالسلطان ما لا يزعم بالقرآن » .

فلماذا يقال للدين : إما أن ترشد فقط وإما أن تهكم بأنك تخرج على طبيعتك وتلجأ إلى الإكراه وتطلب الحكم لذلك ؟ . ولا يقال مثل هذا الكلام لغيره من المبادئ الأخرى ؟

لقد قامت باسم الحرية حكومات لم تترك إحداها الناس يفعلون ما يروق لهم فلماذا تترك حكومات الحرية تقيّد وتحدّد؟ ويحظر على حكومات الدين أن تستعين بالسلطة المخولة لها على قمع المجرمين ومحو ما تراهُ مثاراً فساد في المجتمع؟ هل إذا أصدرت الحكومة الدينية أمراً بمحاربة العري على الشاطئ، ومنع السابحين والسابحات من الاختلاط فيه، واتخذت الوسائل العملية لذلك تكون قد خرجت على طبيعة الدين؟.

يقول الشيخ خالد: «أما حين تتحول هذه الوسائل إلى سوط الحكومة الدينية وسيطها فإن الفضيلة تُصاب حينئذٍ بجزع أليم!!» .
إن هذا منطق لا ينتهي به البتة تفكير سليم .

هذه مغالطات

كما يتحول الخلق النفسى إلى سلوك عملى، وكما تتحول الأفكار النظرية إلى حقائق ملموسة، وكما تتحول المناهج المسطورة فى الكتب إلى وقائع منقوشة فى صفحات الحياة المتحركة، يتحول الدين إلى دولة . مسألة نحسبها من البداهة بحيث يعتبر السؤال عنها عبثاً . ومن ثم فنحن نعتبر من المغالطات المكشوفة تساؤل الأستاذ خالد فى كتابه «ما حاجة الدين إلى أن يكون دولة؟ هل الدين أدنى مرتبة من الدولة حتى يتحول إليها ويندمج فيها؟» .

هذا تساؤل عجيب ! من قال : إن تحول الفكرة إلى عمل يسمى إلى الفكرة؟ إن الفكرة لا ينال منها إلا أن تظل أمداً طويلاً حلاًماً يتردد فى نفوس المصلحين . أما أن تواتيها أسباب التنفيذ فتعرض نفسها نظاماً حياً ودولة نافعة ناهضة فأى عيب فى ذلك؟ هذه مغالطة لا ريب فيها .

ومن التساؤل المنطوى على هذه المغالطات قوله «كيف يمكن للدين أن

يكون دولة وهو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير ، بينما الدولة نظم تخضع لعوامل الترقى المستمر والتبدل الدائم » .

الآن الدين حقائق خالدة ينبغي أن تعطى أحكامه في حياة متجددة ؟ .
إن الصدق والشرف والوفاء وسائر الفضائل يجب إقصاؤها إذن عن الحكم ، لأنها أخلاق ثابتة الحقيقة ونظام الدولة متغير أبداً ! .

وبهذا المنطق نقضى الدولة عن الأخلاق كما أفصيناها عن الدين ! صحيح إن الحياة الإنسانية كلها ، لانظم الدولة وحدها ، قد مشت فيها سنة النشوء والارتقاء . بيد أن هناك أصولاً إنسانية عريقة بدأت من الأزل وتبقى إلى الأبد تقرر صلة الإنسان بالله وصلة الإنسان بالإنسان وترسم الأهداف العليا للبشر رسماً لا يتأثر بما يعرفه من صور الحياة من تجدد وتطور ، وهذه الأصول المقررة موضع الاحترام والاستقرار في كل مكان .

إذا ترك الناس ركوب الخمر إلى الطيارات جاء من يطلب تغيير الدساتير العتيقة في الأدب والخلق والدين بحجة التطور ! .

ما علاقة أشكال الحكم المتطورة بالروح التي يجب أن يصدر عنها الحكم وهو يقوم على شؤون الناس ؟ .

وليس أدهى من هذا الكلام في فصل الدين عن الدولة إلا قول الأستاذ خالد بعدئذ : « إن الدولة عرضة للنقد والتجريح ، وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار ، فكيف نعرض الدين لهذه المهانة ؟ » أى أن تكاليف الحياة ثقيلة ومحرجاتها جمة ، فخير لمن نحنو عليه أن نحكم عليه بالموت حتى لا يواجه هذه الآلام التي لا تخلو منها الحياة ، فلنبعد الدين إذن عن الدولة حتى لا تهب عليه تلك الزعازع . إن الحكومة عرضة للنقد والتجريح ، فهل كونها دينية يجعل التهجم عليها تهجماً على الدين نفسه ؟ من قال ذلك ؟ ومن الذى يزعم أن

تصرفات الحكام الدينيين جزء من دين الله يعتبر نقده أو رده امتهاً للدين وكفراناً به ؟ .

والدولة عرضة للانتصار والانحدار ، فإذا تأسست على الدين فأى ضير على الدين أن يكون في حال النصر زماماً يمنع المنتصر من الطغيان ، وفي حال الهزيمة حافزاً يغري بالمقاومة ويدفع الشعوب إلى رد العدوان ولنفرض أن حكومة دينية محضة سقطت أمام أعدائها . فهل ينقلب الحق باطلاً لأنه انخزل في معركة ؟ أى عار على الدين إذا لحقته الهزيمة على يد الدولة التى تنافح عنه ؟ وقد هزم الدين وقتل في هزيمته صديقون وأنبياء « وكأى من نبي قتل معه ربيون كثير فاهتوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا » لاشك أن محاولة فصل الدين عن الدولة بهذه المغالطات اللفظية أمر لا طائل تحته .

الحكومة الدينية والمعارضة

يزعم الشيخ خالد أن الحكم الدينى يقوم على الاستبداد الأعلى ويعد (الغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية : وهى لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه فضلاً عن المعارضة والنقد بحرية النقد وحرية المعارضة وحرية الفكر كل هذه المقدسات عملة زائفة فى نظرها لا تسمح بتداولها بين الناس أبداً وإن الحديث الذى قتل به الحسين لا يزال فى انتطارك إذا حاولت أن تنقد الحاكم الدينى أو تخطئه) . ونحن نتساءل : أصحیح أن الحكم الإسلامى يقوم فى هذا الجو الخائق النكد ؟ إننا إذا رجعنا إلى تعاليم الإسلام وجدناه يخلق أمام كل حكومة ، معارضة جريئة يقظة ، تتعقب كل خطأ بالنقد وتزن كل فعل يصدر عن الحاكم بميزان لا يحور ولا يحيف ، فإذا فرط جيل من المسلمين

أه خاله أن كتابه لم يعرصه ، لديه وإنما تعرضه ، بطام المسح

باب في تصحيح الحديث في قوله « يا ظالم »
قوله لا بد له
٤٨ -

في هذا الواجب ، واجب توجيه الحاكم وإرشاده أو تأديبه وإصلاحه فقد
خرج على تعاليم الإسلام . وانتهى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا
رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودّع منها ! » .
ومجاهدة الحكومات الظالمة إلى الرمي الأخير هو في نظر الإسلام أعلى
مراتب الشهادة في سبيل الله : « سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر
فأمره ونهاه فقتله » .

فليس الإسلام هو الذي يخلق رعية جاهلة مستكينة تعجز عن تأديب
حكامها بله أن تستقيم على ضيئهم وتخضع لهم ، فإن يكر ذلك موقف الإسلام
في تأليب الأمم على الحكم المستبدين فللإسلام كذلك تعاليم محددة تكشف
عن موقف الحكومة من الشعب وتضعه في إطار من العدالة والرحمة والانتصاح
لا يسمح بالافتيات والاستبداد . ولشرح هذا المعنى موضع آخر ، على أن الأمم
قد تبغى رجال مجرمين يكون أمورها ويقتلون بنينا . الأمم كلها من مسلمين
ونصارى ، ممن لهم كتاب ، ومن لا كتاب لهم ، من العرب والعجم ، من
الماضي والحاضر ، فبالله لماذا يحمل الإسلام ويحمل الحكم الإسلامي وحده
أوزار هؤلاء الحكام المجرمين .

لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هلكة أمتي على يد أغيلة من
قريش » . . . فهل تصرفات أوائلك الأغيلة هي التي يستقي منها الطعن على
قواعد الحكم الديني كما يفعل صاحبنا الأستاذ خالد ؟ .

على أن الإسلام الذي اعتبر من شعائره العظمى نقد كل خطأ ، وحرب كل
منكر ، سواء صدر من حاكم أو من سوقة ، احتياط ضد الثورات الطائشة خشية
عواقبها الوخيمة . وهنا يجب أن نذكر أن حرية النقد شيء وحرية الثورة
المسلحة شيء آخر ، وكلمة الخروج على الحاكم كانت قديما تعني شهر السلاح

هذا الحكم الديني . ولكن خالد لم يستعمل السلاح ولكنه هاجم نظام
الطغاة . فأي علاقته بحرية هذا ؟

جواباً على : إنه ضال لم يستدرك من تصرف الحكام
 النبي أنه الدين ٤٩، ركن هذا استمداح لا
 صدر له ولا يجوز به أنه لفصل الدين عن الدولة
 في وجهه ولا أظن أحداً ينتظر من الإسلام أن يبيح هذا الحق لمن يشاء متى
 يشاء ! وكل ما ذكره الإسلام في إطفاء بذور الحرب الأهلية قول الرسول :
 « ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه
 بالسيف كائناً من كان » وهذا حديث لا غبار عليه . وأرق الأمم الدستورية
 تعمل بوحية في أيام حربها وسلامها ، فإن حق الثورة المسلحة ليس كلاً مباحاً
 يرعه كل غضبان ؛ أما اعتبار المعارضة المشروعة خروجاً على الدين وحكومته يقتل
 من أجلها المعارض استدلالاً من الحديث السابق فهو مالا موضع له في أدمغة العلماء
 إن السفلة من الحكام قتلوا كثيراً من الناس جرياً على طابع الاستبداد
 لا اتباعاً لأحكام الله ؛ فلا ينبغي الاعتذار للمجرمين بأنهم تأولوا آيات الكتاب
 وأحاديث الرسول فهم لا يعرفون الله حقاً ولا رسوله حرمة ، وقبيح بنا هذا الانتحال

بين الحكم الديني والحكم القومي

وهنا سؤال لا بد من إجابته حينما نقرر علاقة الدين بالدولة : هل يستطيع
 الإسلام أن يعيش في ظلال حكم قومي ؟ . والجواب يأخذ من تعاليم الإسلام
 نفسه . عرفنا مثلاً أن الإسلام من الناحية الاقتصادية يحرم الربا والاحتكار ،
 ومن الناحية السياسية يحرم الأثرة والاستبداد ، ومن الناحية النفسية يحرم
 الإلحاد والفساد ، ويوجب مثلاً أن يكون رجاله — ولاية ورعية — مقيمين
 للصلاة وقافين عند حدود الله . فإذا كانت أداة الحكم منفذة لهذه الأمور كلها
 فإن الإسلام يعيش في كنف هذا الحكم ويطمئن إليه ولا يكثر بهذا العنوان
 الذي اتسم به ، عنوان الحكم القومي أو غيره من الألقاب والنعوت ، والمهم أن
 للإسلام تشريعات وأهدافاً يريد أن يصل إليها حتماً . وعلى الحكومة قسط
 ضخم من هذه التكاليف يجب أن تقوم به .

أما إذا كان هذا الحكم القومى المنشود لا يبالى باتجاهات الإسلام الاقتصادية ولا السياسية ولا يكثر لتعاليمه الخفية والاجتماعية ولا يلتفت لنشريعاته المدنية ولا الجنائية فهذا حكم مبتوت الصلة بالدين، ومطالبة الإسلام أن يعيش هادئاً في كنفه يشبه مطالبة المستعمرات أن تحيا ذليلة تحت سيطرة الدول التي اغتالت حقوقها وسرقت مرافقها .

ويستحيل أن يكلف مسلم باحترام هذا النوع من الحكم . بل واجبات المسلم تجاه دينه تفرض عليه الجهاد الدائم حتى يمحو هذه المساخر المستولية على السلطة ويقيم حكماً ينفذ وصايا الإسلام ويحقق غاياته .

هذا ومن المفيد أن نذكر أن الدستور المصرى القائم يعين إعانة تامة على تكوين حكومة إسلامية رشيدة ، وأن الإلحاد لا الإيمان هو الذى يتهم هنا بقلب نظام الحكم . وأن الاستقرار الدستورى من عوامل النجاح لبلوغ الأغراض الدينية السابقة .

هل يذهب الإسلام ضحية هذه الافتراءات

مع وضوح منهج الإسلام فى كتاب الله وسنة رسوله ، ومع أن شعاعه ظل يتألق فى ظلمات هذه الدنيا قروناً طويلة ، ومع أن تاريخ الإسلام أزهى وأنضر من تاريخ الأديان الأخرى ، بل أزهى وأنضر من تاريخ الحضارة العالمية المعاصرة على ما فى تاريخ كل دين وكل حضارة من صعود وهبوط وحرارة وبرود ، مع هذا كله فإن الأستاذ خالداً ألقى نظرة على بعض المآسى التى ارتكبها أفراد معينون وحاول أن يتخذ منها قانوناً عاماً يطبقه على دين الله . وآفة للشيخ خالد أنه :

(١) يقيس تاريخ المسجد على تاريخ الكنيسة ، ومؤرخو العالم جميعاً

رفضوا هذا القياس ، ولم يجرؤ أحد من المستشرقين والمبشرين على التسوية بين كهنة المسيحية في موقفهم من العلم والحضارة وبين موقف المسلمين في هذه الناحية ، وليس بغض من جلال هذه الحقيقة أن الشيخ خالد اكتشف أن شيخاً من شيوخ العرب في أعماق الصحراء أمر بشطب علم الجغرافيا وتدريس التوحيد بدله كما يقول ، أو أن حاكماً سعودياً أو يمنياً كره سماع الراديو أو استعمال التليفون ، فإن تاريخ العالم لا يقوم على استقصاء نوادر المغفلين ، وحوادث الجاهلن ، وليست هذه هي العقبات التي توضع في طريق الإسلام .

(٢) ويخطئ الأستاذ خالد بين مطالب الدين الصحيح وآثار الدين الفاسد ، فإذا قامت جماعة باسم الدين تطلب حبس المرأة في البيت ومنعها من التعليم والتربية صاح ألم أقل لكم إن الدين لا يجوز له أن يحكم أو يسود ؟ وبهذه الطريقة في الاستدلال تلقف أفعال الحكام السفهاء وصاغ منها براهينه على ضرورة فصل الدين عن الدولة . والغريب عنده أن الإسلام يحمل أوزار المدجلين بإسمه ويبوء بإثمها . أما ما فعلته إنجلترا بفاستين وإيطاليا بطرابلس وفرنسا بسورية ولبنان وروسيا بالمسلمين وألمانيا باليهود وأمريكا بالزنج ف هذه كلها أمور لا نشين الحضارة الحديثة ولا تشوه وجهها الصبوح ، فأى منطق هذا ؟ إنه سرد حكايات يعرفها الناس عن الإرهاب الذي يسود في جزيرة

العرب زاعماً أنه أعطانا بهذا صورة الحكومة الدينية مودة سنة ١٩٥٠ فلما أحس بأن هذا قسمة مشتركة بين الحكومات التي ذكرها وبين بعض الحكومات القومية المتمدينة وأن مصدره في كلتا الحالتين لا يمكن أن يكون الدين . قال : (بيد أن الحكومة القومية التي تتبع سبل البغي لا يمكن أن تبقى طويلاً . لأن من ورائها رأياً عاماً قادراً على أن يزلزلها ولو بعد حين . أما الحكومة الدينية فالأمر كله لها لا معقب لحكمها ولا معارض لمشيئتها) .

وبهذا الاستدلال نصف نوعاً من الحكم بأنه ديني — رغم أنه مبني على الصلة بالدين — ونصف الدين بأنه سوف يرضى أبداً بهذا النوع من الحكم مهما زُورَ عليه . ويستخلص من كلتا المقدمتين أن الدين لهذه الأسباب لا يجوز له أن يحكم ! تلك هي الحثييات الهزيلة التي يفصل الدين بها عن الدولة نتركها تحت تصرف القراء ، وسنزيدها بياناً عندما نتكلم عن مخازي الحكم القومي في الديمقراطيات الحديثة . !!!

أعودة إلى الجاهلية الأولى ؟

عندما ضعفت الدولة الإسلامية في العصور الأخيرة وفسد الحكم في ظل خلافة مريضة جاهلة ، وشعوب وانية منكوبة ، وامتدت محالب أوربا الصليبية إلى جسم الوطن الإسلامي الكبير تنهش وتلتهم ، قامت دعوات شتى تنزع إلى إصلاح ما فسد وإقامة ما تصدع ، وتحاول استنقاذ المسلمين مما حاق بهم من مصائب فادحة في الداخل والخارج .

ومن أعظم الرجال الذين تفاعلوا في سبيل إقامة حكم إسلامي نظيف يعتمد على أمة فيها أخلاق القرآن ومناهجه ، واتجاهاته ، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأحمد عرابي وحسن البنا وعبد الرحمن الكواكبي ، وغير هؤلاء ممن نظروا إلى المسلمين كوحدة كاملة وإلى أسقامهم الموروثة كعلة مشتركة وعالجوها بروح يستهدف كتاب الله وسنة رسوله مباشرة .

ويبدو أن الأحوال التي واجهها أولئك الزعماء كانت أعنى عليهم مما يقدرون ، أو على الأصح مما تقدر عليه الأمة المهيضة التي يجاهدون من أجلها ومن ثم فلم يستطيعوا تحقيق ما يبتغون !

بينما خلا الجو لنوع آخر من الزعماء المدينين جعلوا أوربا قبلتهم وظنوا

أن تقليدها في كل شيء هو طريق النهوض بشعوبهم المستضعفة ، فمثلاً من حيث يعرفون أو لا يعرفون قصة الحمار حامل الإسفنج مع زميله حامل الملح ، لما اعترضهما مجرى ماء .

وكانت النزعة القومية الخضة أهم ما نقلناه عن الغرب وجعلناه حجر البناء في إقامة الدولة الحديثة . وإنك لترى وتسمع زعماء تركيا وإيران ومصر والعراق والحجاز وطرابلس و . . . و . . . يخطبون في هذه الضلالة العمياء ، فإذا بكل دولة مسامة يضمنها السعى وراء استقلالها الخاص أو حماية حدودها الضيقة ، ثم لا تغفر من ذلك بشيء طائل ! ولم نستفد من بركات النزعة القومية إلا خسران الوحدة الإسلامية وتمكين الاستعمار الصليبي ثم الصهيوني أخيراً من أكل حقوقنا ودوس حرماننا .

وهل صحيح أن هذه خسارتنا فقط ؟ كلا فالحقيقة أن كل نزكية للنزعة القومية والعصبية الجنسية والوطنية إنما تتم على حساب فقد العقيدة نفسها ، لا على حساب فقد الحكم الإسلامي وحده . وأن إحياء هذه النزعات الخبيثة مؤامرة على قتل دين الله ، وإعادة الجاهلية الأولى بكل أوزارها وظلماتها . وأن ما فعل مصطفى كمال في تركيا ، وتابعه عليه زعماء مصر وغيرها من بلاد العروبة والإسلام ، كان تخبطاً لم يصب حقاً ولم يحقق نفعاً ، وأن تأييد الأستاذ خالد لقومية الحكم دون إسلامية الحكم كان منه خطأ كبيراً .

طبيعة الإسلام

إن الإسلام مبادئ عامة لا تفرق بين جنس وجنس ولون ولون ووطن ووطن ، هو هداية من الله « رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ » إلى الخلق أجمعين . هو نظام يقوم على أن الله وحده صاحب الجلالة والكرامة في مملكة

لا فرق فيها بين عربى وعجمى ، يُحكم فيها بأمره ، ويُنفذ فيها شرعه ، ويتساوى فيها عباده ، وتخلو أركانها من الطواغيت والجبابرة ، ومن فاسفة القوة ومنطق التكبر وقسوة العدوان والادعاء ! .

أترك هذا الدين العظيم والحكم به إلى تحريف الأفاكين وحضارة المشعوذين من أكلة الحقوق والشعوب « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ » .

كيف نترك الحكم الإسلامى إلى الحكم القومى ! فننسى رسالتنا ونضيع سعادتنا ونسفه أنفسنا ونجهل مع الجاهلين !

إن الفرق بين صاحب التفكير القومى والتفكير الدينى كالفرق بين خفير فى عزبة أحد الباشوات ، وبين عضو مشغول بالسياسة الدولية فى مجلس الأمن ! شتان بين العقليين والمهذبين والميدانيين ! . ومن ثم كان الارتكاس فى هذه الحماة عي واردة . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من قاتل تحت راية عمية يدعو لعصية ، أو ينصر عصية فقتلته جاهلية » ! .

لقد تمخض هذا العصر عن مبادئ عامة بدأت تطفئ بقوتها على العنصريات الخاصة . أنظر إلى الشيوعية وكيف تنتشر فى العالم . وكيف ينسى معتقوها قضايا وطنهم وبشغولهم أنفسهم بقضايا مذهبهم التأثير . لقد اعتبروا قرابة الفكرة قبل قرابة الوطن . والشيوعيون الآن فى أمريكا وانجلترا ضد حكومات بلادهم فى صراعها السياسى مع روسيا ، فإذا كان هذا مبلغ سيطرة الفلسفات الأرضية على أهلها ، فكيف يطلب من الإسلام أن تكون له منزلة ثانوية عند أهله ، بل كيف يطلب منه أن يذوب أمام القوميات والأجناس ؟ .

يجب أن نعلم أن الإسلام قرابة قبل قرابة الدم ، ورابطة قبل رابطة الوطن وفكرة موجبة وعقيدة دافعة وعاطفة مهيمنة قبل أية فكرة أو عقيدة أو عاطفة يهتز بها ضمير إنسان ! وأن القرآن إذا جاء بحكم فلا رادَّ له ، وأن السنة إذا أوتحت بعمل فلا كلام بعدها ، وأنه تحت راية القرآن والسنة يصطف البشر كافة من زنوج وسكسون ومن هنود ولاتين ومن عرب وعجم وأفريقيين وأمريكيين ، لا يفضل أحدهم أخاه بشيء ألبتة . ! إلا أن يكون بتقوى الله .

خسائر المسلمين من آثار النزعات القومية

بدأت في تركيا حركة رجعية بالية لإحياء الجنسية الطورانية انتهت بمحو الخلافة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة ، فإذا أفاد الأتراك من ذلك ؟ لقد كانوا باسم الإسلام وفي ظله يخيفون جارتهم روسيا . وظلوا عدة قرون يديرون رحى الحرب في أرض روسيا نفسها ! . أما اليوم فتركيا دويلة تتسول سلاحها من أمريكا وتعيش ذنباً للديمقراطية الممككة ، وتقع مرغوبة في أفل من ١٠٪ من حدودها الأولى . فإذا أفادها كفرها ؟ .

وكان العرب باسم الإسلام يعيشون في بلادهم كراماً ، فلما هاجت العصبية للعروبة في دمائهم وحاربوا الأتراك مع إنجلترا لكي يقيموا ملكاً عربياً خالصاً ، ماذا أفادوا ؟ أصبحوا بين لاجئين ، وبين عبيد للإنجليز أو لليهود ! . والعجيب أن المرض الذي ساقهم إلى موارد التلف لا تزال له جرائم تعمل عملها في أفكارهم وتصرفاتهم .

ولقد راقبنا الجدل العقيم الذي دار بين مصر من ناحية والعراق والأردن من ناحية أخرى بشأن مسألة فلسطين ، فراعتنا أعراض الداء الويل فيما جرى بين الألسنة من كلام وخصام . كتب الشيخ سيد رجب محرر مجلة

« نور الإسلام » — لسان الأزهري في الوعظ والإرشاد — يقول :
 « طلعت علينا صحيفة « المصري » بحديث لجلالة الملك عبد الله يشكك
 به الناس في عروبة مصر ، ويصف المصريين بأنهم شعب إفريقي لا أصل له
 في العرب ولا تجمعهم بهم صلة رحم ولا نسب . ومن ثم فلا حق له في الانتماء
 إليهم ؛ فضلا عن تولي قيادتهم . وأخذ الشيخ الفاضل في تكذيب هذا
 الزعم قائلاً :

إن مصر من الأصول الأصلية في العروبة ما لم يشاكها فيه إقليم من سائر
 الأقاليم العربية . فلقد كانت السيدة هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم سيدة مصرية
 وبها ثبتت خؤولة مصر لجميع العرب فوق عموميتها بعد ذلك بالعرب الفاتحين .
 فما من عربي في الدنيا من أبناء إسماعيل إلا من مصر أمه وفيها خاله وعمه .
 وزادت مصر بعد هذا شرفاً على شرف بأن كان فيها خؤولة إبراهيم بن رسول
 الله وأن أمه هي « السيدة ماريه » القبطية ، فأى قطر من أقطار العروبة أعرق
 في حسبها ونسبها ، وأجمع لجديدها وقديمها ، وأنجب لخالها وعمها مثل مصر ؟ .
 على أننا — مع هذا كله — لا نقصد إلى قصر العروبة على من له فيها
 أب وأم أو خال وعم ، كيف ! . والاستعراب أصل أصيل في العروبة ، بل هو
 أصلها الراسخ المسكين . فإن إسماعيل بن إبراهيم هو نفسه كان عبرانياً كأبيه .
 وإنما استعرب بأصهاره الوافدين عليه من اليمن ، ثم أصبح المستعربون أفضل
 وأشرف من العرب العاربة .

ومضى الشيخ سيد رجب بهذه الأدلة يفند كلام الملك عبد الله ويلقي
 عليه التراب ! .

ونحن نتساءل فيم هذا الجدل كله ؟ وما يضرنا أو يفيدنا من هذا النسب ؟
 وما ينقصنا أو يزيدنا من أفريقي أو آسيا ! . وما فضل عبد شمس على توت عنخ

أو تحتس على عنترة ؟ ولماذا لا يقال في إيجاز إن الزنجي المسلم خير من الهاشمي المنافق ، وإن قضية فلسطين من شأن الإسلام والمسلمين قبل أن تكون من شأن العرب والمستعربين ، وإن صاحب الرسالة العظمى قال : « لينتهين أقوام من الفخر بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ليكون أهون على الله من الجعلان الذي يدهده الخرق بأنفه . إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية — كبر — الجاهلية إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى . الناس كلهم بنو آدم وآدم خُلق من تراب » .

دستور أصلي وقوانين فرعية

عندما ينفذ الحكم الإسلامي ستظهر في معاملة الأولى الأمور الآتية كحقائق لا تقبل جدلاً :

ليس للوجود إلهي واحد تلتقى عند ذاته العظمى معاني التقديس والجلال والرغبة والرهبة ، هو الله الواحد القهار ، الناس جميعاً أمة واحدة تذوب فيها العناصر والمعادن والأجناس والأوطان ، لا تفاضل بينهم إلا بالخلق والعمل .
المشرع الفرد هو الله وحده ، ليس لبشر أن يدين بشراً أو يشرع له ، وأبناء آدم سواء في خضوعهم لقوانين الله لا يستثنى منها كائن مهما علا شأنه .
الوحي الإلهي دعامة العدالة في شئون الدولة والمجتمع ، فحيث لا يوجد الحق لا يكون هناك وحي ولا شرع ؛ بل دجل وتزوير : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » . « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » .

توجد في الإسلام تشريعات فرعية كثيرة ليس أحدها أحق بالتنفيذ من الآخر ، وهي كلها مظاهر لتطلع الإسلام إلى الحكم وهيمنته على الدولة .

وهناك ما يزيد على ألف نص من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تتصل بأغراض شتى :

منها ما يتصل بالشئون الشخصية كالزواج والطلاق والميراث ومنها ما يتصل بالشئون التجارية كالبيع والإجارة والشركة والمضاربة . ومنها ما يتصل بالشئون الجنائية كالتقصاص والديات والجرائم الخلقية والاجتماعية من زنا أو سرقة أو غير ذلك . ومنها ما يتصل بالنواحي الاقتصادية العامة كالزراعة والاحتكار ومنها ما يتصل بالمنازعات السياسية كالثورات والخلافات العامة .

على أن دائرة المعاملات مرتنة ، وقد أعطتنا الشريعة نصوصاً محددة وقواعد مطلقة . ومن البدهة أن إحصاء ذلك يتطلب منا أن نعرض نصف الإسلام . فليرجع من شاء إلى أمهات الكتب في الأصول والفقه ، يتعرف منها آفاق القانون الإسلامى الرحبة ، ومناذحه الواسعة .

إنما أردنا أن نضع أيدي المنكرين على ما يدحض شبههم ويدعها هباء ، وكما قلنا ليست هذه التشريعات إلا حركات تدل على ما فى الجسم من حياة وما ينضج به من قوة . أما الروح الأصيل الصارخ بطبيعة الحكم فى الإسلام ومعنى الدولة فيه ، فإنه ينبع من أساس العقيدة نفسها . فتوحيد الله محور لسياسة عالمية واجتماعية تقوم على الحق والتأخى والعدالة ، لا تستغنى عنها الحياة أبداً .

مكابرة

التجنى على الحقائق الواضحة بجملها أو جردها يكلف الناس شططاً ويوقعهم فى أغلاط أو مغالطات تحاكي عبث الأطفال .

هب أن رجلاً كوّن فكرة عن « تشرشل » داهية انجلترا المعروف أنه أديب وخطيب ، وأن حياته تقوم على الكتابة والخطابة فحسب ، وأنه

لا يعرف عن السياسة شيئاً ولم يعمل في ميادينها يوماً ! ! فإذا قلت له : إن هذا الرجل ولد وشاخ في السياسة وإنه خاض حربين هائلتين وضرب دول العالم بعضها ببعض وكان لتدبيره وتفكيره أثر عميق في تاريخ بلاده فكيف يوصف بأنه غير سياسى ؟ قال لك : ولو ! .. إن الظروف هي التي اضطرتته إلى ذلك ! وشن الحروب وعقد المعاهدات وتشريع القوانين وتولى القضاء وغير ذلك من الأعمال قد يتولاه الرجل ولا يسمى سياسياً .

أمثل هذا الكلام يساق بين الناس على أنه استدلال وتدقيق أم على أنه لغو وهزل ؟ .

بيد أن صديقنا خالد يريد أن يوم قراءه بذلك وبأن هناك (تحديداً صريحاً) لوظيفة الرسول ومهمة الدين — النبوة لا الملك والهداية لا الحكم .. وصحيح أن الرسول فاوض وعقد للمعاهدات وقاد الجيوش ومارس كثيراً من مظاهر السلطة التي يمارسها الحكام وأقام بعض خلفائه من بعده حكومات واسعة النفاذ عظيمة السلطان ، ولكن هذا كله لا يعنى أن هناك طرازاً خاصاً من الحكومات يعتبره الدين بعض أركانها . . . » .

إذاً لماذا تولى الرسول شئون الساطات المختلفة وشرع أحكاماً معينة وقام بتنفيذها أو أرسل من يقوم على ذلك ؟ .

يقول الشيخ خالد (إنها الضرورات الاجتماعية التي ألجأته إلى ذلك ليحقق المنفعة والسعادة لمجتمعه الجديد) فهل صحيح أن الرسول دفعته الضرورات الموضوعية إلى الحكم ؟ وأنه لولا هذه الضرورات الملجئة ما شرع ولا قضى ولا حارب ولا عاهد ؟ هذا كلام ينطوى على تحليط وغلط فاحش والله سبحانه وتعالى — لا الضرورات المزعومة — هو الذى حدد لنبيه مهمته وجعل الحكم جزءاً منها في قوله : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما

أراك الله . . » وقد ندد الله بقوم من أهل الكتاب أعرضوا عن حكم القرآن لما دُعوا إليه — ودعوة الناس إلى الاحتكام للرسول وما جاء به يرفع معنى الضرورة بداهة ، قال الله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ، ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ، وعرضهم في دينهم ما كانوا يفترون) ! ويقول في سورة أخرى (وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفي قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يخيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون ، إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) .

فهل هذه لهجة دين يعتبر الحكم نافذة ، وينظر إلى القضاء في الخصومات على أنه ضرورة ؟ وماذا يقول صديقنا في نفي الإيمان بالله ورسوله عن لا يرضخ لأحكام الشريعة في مثل قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) . الحق أن الله شرع في كتابه ، وأمر الرسول بالتنفيذ . . ووصى الناس بقبول الأحكام المنزلة من حد أو قصاص أو تأديب ، واعتبر تعطيل هذه الأحكام المقررة كفراً أو ظمناً أو فسوفاً حسب الملابسات التي تقترن بالتعطيل ، وما من نظام في الدنيا يهدم حكماً من أحكام الله إلا بآء بواحد من هذه الأوصاف أو بها جميعاً . وما دامت هذه منزلة الأحكام المقررة فهي جزء من الدين ، وليست جزءاً من الدنيا يندرج في حديث « أنتم أعلم بشئون دنياكم » الذي أورده الأستاذ خالد في غير مورد ! إن هذا الحديث يقول للمسلمين : إن أساليب الزراعة والصناعة والتجارة ليست مما جاء الرسول لتفقيه

الناس فيه . . . وسبب الحديث كما رواه مسلم عن رافع بن خديج قال : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يؤبرون النخل — تأبير النخل تلقيحه — فقال ما تصنعون ؟ قالوا شيئاً كنا نصنعه . قال : لعلمكم لو لم تصنعه كان خيراً ! فتركوه فنفضت — تساقط ثمرها — فذكر له ذلك . فقال : إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » ، فأى صلة بين الحديث — وهذه قصته — وبين شئون القضاء ونصوص الأحكام التي لم ينزل بها الوحي على نبينا بحسب ، بل نزل بها — من قبله — على أنبياء كثيرين وأمر الرسول بإقامتها نزولاً على حكم التوراة والإنجيل والقرآن ؟ هذا خلط لا معنى له .

مؤسس دولة

لنترك هذه الصفحة من شئون الدولة الداخلية ووظيفة الرسالة فيها . ولننظر إلى سياسة الدولة الخارجية وموقف الرسول منها ، فنجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وضع الأساس لإقامة حكم إسلامي واسع النطاق ، بدأت دائرته تنداح وتوسع حدودها وتمتد أقطارها حتى شملت أو كادت المعمور من الدنيا . وقد بدأ الرسول بإعداد الوسائل الحربية والنفسية وتهيئة المبررات السياسية لهذا العمل الضخم ، فراسل ملوك العالم على عهده وطالبهم بالانضواء تحت علم الدين الجديد ، وكان هؤلاء الملوك يمثلون أمراً تألفت على الشعوب واستهلكت قواها ومواهبها ، فلم تسكن هذه الرسالة النبوية إلا صيحة النذير والتحذير تسبق ما بعدها من حروب التحرير والإنقاذ . . . وهكذا ربي رسول الله العرب ليربي بهم العالم ، وهدم فيهم الجاهلية ليهدم بهم الفرعونية والكسروية والقيصرية وأنقذهم من أصنامهم الحجرية ليحطم بهم أصنام المجد الكاذب

وليعطى الأمم المنهوكه فرصة الحياة الحرة فى ظل إله واحد وإخوة عامة .
 وكان التعليم الإلهى المحض هو الذى حدد للرسول هذا الهدف كما روى
 الإمام مسلم : « إن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم
 إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت
 عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان . وإن الله تعالى أمرنى أن أحرق
 قريشاً . فقلت : رب إذا يثاغوا رأسى فيدعوه خبزة . فقال استخرجهم كما
 أخرجوك وأغزم نغز بك ، وأنفق فسنفق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسة
 مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك . . . » .

والواقع أن هذه الحروب كانت تمشياً مع دستور الإسلام وطبيعته ، فهو
 لا يقابل العدوان بالاحتجاج الصامت ، ولا يترك الشعوب ترزح تحت وطأة
 جلاديها ثم يزرف الدموع لها . ولو قد فعل الإسلام ذلك ما استحق أن
 يكون ديناً ! ولما استحق رسوله أن يكون سيد الزعماء . وإنما الذى حدث أن
 النبى العظيم بدأ على عجل يؤسس الدولة التى تحتضن الحق وتنافع عنه وترغم
 الطواغيت على الفرار أمامه ، فما كاد يجمع الناس صفوفاً فى المسجد حتى ساقهم
 صفوفاً فى الميدان ، ثم ألقى بذور الأمل فى نفوس أصحابه فأفهمهم أن هذه
 الدولة الفتية لن تلبث طويلاً حتى تستولى على مقاليد الأرض وترث فارس
 والروم . وفى حديث مسلم « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقيها ومغاربيها
 وإن أمتى سيلغ ملكها ما زوى لى منها . . . » . وكذلك قال النبى « إذا هلك
 كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده
 لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » وبهذه العقيدة وهذا اليقين سارت الجيوش
 الإسلامية ، وكان العمل الأول للخليفة الأول إنفاذ جيش أسامة ليقابل الروم
 ثم تابعت موجات الغزو واشتعلت جبهات القتال وانهزمت الأورستقراطية

الوثنية وتأسس الملك الإسلامي ، لا ليلبس محمد تاجه ، ولا ليستمتع خلفاؤه بأبهيته ؛ فإن الدولة التي يقيمها الإسلام لا مكان فيها لقياصرة أو أباطرة ، إنما الحاكم فيها إمام ، عمله في ديوانه كعمل إمام المسجد في محرابه ! واجب يؤدى لله ، لا ينطوى على ترفع أو كبرياء .

فارق بين حكمين

يقول الأستاذ خالد : « إن الرسول لم يكن حريصاً على أن يمثل شخصية الحاكم لأن مقام الرسالة أرفع مقام » وهذا كلام مدخول . فأما أن النبي قد حكم فعلاً فهذا ما لم يختلف فيه مؤرخو المشرق والمغرب . وما اعترف به الأستاذ خالد ونسبه إلى الضرورة (!) وأما أنه حرص على ذلك فهذا ما لم يكن منه بد تنفيذاً لأمر الله الذى يقول له « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبِعْها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .

وأما أن الحكم لا يليق بمقام النبوة وقيام الرسول بأعمال الحكم مما يمس منزلته فهذا أمر يرجع إلى تصورنا للحكم وأسلوب الوصول إليه وطريقة التصرف فيه .

فالرسول بل من دون الرسول من عباد الله الصالحين منزّهون عن السعى إلى الحكم يوم يكون الحكم سُلماً للمنافع الحرام وذريعة للعلو في الأرض والفساد . ويظهر أن الأستاذ خالد لا يعرف الحكم إلا من طراز « باشوات » الشرق ، الذين يقولون الحكم مهزولين ثم يخرجون منه منتفخين ، لكن الدنيا قديماً وحديثاً عرفت وتعرف أن هناك رجلاً من أصحاب المثل يقولون الحكم

فيفنون فيه ، من دوام الخدمة للأُم التي وثقت فيهم ، ويكون هذا الحكم نوعاً من التضحية وضرباً من الجهاد .

ولقد تولى يوسف الصديق إدارة المال والتموين ، بل طلب ذلك بنفسه فهل تحسبه سعى إلى الحكم ليكون صاحب المعالي يوسف بن يعقوب ؟ ؟
وتولى خالد بن الوليد قيادة الجيش بل أشار على من معه بذلك فهل صنع ذلك ليكون الفريق خالد باشا صاحب الأوسمة والشارات ؟ الواقع أن يوسف عليه السلام طلب الجلال الذي يحسن خدمة الناس فيه ، وأن خالداً طلب العمل الذي يقرب النصر به ، وأن كليهما عبد لله أولاً وآخرأ يطلب رضوانه حاكماً أو محكوماً !! .

والحكم باب إلى التمكين في الأرض يفرح به أصحاب الدعوات لمبادئهم لا لأنفسهم ، وقد حرص الرسول عليه بهذا المعنى وحده . وكذلك فعل الراشدون من خلفائه . وكذلك يفعل أصحاب المبادئ في كل زمان ومكان . أما طلاب الحكم للهوى والأثرة فليسوا من دين الله في شيء . ولعنة الله عليهم إلى يوم يبعثون ! .

الحكم السماوى بين أمتين

من قديم أحل اليهود الربا وأكلوا الرشا ، ولما انتشر الزنا بين ملوكهم وكبرائهم عطلوا الحدود التي كتب الله عليهم ، فهدموا نصوصاً وأولوا أخرى ونكثوا فيما أخذ الله عليهم من عهود ، فقال الله عز وجل معلناً سخطه عليهم « فما نقضهم ميثاقهم لعنائهم وجعلنا قلوبهم قاسية يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » .

وظل هؤلاء اليهود يهملون أحكام الله ويمحيثون بأحكام مخففة من عند

أنفسهم حتى انهدم من بنائهم السياسى ركن الدولة الدينية ، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأحكام التوراة ملغاة . . وحدث أن يهوديا زنى — وهو متزوج — فأراد اليهود أن يؤذوه ويتركوه ، فناقشهم الرسول فى ذلك حتى اعترفوا بأن حكم التوراة الرجم ، فقال النبي : اللهم إني أول من أحى أمرك إذ أماتوه . . ثم أمر به فرجم !! . بيد أن اليهود مضوا فى هدم أحكام الله ، فهدم الله ملكهم وشتت شملهم ، ومكّن أيدي المؤمنين من نواصيهم .

وقد استخلف الله هذه الأمة فى الأرض لينظر ماذا تعمل ؟ وأعطاه القرآن أساساً لدين ودولة ، تجاوزت فيه التشريعات الخاصة بالعميدة والخاصة بالمجتمع والخاصة بالسياسة . وفى صفحات متتابعة من سورة واحدة تسمع قول الله عز وجل : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ . . . » « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ . . . » « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ . . . » ، فبأى منطق تأتى هذه الأمة فترمى ببعض هذه المكتوبات فى البحر (!) كالقصاص والقتال وتحتمل رسمياً ببعض الآخر كالصيام ؟

إن اليهود لما صنعوا ذلك سألهم القرآن الكريم : أَفَتَوْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . . فما جزاء مَنْ يفعل ذلك منكم إِلَّا خِزْيٌ فى الحياة الدنيا . . . » .

أجل ! إن الأمم أصحاب الرسالات إذا عبثت بما ائتمنت عليه كتبت عليها عقوبة خاصة . وقد خوفنا النبي صلى الله عليه وسلم من عواقب التفريط فى مظاهر الإسلام كدولة : « لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ؛ ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم

إلا مُنِعوا القطر من السماء ؛ ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سَلَّطَ عليهم عدوًّا من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم تحك أُمَّتْهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم .

ولماذا نحسب أنفسنا أعز على الله من الأمم التي طمس وجهها لما تلاعبت بدينها ؟ بل لماذا لا نقول إن الاستعمار الذي أسقط الدولة الإسلامية ، علته الأصلية ، أن هذه الدولة كانت جسداً لروح فيه ؛ بل كانت جسداً مشوهاً منقوصاً هان على أهله الذين لم يقيموا حكماً ولم ينفذوا حداً ولم يحترموا شرعة . فكيف يُبقى الناس على دولة ؛ أبناؤها أول من أعمل المعاول في نقضها ! . إننا نترك للأستاذ الشيخ سيد رجب أن يبسط الحديث في المقارنة بين الأمتين اليهودية والإسلامية وبين الثبوتين السكريميتين فيهما ؛ مقتطعين هذا الحديث الرائع من مقال له في « الإسراء » . قال :

« ولهذا : كانت نصيحة موسى لمحمد — عليهما السلام — وتوصيته إياه ؛ وهو بذاته ما يحصل بين قائدين إذا تنحى أحدهما عن القيادة لزميله ؛ فإنه يوصيه وينصحه ، ويبصِّره بما أفاد من تجارب ، ولاقي من خطوب ، حتى يأخذ لها أهبتها ، ويستمد بعديتها .

بل لهذا أنت تقرأ فواتح سورة « الإسراء » فلا تفرغ من الآية الأولى بمفردها ، حتى تقع في قصة موسى والتوراة وبنى إسرائيل . ! وأية قصة ؟ فإن قصص بنى إسرائيل متشعب مختلف لانهاية لصنوفه وألوانه ، ولكنك هنا تقرأ قصة يطالعك مغزاها من خلالها ، وتنطق بذاتها عن المراد من اختيارها ، هي قصة « الدين والمُلْك » وكيف أن الله أعطاهما بنى إسرائيل متلازمين (كما أعطاهما هذه الأمة متلازمين) فهناك دين ومُلْك على أساس التوراة ، وهنا دين ومُلْك على أساس القرآن ؛ وسُنة الله فيما منح من دين

وملك — هي أنه إذا حفظتهما الأمة حفظا لها ؛ وإذا حادت عن الطريق زال دينها ودينها معها . ولهذا العبرة بما سبق والتبصرة لما يأتي جاءت الآيات بسنتها القاهرة وحكمتها البالغة . فاستمع الآن للقرآن ؛ وتبصر ما يقول :
(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنزله من آياتنا ، إنه هو السميع البصير) .

ثم ماذا ؟ ثم كانت النفس متوهمة أنه سيفصل هذه الآيات تفصيلاً ؛ أو يلزمها على أى حال ؛ فيذكر كثيراً أو قليلاً مما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في رحلته ؛ وقد رأى العجائب من هذه الآيات كما روته الأخبار . ولكن لا ! فإن الشأن في الحقيقة أعظم من هذا القصص . إنه الدين كله ؛ وملك الإسلام أبد الدهر ؛ من محمد إلى القيامة . لهذا أجمل القرآن تلك الآيات — على عظمتها — إجمالاً ؛ وخلص سريعاً إلى المقصود الأهم ؛ وهو رسم الطريق ، وتوضيح الخطأ ، والتحذير من مخالفتها ، وبيان العاقبة وتحديد العقوبة . وهذا كله ينطوي تحت هذه الآيات — التي نتلوها عليكم — بمنطوقها تارة وبمفهومها أخرى .

« وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا . ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا . وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوكَ كِبِيرًا . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ الْآخِرَةُ لَيْسُوا بِأَعْيُنِنَا »

وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّؤُا مَا عَمَلُوا تَقْبِيرًا .
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
حَصِيرًا . إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

أسمعت ؟ ثم أفهمت ؟ « إياك أغنى ، واسمعي يا جارة » . إن القصة
تقص عن بني إسرائيل ، ولسكنها تستهذفنا ، وتعنينا ، وتوجه إلينا . وهي تقصد
إلى أن تقول : إنكم خلقتكم بني إسرائيل في الدين والملك . وقد كان القوم على
دين فضلهم الله به على العالمين ، وكانوا على ملك بلغ من شأنه في عهد سليمان
ابن داود — عليهما السلام — أنه لا ينبغي لأحد من بعده . ثم إن الله شد
ملكهم ، وبقي محافظاً على عهده معهم ، ورعايته إياهم ، ما حفظوا هم عهده ،
ووفوا بميثاقه ، واستقاموا على طريقه ، فلما بدا لهم أن يضلوا السبيل ، ويخالفوا
عن أمره ، ويخونوا أمانته بنبذ الدين ، وإهمال الشريعة ، واتباع الشهوات ،
والإفساد في الأرض ، رفع الله عنهم حمايته ، وسلبهم عنايته ، ووكلمهم إلى
أنفسهم الطاغية ، فداستهم الأمم ؛ وقهرتهم الدول ، وبعث الله عليهم
— المرة بعد المرة — عبداً له أولى بأس شديد ، من البابليين والمصريين ،
والفرس والروم ، فلم يزالوا بهم حتى أتوا على بنيانهم من القواعد ، فقوضوا
دولتهم ، ونكسوا علمهم . ومزقوهم كل ممزق . وشردوهم في الأرض
كل مشرد .

فخذروا أن تحذوا حذوهم ، فتستنوا في الأمر سنتهم ، أو تسيروا بسيرتهم
فإنكم — إن فعلتم — جرت عليكم سنة الله بما جرت عليهم ، وإنها لسنة

ماضية بحقها ، قاهرة بعدلها ، لا تحابي خليلا ، ولا تظلم فتىلا ، ولا يجحد لها أحد من دون الله تبديلا ولا تحويلا .

هذا هو مغزى القصة التي افتتحت بها سورة « الإسراء » فإذا فقهت ما قلناه لك : من أن صميم الحكمة في الإسراء والمعراج ، إنما هو الاحتفال بحتم النبوة والرسالة في الأرض ، وتولية خاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم لإمامة الدين وسلطانه تحت راية القرآن . وجمع التراث الديني كله إلى هذه الحوزة وتحت هذه الراية إلى يوم القيامة ، وإعلان ذلك في الأرض والسماء على الملأ من الملائكة والرسل والأنبياء — إذا فهمت هذا كله عرفت لماذا انتتحت بك سورة الإسراء هذا المنحى ، وحدثتك فواتحها هذا الحديث .

بهذا الشأن الجليل الخطير تحدثنا فواتح سورة الإسراء ، وهناك شأن آخر جليل خطير ينادى به الموقف من أوله إلى آخره ، وهو أن الأمر قد انتقل عن بنى إسرائيل ، ولن يعود إليهم أبد الدهر . ومهما أقاموا أو أقيم لهم من دولة ، فإنها لن تكون إلا دولة الشيطان ، أو « المسيح الدجال » . لا أقول هذا تعصبا ، ولكنه حقيقة ماثلة .

فإن لواء الدين — بكتابه وشريعته وسلطانه — إنما يعقد لأولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام . وقد اختتمت النبوة والرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبقي القرآن بهديه وشريعته مهيمنا على الدين كله إلى يوم القيامة ، أمرا لازما ، وكلمة من الله ماضية ، ووعدا مفعولا .

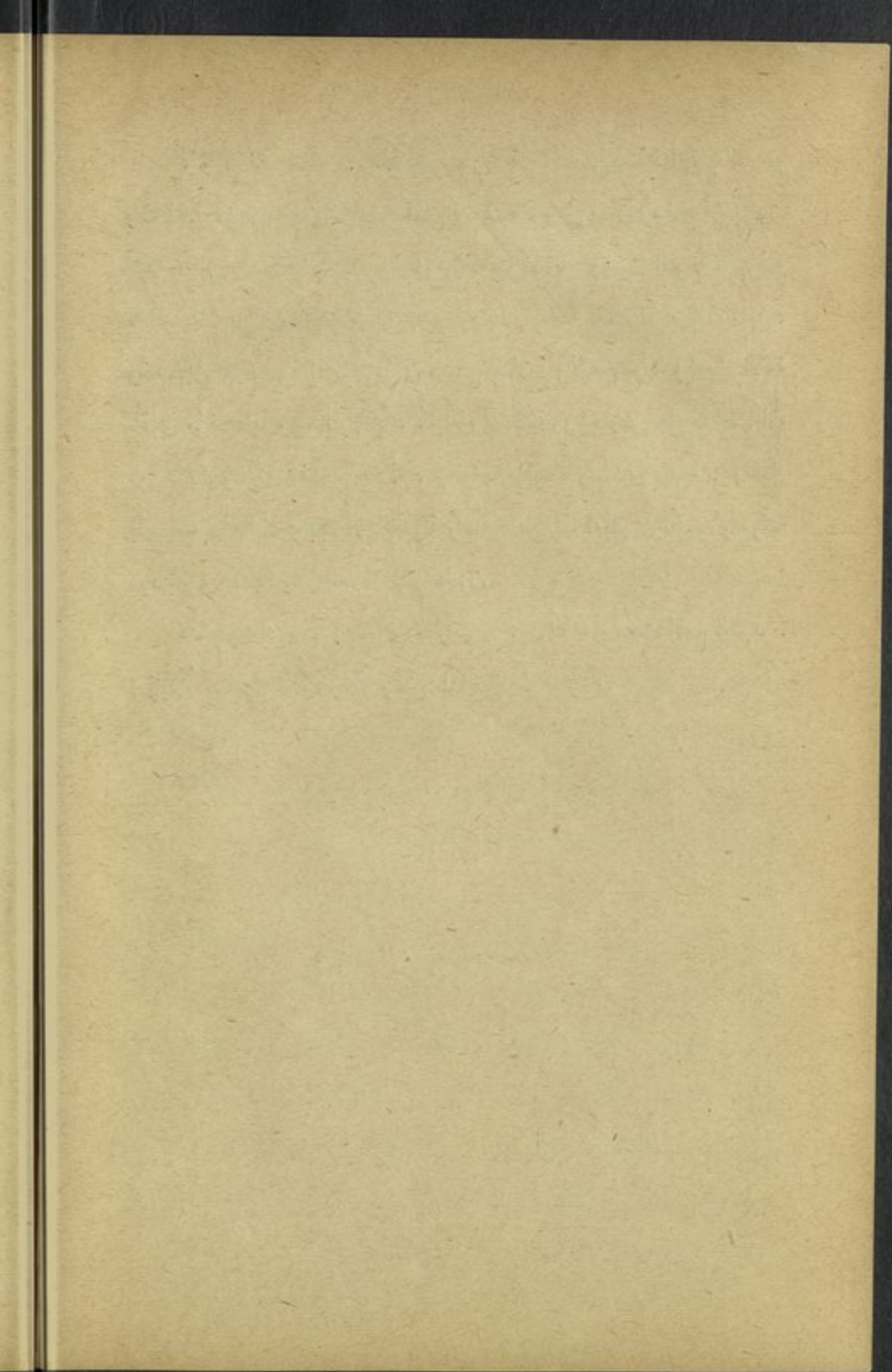
وإذا أنكر هذا منكرا أو شك فيه مستريب . فليعلم أنه لم يسبق لبكتاب ولا لرسول أن أعلن ختم النبوة والرسالة قبل القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام ، بل كأن كل نبي أو رسول يبشّر بمن يأتي من بعده ، حتى جاء القرآن فأعلنها حقيقة باهرة ثابتة ، نزول السموات والأرض ولا نزول (ما كان

مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) .
 وها هو ذا قد مضى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ما يقرب من أربعة عشر
 قرناً لم يأت الناس فيها نبي ولا رسول ، في حين أن أطول فترة كانت بين
 رسولين هي الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وهي
 لم تزدد عن نحو ستمائة سنة ! فهلا تبين الشاكرون — بعد هذه القرون
 الطويلة — صدق هذه الحقيقة التي أعلنها الله ونادى بها محمد وسجلها القرآن ؟ !
 ألا فليعلموا — إذن — أنه ستمر القرون تلو القرون — إلى أن تقوم
 الساعة — فلا تزيد هذه الحقيقة الهائلة إلا رسوخاً ووضوحاً (. . .) ولكن
 رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) .

وبقاء الأمر إلى الإسلام والقرآن أبدي الدهر ، لا يعني أن المنقسين إليهما
 يستحذون على هذا الأمر ، ويقومون به في الناس ، بمجرد هذا الانتساب
 والادعاء ؛ وإن فرطوا في الإسلام وشريعته ، واستهانوا بالقرآن وهدايته !
 تلك أمانى السفهاء وأحلام الجاهلين . وفيهم إذن قص الله علينا القصص ،
 وضرب لنا الأمثال ، وحذرننا مصارع السابقين ؟ ! أليس لتجنب هذا المصير
 الذى أدانا إليه تفرطنا في جنب الله واستهانتنا بأمره وهديده ؟ حتى داستنا
 الدول كما داستهم ، واستعبدتنا كما استعبدتهم ، بل لقد تداعت علينا الأمم
 بأكثر مما تداعت عليهم (لولا حفظ الله الإسلام والبقيا عليه) فرأينا أكبر
 وأقوى أمتين في الأرض تحتصمان الدّ الخصومة ، ويختلفان أشد الخلاف في كل
 شيء ، فلا يصطلحان ولا يتفقان إلا على شيء واحد هو تمكين الأعداء منا ،
 وإعانتهم علينا في السر والعن وإذلالنا في بلادنا . وهذه هي العقوبة الأثرية
 لمن آتاهم الله الدين والملك ، فلم يحفظوا عهده ، ولم يؤدوا أمانته ، ولم يشكروا
 له كرامته ونعمته .

ألا وإنه لا نجاة لنا من هذه الحن ، ولا نخرج لنا من مضايقتنا إلا بما شرعه
والله لذلك من وسائل وأسباب ، قضى في كتبه ، وعلى لسان رُسله ، أن يكون
أهلها — بل رأسها — التوبة والرجوع إليه جلَّ شأنه . وليست التوبة ماتهرف
به ألسنتنا ! بل هي أن نقلع عن جميع ذنوبنا وآثامنا ، مستغفرين الله منها ،
ومُصممين العزم على السير قدماً في سبيل الصلاح والإصلاح ، وإعداد الأمة
بأقوى ما نستطيع روحياً ومادياً ، مُقبلين في صدق وإخلاص على ما آتانا الله
من كتاب وحكمة ، فنحل حلاله ، ونحرم حرامه ، ونهتدي بهديه ، ونعمل
بشريعته ، ثم لنتنظر بعد ذلك المعونة والتأييد من الله ؛ بل إن تأييده ومعونته
مودعان في كتابه وشريعته لو كنتم تعلمون .

هذا هو المخرج ، وهذه هي الطريق . . . ألا هل بلغت اللهم فاشهد .
(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) .



تاریخ و تاریخ

« أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ !! »

بعض الناس لا تملكهم حمى النشأوم إلا عند الحديث عن الحكم الديني
سرعان ما يقولون لك : إن الحكم الديني الحق خيال ، والسعى وراءه حلم
أصحاب المثل . واستقرأ حوادث التاريخ يدل على أن الخلفاء الذين حكموا
باسم الله لم يعمرؤا طويلا . ثم جاء من بعدهم من افتات على الحقوق والحريات
وتأله هو وأولاده على الناس باسم الدين ويستطرد هذا الفريق للنشائم
يقول لك : إنك لن تجد كثيرا مثل أبي بكر وعمر . أما النظم الديمقراطية الحديثة
فقد رسمت حقوق الإنسان فى تفصيل دقيق يقطع الطريق على الطغاة والجبابرة
ولأن ندعو إليها فى صراحة أفضل من أن نعلق القلوب بالنظريات الدينية التى
لم يدعمها — للأسف — تطبيق واضح !! .

هذا يجعل رأى الطاعنين على الدعوات الإسلامية والمعوقين لنشاطها
فى مصر وغير مصر .

وفى هذا الكلام مغالطة . والذين يردّونه يريدون أن يحمّلوا الدين وحده
أخطاء الطبيعة البشرية من بدء الخليفة . وإذا كان تاريخ الإنسان كما قالت
الملائكة متسائلة عن سر استخلافه « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء »
فليس على حساب الدعوة إلى الله تسرد مثالب المستبدين والمنافقين والواقع
أن المقارنة لكىما تصح يجب أن تكون بين الدين كمنظريات مكتوبة
فى صحائف المقدسة ، وبين المبادئ الأخرى كمنظريات اقترحها المصلحون
وبشرها الفلاسفة .

أو بين الدين كما نفذ تعاليمه ممثلوه وحملته ، وبين الديمقراطية والشيوعية
مثلا كما طبقهما القادة والساسة القائمون على مناهجهما . هذه هى الأطراف التى
يجوز التفاضل فيها .

أما المقارنة بين الحكماء الدينيين بأشخاصهم وسيرهم وبين تعاليم الثورة الفرنسية ومواثيق مجلس الأمن وهيئة الأمم فهذه مقارنة غير مقبولة .

إما أن نقارن بين رجال ورجال أو بين مبادئ ومبادئ والحق أن الذين طبقوا الديمقراطية مثلاً كانوا أسفل مسلكاً وأسوأ أثراً من عشرات الرجال الذين أساءوا إلى الدين يوم حكموا باسمه أحكاماً جائرة .

ولنلق نظرة فاحصة على النظام الديمقراطي من خلال تطبيقه في بلادنا على أيدي سدنته من أهل أوروبا الوافدين علينا أو المستعمرين لنا .

إن الجيل الذي كونه فرنسا بعد ثورتها . والذي ترعرع في أرضها وهو يسمع كلمات الإخاء والحرية والمساواة .

والذي دمر السدود والقيود وسوى بالتراب ما شاده الملوك من معازل الظلم . . هذا الجيل جاء إلى الشرق ليصنع بأهله المساكين ما صنعه بفرنسا ملوكها الفاسقون بل أقسى وأنكى . ومآسى الاستعمار الفرنسي ومخازيه تاركة في نفوسنا — نحن المسلمين — إحنا لا تنتهى آخر الدهر وكذلك الإنكليزي والطليان .. وأخيراً الأمريكان .

وإليك وصفاً من أروع ما كتب الأدباء في تصوير خفايا النفس والتوائها وراء أغراضها للكاتب الإنجليزي « شو » وهو يتحدث عن :

الديمقراطية الإنجليزية

من هو الإنجليزي ؟

إنه عند ما يطعم في شيء لا يعترف — حتى لنفسه — بأنه يطعم فيه ، بل يظل صامتاً صابراً إلى أن تلمع في عقله — بوسيلة لا يعرف عنها أحد —

عقيدة قوية بأن واجبه ، والمثل العليا ، يقتضيان أن يغزو الدولة التي تحوز هذا الشيء الذى يطعم فيه .. وعندئذ لا يقف شيء فى سبيله .

إنه أرستقراطي ، يفعل ما يحلوه ، ويستولى على كل ما يشتهي ، وهو فى الوقت نفسه كأحد أفراد الطبقة الوسطى . وأصحاب الدكاكين ، يتابع غايته بالهمة والمثابرة ، ويؤيد همته بعقيدة دينية راسخة ، وشعور عميق بالمسئولية .

وهو لا يعدم مطلقاً وسيلة يتمسك بها بمظاهر المثل العليا ، فهو يغزو نصف العالم ويستعمره ، ويدعى فى الوقت نفسه أنه النصير الأكبر للحرية والاستقلال وعند ما يريد سوقاً جديدة لبضاعة « مانشستر » الفاسدة ، يرسل مبشراً لبشر مواطنى هذه السوق بدين عيسى . وعند ما يقتل المواطنون المبشر — وهم غالباً يقتلون — يمتشق الحسام دفاعاً عن المسيحية ، يحارب فى سبيلها ، وغزو باسمها ثم يأخذ السوق كمكافأة له من السماء !

ومن أجل الدفاع عن شواطئ جزيرته ، يضع إنجيلاً على ظهر سفينته ، ويرفع علماً يتوسطه صليب على أعلى سارية ، ثم يبحر إلى أقاصى الأرض مغرقاً ، حارقاً ، مدمراً كل من ينازعه سلطان البحار !

وهو يتبجح بأن العبد يصبح حراً فى اللحظة التى تظاً فيها قدماه أرضاً بريطانية ، فى الوقت الذى يبيع فيه أبناء فقرائه ، وهم فى سن السادسة ليعملوا فى مصانع تحت السياط ، ست عشرة ساعة فى اليوم .

وهو قد قام بثورتين باسم حقوق الشعب ، ثم أعلن الحرب على الثورة الفرنسية باسم المحافظة على النظام العالمى والقانون !

ليس هناك شيء يزيد فى حسنه أو فى قبجه عن الحد الذى يقدم عليه الإنجليز ، ولكنك لن تجد إنجليزياً واحداً يرتكب خطأ عن عمد ، فهو يعمل كل شيء عن مبدأ .. يحاربك عن مبدأ وطنى ، ويسرقك عن مبدأ تجارى

ويستعبدك عن مبدأ استعماري ، ويهددك عن مبدأ النخوة . . وهو يؤيد
ملكه عن مبدأ الولاء ، ويقطع رأس ملكه عن مبدأ جمهوري !
إن كلمة السر عنده هي دائماً : « الواجب » !!!

ستعلم أن حملة الإسلام الأولين إلى أقطار العالم كانوا ملائكة !!
وأن الحكم الإسلامي — على ما لصق به من أهواء النفوس — كان
خيراً وبركة على الإنسانية جمعاء . . .
وسيزداد يقينك في هذه الحقيقة عند ما تقرأ السيرة القذرة لحملة الحضارة
الأوربية إلى المعروف والجهول من قارات الدنيا الخمس ! وسترى أن الحكم
القومي يمثل لونا من الأناية الخبيثة لانظير لها وأن غرائز هذا الحكم الإلحادي
ملأت الأرض فساداً وأشعلت فيها نيران العداوة والبغضاء . . .
وأن العصابة التي تعمل لسلخ مصر عن الإسلام ليسوا إلا قطعاً خرب
الذمة من عبدة أوربا المفتونين بثرواتها وسقوطها .

كيف مدّن الإنجليز الهند^(١)

قدّر المبلغ الذي قبضته إنجلترا من الهند منذ ربع قرن بعشرة مليارات
من الجنيهات وذلك عدا رواتب موظفي الانجليز فيها . وقد حددت مدة إقامة
الموظف الانجليزي في الهند بخمس سنوات . لعدّها كافية لإثرائه !!
ويمكن اجتلاء حال الهند من عبارة الكاتب الانجليزي مستر «هندمان»
الآتية : « إن من الأمور الخفيفة حقاً أن تكره الولايات الشمالية الشرقية في
الهند على إصدار حبسها إلى إنجلترا مع موت ٣٠٠٠٠٠ شخص جوعاً من
أبنائها في بضعة أشهر . ثم ذكر ذلك المؤلف الانجليزي أنه مات سنة ١٨٧٧
في مقاطعة مدراس وحدها ٩٣٥٠٠٠ حسباً جاء في التقارير الرسمية ولم يحدث

(١) الحضارة العربية لغوستاف لوبون .

إلا ما يزيد الحالة سوءاً لما ينبجم عن ضرورة دفع الضرائب الباهظة من إضعاف خصب الأرض. والمسوغ الوحيد الذى قيل عن الجزية السنوية التى تدفعها الهند إلى إنجلترا ومقدارها ٥٠٠ مليون جنيه هو قول مجلة الأسبوعين . (إنها تمنى تمتع الهند بحكومة منظمة محبة للسلام) !!! وتسخر الهند من هذا الوصف وهى تشهد كل عام موت هنود بفعل الجوع يزيد عددهم كثيراً عن عدد الذين يقتلون فى أشد الحروب هولا وسفكا للدماء .

وكيف مدنوا الصين !!

قال « غوستاف لوبون » : لا يخلو من سبب ما يعزوه الشرقيون إلينا من قلة الشرف وانحطاط الأخلاق . وستكون قصة علاقات « أوروبا » للمتمدنة بالصين فى القرن التاسع عشر من أسوأ صفحات تاريخ الحضارة . وقد يدعى حقدتنا إلى التكفير عن سيئات تلك العلاقات فى أحد الأيام بضمن غال . وكيف يفكر أبناء المستقبل فى حرب الأفيون الدامية التى أكره الإنكليز فيها بلاد الصين بقوة المدافع على إدخال ذلك السم القاتل وحمل الشعب على تعاطيه بعدما أصدرت الحكومة الوطنية أمرها بتحريمه ؟

حقاً إن فائدة إنجلترا من تجارة الأفيون مائة وخمسون مليوناً من الجنيهات فى السنة . ولكن عدد الوفيات السنوية فى بلاد الصين من جراء استعمال الأفيون ستمائة ألف شخص كما جاء فى إحصاء الدكتور « كريستليب » أليس من الحق أن يكون جواب الصينيين كما روى ذلك الدكتور عندما يحاول مبشرو الانكليز تنصيرهم « يا للسخرية تَسْمُونَا للقضاء علينا ثم تأتون لتعليمنا الفضيلة ؟ » .

ويظهر أن الصينى غير مُحِقِّ فى ذلك ألم يعلم أن الانكليزى يتصف بأخلاق

موروثة تأمره بالإفناق على المبشرين ليعدوه للحياة الآخرة التي يسوقه إليها
بسرعة ذلك الأفيون الانجليزى ؟

حرب إبادة ..

وسياسة الأوربيين القاتلة : إنه لا يجوز أن يمشى على الأرض فريق من
الهمج أدت إلى إبادة أجيال من البشر . . .

فإن المهاجرين الأوربيين طاردوا سكان أمريكا الأصليين كما يطارد
الصيدون الأرانب . وقد أوشك أصحاب الجلود الحمر على الانقراض نتيجة
الاستيلاء على أراضى الصيد منهم ، وحصرهم فى مناطق جديدة إذا حاولوا
الخروج منها بفعل الجوع جُدُّوا كما يُجَدَّل البط .

وقد أريد هجم استراليا . كما لم يبق من أهل تسمانيا الأصليين أحد .
يقول الأستاذ محمد عادل زعيتر : « والأسلوب الدقيق الذى كان يسير عليه
ربابنة السفن الانكليزية لجمع ما يحتاجون إليه من العمال فى جزر الملايو هو أن
يحتذبوا بشتى الحيل أناساً من أهل البلاد ثم يضربوا رقابهم .
ويأخذون من رؤساء القبائل المعادية عدداً من العمال فى مقابل كل رأس
من أولئك على أساس إعادتهم بعد زمن وجيز .
ثم لا يعيدون لهؤلاء العمال حريتهم أبداً .

قال العالم الطبيعى « كاترفاج » إنه لا يجوز للعرق الأبيض الأوروبى أن
يلوم أكثر الشعوب توحشاً من ناحية انتهاك حياة الإنسان ، فليراجع ذلك
العرق تاريخه ، وليتذكر الحروب والوقائع التى كتبها بحروف من دم ، وليتذكر
ماذا صنع بإخوانه المتأخرين عنه وماذا أسفرت عنه خطواته من الدمار ،
وليتذكر اصطياده للإنسان كما يصطاد الوحوش الضارية ، وليتذكر استئصاله

أمّا بأسرها ليفسح لمستعمريه المجال . . . وليعترف بأن حياة الإنسان — إذا كانت مقدسة — فإنه لم يُرَوَّ أن شعباً انتهك حرمتها بفضاعة مثله .

والدول الديمقراطية في سياساتها العالمية مجتمعة هزأت بكافة ما تواضعت عليه الدنيا من مبادئ العدالة والشرف . . .

وحركاتها اللطيفة أو العنيفة ناضجة بما يمكن فيها من شهوات ومآرب . ولم يحدث في تاريخ المؤسسات التي كوتتها هذه الأمم الديمقراطية أن أصدرت قراراً يوصف في بواعثه وأهدافه بأنه نزيه . . .

وكما سخرت هذه الدول في محافلها الكبرى بالمرورات والفضائل، سخرت — في علاقاتها الفردية بالأمم المستضعفة — من كل حق مقرر وحرية منشودة . وهذه فرنسا — مصدر الدساتير المثالية — نسمع ونرى من تصرفاتها مع مسلمي شمال أفريقيا الدواهي الخزية .

وقد استعرض الأستاذ سيد قطب بعضاً من هذه الوقائع نسوقها أمثلة صارخة لفوضى .

الديمقراطية الفرنسية

قال : إن المأساة التي تمثلها الوحشية الفرنسية اليوم في مراكش ليست هي الأولى . فلقد مثلتها مرات ومرات في مراكش ، وفي تونس ، وفي الجزائر ، وفي لبنان ، وفي سورية ، وفي الهند الصينية ، وفي القاهرة قديماً . . . وفي كل مكان على ظهر هذه الأرض دنسته أقدام فرنسا . . .

إن فرنسا هي التي أطلقت على القاهرة مدافعها من قلعة الجبل ، وداست سنابك خيلها أرض الأزهر الطاهرة عام ١٧٨٩ وإن فرنسا هي التي ضربت

دمشق بالمدافع عام ١٩٣٥ وعام ١٩٤١ . وإن فرنسا لم تكن مثلت من قبل في مراكش عام ١٩٤٤ ما تمثله اليوم وأخرى . وأخيراً فإن فرنسا هي التي مثلت في الجزائر عام ١٩٤٥ ما لم يمثله المغول والتتار في القرون الأولى .

لقد دمرت فرنسا في مايو سنة ١٩٤٥ إحدى وأربعين قرية في الجزائر ، على من فيها من الأطفال والنساء ، والشيوخ والشباب ولست أنا الذي أقول هذا . ولكن المضبطة الرسمية لمجلس النواب الفرنسي ذاته هي التي تقول له فقد سجل العدد رقم ٥٧ الصادر في يوم الخميس الموافق ١٢ يوليو سنة ١٩٤٥ ما يأتي :

« إن الحاكم العام في الجزائر قد أجابنا عن سؤال وجهناه إليه في الاجتماع المشترك للجان تنسيق الأعمال للشؤون الإسلامية بالداخلية أجابنا بأن إحدى وأربعين قرية دكت بالطائرات وبالوحدات البحرية ، فلم يبق منها ديار ولا حيوان . »

وكتبت صحيفة كومبا الفرنسية عن مذبحه مايو هذه تقول : « لقد وزع السلاح على جميع الأوربيين وخاصة الخفيف منه ، إلى حد أن النساء كن مسلحات . ففي إحدى المدن بينما طفل عربي لا يتجاوز العاشرة ، يقطف زهوراً بالحديقة العمومية ، إذ بيوز باشي يطلق عليه عياراً نارياً ، فيرده صريعاً .

وقال مندوب جريدة ليبرتي ، أي الحرية ! بعد المذبحة ما يأتي :

« إننا الآن بهليوپوليس — قرب مدينة قالمة — ولقد مضى على الجثث الملقاة على قارعة الطريق أكثر من خمسة أيام ، دون أن يهتم أولو الأمر بدفنها وذلك تفتناً في إلقاء الرعب في قلوب الوطنيين ، الذين لم يزدحم هذا العمل إلا كراهية لنا وبغضاً كأنما كان حضرته ينتظر أن يسبح الوطنيون بحمدكم ويقبلوا أياديهم شكراً !

ثم مضى يقول :

« ولقد رأينا في أحد المناظر رضيعاً ملوثاً بالدماء ، يبحث عن ثدى أمه المقطوعة الرأس ؛ دون أن يهتدى المسكين إلى الثدي ؛ ودون أن تستجيب الفريسة لصراخ ابنها . . . »

هذا ما يقوله أبناء فرنسا أنفسهم عن وحشية فرنسا . . . فما الذى يقوله ياترى فى مصر والعالم العربى ، عبيد فرنسا .
إنهم لا يقولون شيئاً ، بل يختبئون فى جحورهم كالفيران الهزيلة . لا أقول حياء وخجلاً ، بل خشية وذعراً أن يواجهوا ضمير هذه الأمة الثائر .

عمى التعصب

وجاء فى الجزء السادس من السنة الثالثة والثلاثين من مجلة الهلال تحت عنوان « لماذا دخلت تركيا الحرب ؟ » ما يلى :

كتب الدكتور غوستاف لوبون ينعى على تركيا دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا سنة ١٩١٤ ، ويقول : إنها لم تستفد من هذا القتال إلا خسارة بلاد العرب وأرمينيا وأرض الجزيرة وسوريا . . . ووقوعها فى أزمة مالية شديدة . فكتب إليه (ع . سنى) السكرتير العام لولاية بيروت رسالة مستفيضة شرح فيها المبررات التى جعلت الأتراك ينحازون إلى ألمانيا . وأبان أن الحلفاء « أجملتوا وفرنسا وروسيا » حين ذاك ، كانوا تارة باسم الروح الصليبية وتارة باسم المسألة الشرقية يريدون تمزيق الدولة العثمانية والاستيلاء على ما يمكن اقتطاعه منها ، حتى تقص أجنحة الإسلام ، وتموت الدولة التى ظهرت فى العالم بأنها مثلته الكبرى !! فكان لزاماً على الأتراك أن ينضموا إلى الألمان فى حرب هى بالنسبة لهم حرب حياة أو ممات . . .

وقد رد الدكتور غوستاف لوبون على هذا الخطاب بالرسالة الآتية
نذكر نصها :

باريس ٣ / ٤ / ١٩٢١ .

سيدى :

أراكم فيما كتبتم على تمام الإصابة . وسأسعى فى نشره بإحدى الجرائد
الفرنسية اليومية ، لكننى لست واثقاً من أن أوفق .. لأن العقيدة الكاثوليكية
المتوارثة فينا تجعلنا من أعداء الأعداء للمسلمين .

وقد كتبت فيما مضى مجلداً ضخماً باسم حضارة العرب . وذلك لأثبت فيه
أن العرب هم الذين مدنوا أوربا . . هذا وأقبلوا تحياتى .

الدكتور غوستاف لوبون

باريس ٢٨ شارع فينون

* * *

هذا الفيلسوف لا يسعه إلا أن يعترف بالأسباب الدفينة التى تجعل من
الاستعمار الفرنسى نكبة فظيعة حيث حل . وليست الديانة المسيحية الأصلية
هى التى توحى بإيقاع العذاب على الناس وفتنتهم عن عقائدهم بهذا الأسلوب
الدنيء . ولكنها بربرية قبائل اللاتين وجهالة طوائف المبشرين المتأكلين
باسم عيسى . وعيسى — عليه السلام — منهم بريء .

.. والديمقراطية الأمريكية

لا مفر من الاعتراف بأن خديعتنا كانت كبيرة فى الحضارة الأمريكية
فقد حسبنا الإنسانية الراقية قد وجدت مستقرها هناك فى أرض لما نزل بكرة
وفى شعب لا تفتننه المطامع ! وزاد من تصديقنا لهذا الوهم موقف الرئيس
(ولسن) عقب الحرب العظمى سنة ١٩١٩ ، فقد أبى الرجل أن يشارك دول

أوربا في عملها الشائن مع الشرق . وتقدم بمبادئ نبيلة لتنظيم العالم على ضوءها . ثم جنح الأمريكيان إلى العزلة لما رأوا انصراف الدول المستعمرة عن طريقهم الفاضلة . .

ويبدو أن عوامل الإغراء ووساوس الإثم قد تغلبت على القوم في الأيام الأخيرة فقرروا أن يمشوا في ركاب اللصوصية الدولية بل أن يكونوا طليعتها المغامرة . وبدأ القناع ينحسر عن سياسة أمريكا في داخل حدودها وخارجها فإذا بنا أمام مأساة ليس ضحيتها الأولى الحقوق والمصالح المشروعة بل الأخلاق والمثل العليا ، وكل ما كانت الإنسانية تقدسه قديماً من شرف فضيلة .

يقوم النشاط العام هناك على المنفعة المجردة — ودعك من كذب الإعلانات وتزييق الدعايات — وعلم الأخلاق جزء من فن التجارة ومقاييسه الأولى تعتمد على الربح والخسارة . . والأخوة كذبة كبرى خرب الأجناس والألوان تدور رحاها علناً في أرجاء الولايات المتحدة ومن أيسر الأمور أن يتحول رجال الشارع هناك إلى قلة يلتفون حول زنجي تعس ليلتذوا من مشهد مصرعه وهو يشق فوق شجرة جميز لأيسر التهم وأتفهبها ودفة السياسة العليا في أيدي اليهود ، ومن ثم تحولت المحافل الدولية إلى أسواق مساومة وعقد صفقات وحبك مزايرات مما جعل الدول الصغرى تياس أبلغ اليأس من احترام الحق في هذه المؤسسات الدولية .

وإننا بعد ما شاهدنا الاتجاه الاستعماري الجشع لهؤلاء الأمريكيان نحسب أن (ولسن) كان يعبر عن آرائه الشخصية وآماله الطيبة .

أما الأمة التي يرأسها فهي دون ذلك المستوى بمراحل بعيدة .

وإننا لنحذر أن تسود العالم أساليب الحياة الأمريكية . إذ معنى هذه

السيادة أن أحاييل الاسترقاق السياسى والاجتماعى ستزداد التفافاً حول أقدامنا وأعناقنا ، مع أننا أفلحنا فى تمزيق الكثير منها بعد جهاد مرير .
وإن فريقاً كبيراً من الرجال الذين نجعتهم الولايات المتحدة ليتفقون معنا فى هذا التوجس والحذر . مما دفع محرر « المصرى » أن يندد بأحوال أمريكا الداخلية والخارجية فى مقال قال فيه تحت عنوان :

ديمقراطية ترومان

إذا كان الرئيس ترومان يظن أنه يفرض على العالم نوع (الديمقراطية) الذى تمارسه أمريكا ، فقد خاب فله خيبة عظيمة ، فما كل العالم على استعداد لأن يقبل دكتاتورية ذليلة فى قباع من المظاهر السطحية يسمى (الديمقراطية) .
ماذا يريد ترومان ؟ وعم يبحث ؟

أريد أن تحرم شعوب العالم ثلاثين فى المائة من بنها حق الانتخاب ، كما تفعل أمريكا حتى يرضى عنها سادة « وول ستريت ؟ » .

أريد أن تضطهد الشعوب والحكومات الملايين من بنها ، وتضعضعهم فى سجن عام ، أبوابه هى حدود الدولة حتى يرضى عنهم « الكونجرس ؟ » .

أريد أن يطرد الملايين من مقاه وفنادق ومطاعم بعينها حتى لا يدنسوا الملايين الأخرى من أفراد الشعب ، لى تكون هذه الشعوب ديمقراطية ؟

أريد أن تقفل أمامهم أبواب الجامعات ، فإذا فتحت لهم بقوة القانون ، وضعوا لهم أففاصاً من حديد يدرسون فيها فى قاعات المحاضرات حتى تتحقق ديمقراطيتهم المزعومة ؟

أريد الرئيس أن تشق الأقليات فى بلدان العالم الأخرى على غصون الأشجار ، فى وضح النهار وغسق الليل ، دون رقيب أو حسيب ، ودون عقاب من القانون ، كما يفعل زبائنته المتعصبون بالزئوج ؟

ماذا يريد ترومان؟ وعم يبحث؟

أريد أن يصبح العالم بأسره عبيداً للدولار ، وأن يؤلفه الناس جميعاً
فما لهم من رب سواه ، حتى تمتلئ جيوبه وجيوب معاونيه فوق امتلائها
بالذهب ؛ لأن أنفاسهم تضيق إن قلَّ امتلاء هذه الجيوب ؟

أريد من جديد أن يزج بالعالم في أتون حرب أخرى ، تأتي على ما خلفته
سابقته من مدنية وحضارة ؟ أما لمادية الرئيس من حدود . ألا يفهم فخامته
إلا لغة القوة والقبلة الهيدروجينية . ألا يشم إلا رائحة الدماء والبارود .

أريد الرئيس ترومان أن يظل العالم في الخديعة الكبرى التي يدفعه إليها ،
فيصبح شيوعياً كل ما لا ترضى عنه أمريكا ، ويصبح بالتالي عدو الديمقراطية
والحضارة والمدنية وتراث العالم ؟؟

أريد أن يقبل العالم استثمار أمريكا ، الاقتصادي والعسكري ،
ودكتاتوريتها التي لا تنقل ظلاماً واستبداداً عن دكتاتورية سلفيه هتلر وموسليني ،
وإلا فالعالم شيوعي لا بد من سحقه ؟؟

أريد أن يفرض على الدول العربية دولة لقيطة ، وأن يفرض مرة ثانية
نوع علاقة هذه الدول بها ، وأن يحدد لها ويرسم خطوطها وأن يوقف وزراء
هذه الدول من نومهم لينذرهم بأن يتبعوا أوامره ونواهيه ، وإلا حظر عليهم
السلاح ، وأمر تابعته بريطانيا أن تفعل مثله ؟

إن الرئيس ترومان يبحث عن كل هذا وعن غيره ، وهو يريد أن يجلس
في بيته الذي أحال بياضه إلى قنم ، والذي استطاع أن يدمر بين جدرانها كل
المثل العليا النبيلة التي وضعها سلفه العظيم الرئيس روزفلت ؛ يريد أن يجلس في
بيته هذا ، فيأمر أقاصي الأرض وأدانيها فتطيع .

ماذا يريد ترومان ، وعم يبحث ؟

إنه يريد ذلك ، ولكن ليعلم أنه غير مدرك ما يريد ، وأن فآله قدخاب خيبة عظيمة ، على الأقل في الركن الذي تعيش فيه مصر وشقيقتها العربيات .

والئن كنا نتطلع الآن فنأسى لأن عميدة الدول الموسومة بأنها (ديمقراطية) ترتكب هذه المنكرات الغليظة فإن ذكريات الماضي البعيد تهيج في نفوسنا وتعيد لنا صوراً مشرقة مشرفة للعصر الذهبي الذي لم ير العالم له مثيلاً ، عصر الدولة التي أقامها إمام البشرية الكبير محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه ومحافيه الفروق بين الأجناس والألوان . فقال عن رجل فارسي (سلمان منا آل البيت !!) وجعل داعية الصلاة بالالا الحبشي يعلو السكبة ليؤذن فوقها . وكان فيها عبادة بن الصامت الأسود رئيس المفاوضين العرب لدى الفرس . وكان أئمة الفقه في أمصارها من الأعاجم .

الدولة التي أمر كتابها بالوفاء العام لليهود التي تعقد بين طرفين مختلفين ديفاً ودماً . فلما قال اليهود (ليس علينا في الأمين سبيل) أي لا حرج من الافتيات على الأجناس المغيرة (كذا) قال القرآن الكريم تعليقاً على هذا الزعم : (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى . من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) . وذهب الإسلام في احترامه لليهود إلى حد التجاهل لآصرة الدين المشترك إن وقفت دون الوفاء الواجب (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ...) .

والمستنصرون هنا قوم مسلمون والميثاق مع قوم غير مسلمين !! فانظر كيف تقوم الدولة على المثالية المطلقة في منطق الإسلام وكيف تقوم على الانتهازية المطلقة في منطق الديمقراطية الحديثة .

إن العالم الحديث بحاجة إلى أن تقوم فيه أمة عريقة في تدينها سامية

في تفكيكها مطهرة في منازعها تستخدم قوتها في إحقاق الحق وإبطال الباطل
والكلمة الآن لحمة القرآن . لأمة محمد عليه الصلاة والسلام .
لوراث الفضائل السياسية والاجتماعية بين الأجادب والفقار .

إن الذين ينعون على الحكم الديني ويوجسون خيفة من عودته — كما
يقولون — ويحاولون على تمثيله علمياً وسياسياً يجب أن يقسموا تشاؤمهم بالعدل
بين أنواع الحكم التي وضعت أولاً على أساس سليم ، ثم شرد بها الهوى عن
الصرط المستقيم .

ونحن لا نتعامل على نظام بعينه ولا نبرىء الطبيعة البشرية مما وقعت
فيه من نزوات وشهوات .

بل نقول : إن ما اكتنف « الديمقراطية » من مفسد على أيدي أصحابها
لا يُسوِّغ العودة إلى حكم الفرد . والاتجاه المقبول أن نطالب بتصحيح
الأخطاء التي اعترتها .

وما أصاب الحكم الديني من مفسد على أيدي بعض الطغاة والظلمة
لا يبيح لنا أن نجنح إلى الإلحاد أو نؤكد فصح الدين عن الدولة أو نضع أمانة الحكم
بين قوم ليس لهم دين . والحق أنه بعد حساب الأرباح والخسائر الناتجة عن
تحكيم الدين وأخطاء الناس في تطبيقه نجد أن أعظم فائدة عادت على البشر
وصانت تراثهم ووجهت حضارتهم إلى الخير كانت باسم الدين . مهما لابسه
من خلط .

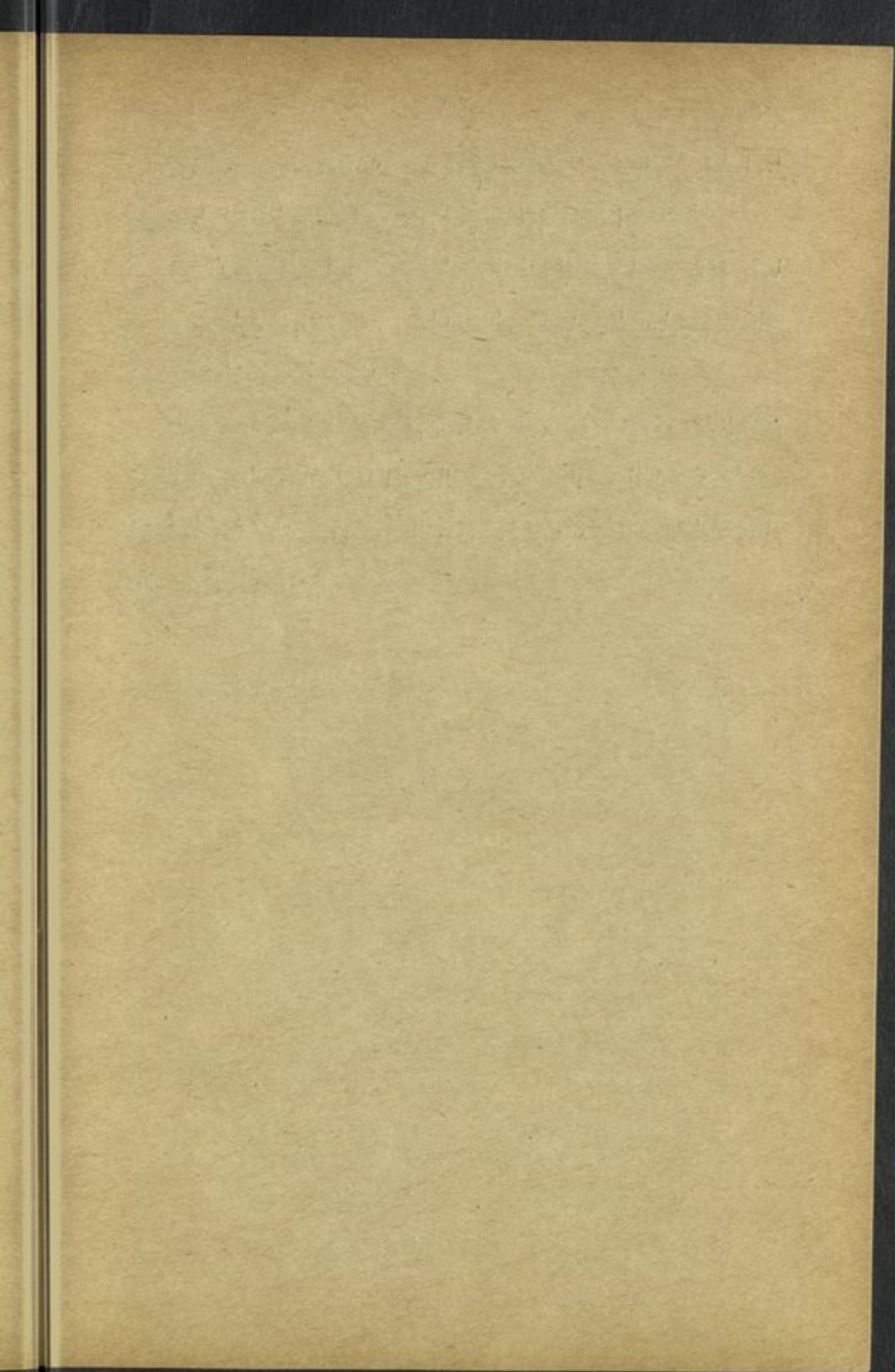
إن خروج الإسلام من جزيرة العرب حر مصر والشام وفارس وملاً بقاعاً
رحبية من الأرض بالساحة والخير . ذلك كله برغم أخطاء حكامه .

أما خروج الحرية من فرنسا مثلاً فإنه جعل الأرض التي تقع لسوء الخط

في أيدي الفرنسيين مستعمرات عبيد . وكم هلكت شعوب في أفريقيا وآسيا
وهي تحاول استنقاذ حرياتها من ممثلي الحرية الفرنسيين ! !

إن الدين كمثّل أعلى يبقى واضح المعالم فإذا قصرنا عن بلوغه وقفنا
دونه ونحن عارفون بقصورنا . . . أما إلغاء الدين فمعناه تحطيم منارات الكمال
وتعميم الظلام في كل مكان .

ثم إن محاولة وضع الدين في الكفة المرجوحة باختلاق مقارنة بين
تصرفات سلاطين الترك أو طواغيت العرب وبين المبادئ المثالية التي ظهرت
أخيراً ولم تعد أن تكون حبراً على ورق . . . إن هذه المحاولة مغالطة لا تنطلي
على العقلاء والمنصفين . . .



الاسلام بين من جاهدوا له وخادعوا به

« عن مالك بن أنس قال لى أستاذى ربيعة : يا مالك
من السفلة ؟ قلت من أكل بِدِينِهِ . فقال من سِفْلَةِ
السَّفَلَةِ . قلت : من أصلح دُنْيَا غيره بفساد دِينِهِ
فصدَّقنى » .



« لَأَنَّ آكل الدنيا بالطبل والمزمار أحبُّ إِلَى من
أن آكلها بِدِينٍ » . [الفضيل بن عباس]

إخلاص

حرص الأنبياء جميعاً — وهم يبلغون عن الله رسالاته — أن يؤكدوا للناس حقيقة معينة ، هي أنهم لا يطلبون لأنفسهم شيئاً ولا يلتمسون على عملهم أجراً ، وأنهم — على العكس — يعطون ولا يأخذون ويضحون ولا ينتفعون وأنهم أصحاب مثل عاية ، يقدمون أشخاصهم وأهليهم فدى لها ، وليسوا طلاب جاه لأنفسهم أو للأسر التي ينتمون إليها .

وقد قص الله سبحانه وتعالى علينا سيرهم الجليلة كبراً بعد كبر ، فسمعنا إلى نوح يقول للناس « ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على رب العالمين » .

وتكررت هذه المقالة بألفاظها ومعانيها ودواعيها على السنة هود مع عاد وصالح مع ثمود ولوط مع قومه وشعيب مع مدين وموسى مع القرائنة ، وجرت كذلك مراراً على لسان النبي صلى الله عليه وسلم « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد » .

والقصد القريب من ترديد هذا المعنى هو تجريد الدعوة إلى الله من أهواء الدنيا ودسائس الطمع ، وتوصيل الحق إلى الناس منزهاً عن كل غرض صغير ومأرب حقير . ثم طائفة الجماهير التي تستمع لصوت النبوة على ما بأيديهم من خيرات وأموال . فإليست الدعوة إلى الله حرفة لاقتناصها ، وليس دين الله وسيلة للاستيلاء عليها . . !

والذين ورثوا النبوة في الحكم أوفى الوعظ جعلوا هذه الحقيقة نصب أعينهم ، فلم يدر بخواطرم أن الدين مصيدة للكسب العاجل أو ذريعة للسمنة

والتبطل !! وقد يكون بيت مال المسلمين قديماً قد أجرى رواتب للخلفاء والقضاة والمدرسين . فهذا ومثله يشبه بدل النفرغ في زماننا ، حتى تجد مناصب الدولة الرجال الذين يقومون على مصالح الناس قياماً خالصاً .

ودنيا الناس ، من الناحية الدينية البحتة ، ان تضار من توظيف رجال يحسنون الإشراف عايتها لقاء ما يسد الخلة ويقوم بالأود . ماداموا ينقون الله فيما يأخذون وفيما يفعلون .

والذين يعملون لله ينظرون إلى رواتبهم هذه النظرة ، مثلما فعل الخلفاء الراشدون ، فهي ما كانت ولن تكون ثمن عبادة ولا أجر رسالة ! وحقيق بالدعاة والمجاهدين أن يحضوا الله عملهم . وألا يطلبوا به عرضاً من الدنيا . وألا يحافوا فيه سطوة حاكم أولومة لأثم . وأن يرفضوا الراحة في ظل النعم المتاحة ، وأن يرفضوا أيادي قوم قد يخاصمونهم في الله يوماً ، وأن ينجلوا من الشيع بين الجياع . وأن يحذروا أشد الحذر أن يكونوا حاشية لأصحاب السلطة فإن انزلوا إلى هذا الموضع فقد انزلوا إلى مقابرهم . وليكن وجه الله الكريم ، في كل عمل ، أول الرحلة ونهاية المطاف .

الجهة الإسلامية في مصر وأحوالها

على ضوء هذه الفضائل كان الإسلام يرقب من أبنائه عامة ، ومن علمائه خاصة . أن يفهموا دعوته وأن يقدموا نصرته . غير أن خيبة الأمل جاءت فوق الظنون . فقد جاء القرن الرابع عشر للهجرة وللنحوس في مطالعه سواد يقش الآفاق وينطى أفئدة المؤمنين بالكآبة . وتتابعت الهزائم وتلاحقت النكبات على هذا الدين العزيز بشكل يثير الحفاظ . فقد كفرت دولة الخلافة وأعلنت بعدها عن الأديان جملة ، والخلافة التي طردها الأتراك كانت متاعاً سرقة

السلطين ولم تكن أمانة في أعناق الرجال الذين يخدمون دين الله ، إن هذا المصير الزرى يعتبر طعنة في صميم الإسلام سجلت عليه هزيمة بشعة ، ثم أطبقت ظلمات الاستعمار الغربى على أمحاء الوطن الإسلامى الكبير فزرقته شر ممزق ، والاستعمار الغربى مزيج من إلحاد وقح وصليبية خبيثة ، وأعقب هذا الانهزام السياسى للإسلام انهزام تشريعى واجتماعى وثقافى جعل تعاليم الإسلام الباقية أشبه بالخرائب المندثرة لدار نسفتها القنابل أو أكلها البلى ، ولم يبق إلا أن تأتى « مصلحة التنظيم » لتحو آثارها وتلحقها بالأرض الفضاء !

ألا تصدق أن النظم المدنية الحديثة تطمع فى ذلك ؟ بلى . إنها تعد العدة لتضرب ضربتها الأخيرة ثم تطوى آخر ما بقى للإسلام من أعلام . وهنا نسأل ماذا فعل الأزهر ؟ وماذا فعلت الجماعات الإسلامية الكثيرة التى جعلت عنوانها خدمة الإسلام ؟

والجواب أن هذه الجبهة الإسلامية من هواة ومحترفين . من جنود رسميين ومن متطوعين شعبيين . لم تبذل إلى الآن جهداً مذكوراً وقد مضت الجاهلية تغمر الأسواق والميادين بأفكارها وفلسفاتها دون أية مقاومة بل إن قصة الشيخ « خالد » وكتابه « من هنا نبدأ » ليست إلا مأساة لرجل من علماء الأزهر ومن أعضاء الجماعات الإسلامية رزق فضل حياة فى عقله وضميره فكانت ثورته الجارحة على الدراسات والأعمال البليدة والكهانات الفارغة سبباً فى شططه الذى نهىنا إليه والعله الأولى فى شرود هذا الكتاب عن النهج الحق هو انهيار هذه الجبهة التى تزعم العمل للإسلام وهى تغرى الناس بالكفر ونحن إذ نقد ما كتبه الأستاذ خالد عن الدين والكهانة مضطرون إلى تعقب طائفة من التصرفات التى سببت فى اعتقادنا كتابة هذا الباب ومخطئين الأستاذ خالداً نفسه فيما ربطه بها من نتائج .

لا حاجة إلى هذه النقول

كما تستقدم الحكومة بعض الخبراء الأجانب لحل مشاكل لا نستعصى على النظر القريب ، والجهد اليسير — لو صدقت النيات — استقدم الأستاذ خالد طائفة من الخبراء الأجانب للاسترشاد بأرائهم في موضوعات طال البحث فيها وسجل الأسلاف كما سجل الكتاب والسنة من قبل حكمهم عليها .

والكلام في « السكھانة والدين » لا يتجاوز هذه الحدود . فقد حمل الأستاذ خالد حملة شعواء على المتجربين بالدين الذين يأكلون باسمه ويسيثون إليه أبلغ إساءة والذين يظهرون للناس في لبوسه وهم متجردون من فضائله وآدابه ، ونحن نؤيد الأستاذ في هذه الحملة . ونعتقد أنه لو جاز لعلماء الإسلام ورجالاته أن يخلدوا للراحة والدعة في عصر ما ، فإن هذا العصر بما وفد به على الإسلام من مآسٍ وهزائم يجعل السكوت منكراً والهدوء حراماً ومطلب الجاه والترف جريمة :

حرام على الراح بعدك أو أرى دماً بدم يجري على الأرض مائره !
فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذلك الدعاء مناره ؟
فكيف ممن يطلب التقدم في أم منكوبة ، ويسعى إلى تدعيم أثرته في شعوب مأكولة ، هذا هو الضلال المبين ! ! سمى الأستاذ خالد هؤلاء كهانا ثم راح ينقل عن « معالم التاريخ الإنسانية » للكاتب الإنجليزي « ويلز » أوصاف هذه السكھانة وأساليبها النابية في المسكر والاحتفال . ولا حاجة بنا كما قلنا لهذا النقل ، ففي مصادر الشريعة وأقوال الأئمة تفصيل أوسع وإصابة أحكم . . ولنذكر السمة الأولى لهؤلاء السكھان . إنهم كما يقول خالد يدعون

(الناس إلى القناعة المقدسة . بيد أن السكينة أنفسهم ألد أعداء القناعة وأسبق العالمين إلى اقتناص الغنائم والبحث عن المال والجاه) .

إنهم يملأون بطونهم بالمطاعم ويقولون للناس « جوعوا تصحوا » ، ويشيدون القصور ويشترون الأطيان ثم يحدثون الناس عن « الفقر المحبوب ! » لاشك أن النعمة على هؤلاء واجبة فهل تظن أسرهم خفي على حراس الإسلام من قديم . إن مواجهتهم بالنقد والتجريح لا يكاد يخلو منها عصر .

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما إذ عيت منهم أموراً أنت تأتيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها !

وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول لعلماء الدنيا : ييوتكم كسروية ، ومرا بكم فارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآتمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية ، فأين الشريعة المحمدية ؟ .

وأيّن ما نقله خالد عن « ويلز » في هذا المعنى من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « سيكون في آخر الزمان رجال يخلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم قلوب الذئاب ! يقول الله تعالى : أبى تعترون ، أم علىّ تجترون ، فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران ! »

ولسنا بصدد استقصاء النصوص في هذا الموضوع ، فإن هذا يخرج بنا عن غرضنا ولسنا نلقت النظر إلى أن الإسلام في هذا العصر بحاجة إلى رجال يدفعون عنه ويبذلون له ويقدمون أنفسهم وأموالهم في سبيله . . وإني أشهد مع الشيخ خالد أن الرجال الذين يمثلون الجيش المدافع عن الإسلام في جبهته المترامية لا يشرفون دينهم ولا يشرفون أنفسهم . وهذا أهون ما يقل في وصفهم

كيف تستقيم عبادة الله وعبادة المال ؟ وكيف تستقيم سنة الجهاد مع شدة الحرص على تمتيع النفس والأولاد ؟ . ولكن العقول التي التوت فيها حقائق الدنيا والآخرة اجتمعت فيها هذه الأضداد ، ومن ثم رأينا رؤساء «للجمعيات» الدينية وشيوخاً في الأزهر الشريف يسمنون والإسلام مهزول ، ويستريحون وشعوبه عانية .

وقد اتخذ هؤلاء الناس طرقاً للفرار من تكاليف الإسلام الصحيحة أدق وأخفى من الطرق التي يسلكها مهربو المخدرات خوفاً من رجال الأمن .

فهذه جمعية تكتفي بالعبادات الشخصية فإذا حاولت إقحامها في الفروض الاجتماعية والقضايا العامة قال لك رجالها : نحن لانشغل بالسياسة ، وكان من أثر هذا الفهم أن فلسطين سقطت في أيدي اليهود ، دون أن يبذل لها هؤلاء الصوامون القوامون جهداً أبته ، وهذه جمعية تحارب عبادة القبور وتقليد المذاهب وتتشيع لمحمد بن عبد الوهاب فإذا سألتهم عن الرأي في عبادة الأحياء والخضوع لطواغيت الحكم في البلد الذي ينتسب لابن عبد الوهاب سكتوا مع أن حكومة هذا البلد قاتلت عصابات الأعراب التي تغير على الحجاج لتتولى هي الأخذ دونهم كما تقاتل الشركة الكبرى المحلات الصغيرة لتحتكر السوق وحدها . وكمن مجازر ومباذل فعلوها سكت عنها دعاة التوحيد (!) سكوت المقابر . وهذه جمعية اتخذت لها عنواناً من النشاط الاجتماعي البراق وهدمت العبادات الشخصية أو غضت من قيمتها مع أن هذه العبادات أعمدة الإسلام وضوابط الأخلاق ، وحواظ العقيدة ، وهذه وهذه . . . كم يطول بنا السرد والتعليق على مناهج هذه المؤسسات وعلى إثراء أصحابها وتوطيد مكانتهم في المجتمع على حساب الدين . أما شيوخ الأزهر فرى كثيراً منهم لم يترك منصبه

(٧)

حتى أثرى منه ثراء واسعاً ، وكان منهم من يفخر بأنه امتداد لمحمد عبده — ومحمد عبده كما تعلم امتداد لجمال الدين — ولكن هيهات ! .

أما جمال الدين فقد ظل يصارع الطواغيت حتى صرعوه وأشبهه الناس به في رؤساء الجماعات الإسلامية الشهيد حسن البنا . إن بين القاعدين شبهاً مشتركاً من الاطمئنان في الدنيا والأمن على الأنفس والنفيس ، وبين المجاهدين شبهاً مشتركاً فيما يقع عليهم من ترويع وما يصيب آلمهم من ذعر . وقديماً قال الشاعر عقب موقعة كربلاء :

بنات يزيد في القصور مصونة وبنت رسول الله في القلوات !

إن المصلح لا يتملق المجتمع ، ولا يترضى الناس ، ولا يكثرث للأوضاع العتيقة ، فإن وظيفته تقوم على المحو والإثبات فيما يرى ويسمع حسباً تملى به قواعد الشرع .

وإن المصلح لا يحرص على المال ، ولا يجرى وراءه ، ولا يغريه بريقه ، فهو قد يكلف — لو ورث مال قارون — أن ينفقه لإنجاح دعوته ، وإبلاغ رسالته ، وأى رجل يعمل للإسلام وهو خارج على هذين المبدأين فهو فاشل ألبتة . ولذلك يقول الرسول العظيم : « ماذنبان جاتعان أرسلا في غم بأفسد لها من حرص الرجل على المال والشرف في دينه » .

ونحن نقول لمن يعملون على إنهاض الإسلام من عثرته : إن الرسول قد رسم لنا طريق الجهاد وإن شارات الكهانة — كما يقول الأستاذ خالد — أبعد ما تكون عن هذا النهج النظيف .

علماء الدين ورجال الحكم

عند ما يكون الحكم إسلامياً لحماً ودماً وتكون السلطة القائمة أداة لتقرير الحق وتحقيق الخير ، وعند ما ينظر الشعب إلى رجاله على أنهم منه وإليه ، شرفهم بثقته ومنحهم حبه ، وقاموا فيه خداماً لمصلحته ، وحرّاساً لشريعته ، عندئذ لا يتصور في الصلة بين الحاكم والمحكوم إلا الإخلاص العميق والتأييد المكين .

وارتفاع العلاقات بين الحكومة والشعب إلى هذه الدرجة من السمو قد يستغرب في العالم الشرقي اليوم حيث يعيش كبرأؤه وراء حصون وأبراج ! فإذا علمت أن الأمراء — في إنجلترا مثلاً — يقفون في الصفوف أمام محلات التموين لا تحرسهم إلا قلوب الرعية ! أدركت طرفاً من الصلة التي ينشدها الإسلام بين الحكومة والأمة ؛ تلك الصلة التي تقررت أيام الخلافة الراشدة الأولى قبلما يتحوّل الأمر إلى ملك عضوض .

كأنما كان الحاكم والبدأ وأفراء الشعب أبناءه .

وفي آداب هذه الصلة الموثقة يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المقسط) وقال : (ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق : ذو الشيبة في الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط) ، فانظر أين يضع الإسلام الحاكم العادل وكيف يجعل محبته وموالاته من الدين ؛ بل لقد اعتبر المشي إليه لتكريمه عبادة وسلكه بين أفضل القربات إلى الله ، فمن معاذ بن جبل : (عهد إلينا رسول الله في خمس . من فعل واحدة منهن كان ضامناً على الله تعالى : من عاد مريضاً ، أو خرج مع جنازة ، أو خرج غازياً في سبيل الله ،

أودخل على إمام يريد بذلك تعزيره وتوقيره ، أو قعد في بيته فسلم وسلم الناس منه) .

فلنطو هذه الصفحة من تاريخ الحكم في الإسلام وآدابه ! ولننظر مرغين إلى الناحية المقابلة عند ما يكون الحكم سيئاً والولاة قاسطين لامقسطين .

إن العلماء قبل جمهور المسلمين يجب أن يكونوا صوت المعارضة الداوى وسوط الإنذار السكاوى ، ولسان النقد الذى يكشف الريبة ويفضح الخطيئة ، ولا يجعل لحاكم كرامة إن جافى الحق وافتات على الأمة وتلاعب بالإسلام ، فإذا فرط العلماء فى ذلك فليسوا من الله فى شىء .

قال سعيد بن المسيب : « إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص ! » . وإليك ما قاله الإمام أبو حامد الغزالى مُرشدًا العالم المسلم إلى الموقف الذى يلتزمه بإزاء الحكام المجرمين : « ومنها أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم ألبته مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً ؛ بل ينبغى أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف فى طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة ! . ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتصييق صدورهم وتقبيح فعلهم . ثم إن الداخل على هؤلاء الملوك إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه ! أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً لهم ! أو يتكلف فى أسلوبه كلاماً لمرضاتهم وتحسين حالهم ، وذلك هو البهت الصريح ، أو يطمع فى أن ينال من دنياهم . وذلك هو السُّحْت ! . وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور ، وعلماء الآخرة طريقهم للاحتياط وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من بدا جفا ، ومن اتبع الصَّيد غفل ،

ومن أتى السلطان افبتن» وقال: «سيمكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر فقد برىء، ومن كره فقد سلم، ومن رضى وتابع أبعده الله تعالى». وقال مكحول الدمشقي: «من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تملقاً إليه وطمعاً فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه». وسئل سعد بن أبى وقاص - وقد تأخرت به سنة حتى رأى ملك معاوية - فقال له بنوه: «يأتى الملوك من ليس مثلك في الصحة والإسلام فهلا ذهبت؟ فقال لهم: يابنى آتى جيفة قد أحاط بها قوم! والله ما حييت لا أشاركهم فيها. قالوا يا أبانا إذن نهلك هزلاً! قال: يا بنى لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إلى من أن أموت منافقاً سميناً! « انتهى ما قاله الغزالي مختصراً.

ومسحة الصدق تتأق على هذا الكلام الخالص النزيه. وهو علاج لا ريب فيه لأولئك الوصوليين الذين يتأكلون بالدين ويبيعون للشيطان ضمائرهم. ثم إن كلام «ويلز» إلى جانبه لا يساوى شيئاً. وقد يكون هذا الأديب الإنجليزي راسخ القدم في طائفة من الفنون والأبحاث لكن كلامه في المشاكل الإسلامية بالنسبة إلى كلام الغزالي يشبه كلام الرجل العادى بالنسبة إلى الإخصائى المريق، وإليك ما نقله عنه خالد نكتفى بمقتطفات منه حتى لا يطول اقتباس ما لا جدوى منه:

«كان الكهنة يلقنون الناس أن الأرض التى يزرعونها ويدأبون فيها ليست لهم، وإنما هى للآلهة التى فى المعابد وقد يهبها الآلهة للحكام ويهبها الحكام لمن يشاءون من خدمهم وموظفيهم. ثم قال ويلز «وفى مصر كانت المعابد أو فرعون «الرب» أو النبلاء

يتلقون إبحار الأرض . وانحط الرجل العسادي إلى حال تقليدية مزمنة من التبعية والخضوع وكان الفاتحون حريصين أن يضعوا أيديهم في أيدي كهنة الشعوب والمدائن التي يبتغون طاعتها ، حتى لا يكون لسواد الناس من الأمر ولا من الحياة ولا من الأرض شيء .

ثم ماذا ؟ ينتقل الشيخ خالد بعد سرد هذه النصوص التاريخية الرائعة !! إلى وصف حال المسلمين حكماً وعلماء ليعالج بهذا الدواء السكسوني ظلم الولاة وسكوت المسئولين من المرشدين والدعاة فيقول : « هذه تعاليم الكهانة منذ آلاف السنين فهل تغيرت الآن ولوقليلاً . إن رجل الشارع الكادح الدؤوب لا يزال فريسة هذه الكهانة تدعوه إلى الرضا والتسليم ، ويتفاوت ، تأثيرها حسب تفاوت الوعي بين ضحاياها ، ففي اليمن مثلاً ترى الكهانة صورة طبق الأصل لتلك التي حدثنا عنها « ويلز » . ولقد حدثني صحافي زار اليمن إبّان حوادثها الأخيرة بأن أكثر مآرعه هونسية كل شيء . ملك اليمن (الإمام) فيشير الرجل إلى بعيده قائلاً هذا بغير الإمام !! وإلى حمارة قائلاً هذا حمار الإمام وبئر الإمام وأرض الإمام وغنم الإمام وهكذا تعمل الكهانة على إذابة شخصية الأمة وتهوى بها إلى درك سحق من الذلة والخضوع كما تسلس قيادها وتسير من ورائها مرتلة :

يا عمرو أنت إمامنا وخليفة النفر الأوائل

تلك هي شرعتها قبل ٣٠٠٠ سنة من الميلاد ، وهي مدفوعة اليوم وكل يوم لالتزام هذا المنهج . والكهنة المعاصرون قادرون بعد أن يقرأوا ما كتبه « ويلز » أن يضعوا أيديهم على الحوافز الشريرة التي تدفعهم لاقتراف الآثام . ونحن نعرف معرفة اليقين أن في الشرق الإسلامي حكومات سفيهة باغية ، وكذلك نعرف أن هناك فريقاً من العلماء باع دينه بدينياه ومشى في ركابهم

يأكل من موائدهم ويحمي في ظلالهم . بيد أن تطبيق آراء « ويلز » على هذه الحال قياس مع فوارق بعيدة . واستيراد الأحكام التي تكشف الحن وتمحق الضلال وتشفي العلة في متناول اليد ، والأمر لا يحتاج إلى تاريخ وفلسفة وخرافة فإن المبادئ الأولى في الإسلام فيها غناء أى غناء ، غير أن العبرة بتطبيق الأحكام لا بتصورها المجرد .

إن اليمين التي استشهد بحالتها خالد قامت فيها ثورة قال مشعلوها عنها إنها تحطيم للعظام وتحقيق للعدالة ومحو لاستبداد الفرد بالأمة وإثبات لحق الجماهير في أن تحيا كما خلقها الله طليقة لا رقيقاً ، وقتل في هذه الثورة إمام اليمين الذي يعتبر هناك ملك الآبار والأغنام وكل ما خلق الله .

ولم يكن الثوار يعرفون عن « ويلز » هذا شيئاً . بل كانوا يستظهرون بالإسلام في ثورتهم ولو نجح ثوار اليمين كما نجح ثوار فرنسا في القرن الماضي لكان لهم ولليمن شأن آخر :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم الخطيء الهبل

الكهانة والإسلام

إذا كان الشيخ خالد يريد بإطلاق اسم الكهان على العلماء المفرطين في دينهم أن يشق غليلاً فلا عليه أن ينعتهم بما شاء :

ومن دعا الناس إلى ذمة دَمُوهُ بالحق وبالباطل

لكن انخطأ الكبير أنه توسع في مدلول هذه الكهانة حتى جعل الإسلام كالمسيحية وحتى جعل المسجد كالكنيسة ، ومضى في خطئه حتى جعل تاريخ الدينين واحداً ، ثم تورط فيما اقترح من إصلاحات بناء على ذلك فخرج عن طبيعة المسلم الذي يعرف فضل دينه وغناه بمواد البناء وأسباب البقاء ، وبلغ

به الشرود في تلك المتاهة التي سلكها أن جاء من عند نفسه ببرنامج لإصلاح المسجد والكنيسة معاً . وسنتحدث عن هذه السقطة الجسيمة عند انتهاء الكلام إليها . والذي نلفت إليه الأنظار الآن أن الكهانة صفة رسمية في أديان أخرى كالبودية والبرهمية ولقب لا غبار عليه بالنسبة إلى رجال الدين المسيحي الذي تقوم تقاليدته للآن على جعل رجال الكهنوت همزة الوصل بين الناس والمعبود . وعلى تسكينهم بأداء طقوس معينة في الأفراح والأحزان والأمور العامة والخاصة .

أما الإسلام فبرىء من كل دلالة دانية أو قاصية لهذا الإسم ، وإطلاقه على أى طائفة من المسلمين لا يعدو أن يكون إتهاماً لها في يقينها وصلاحتها وتشبيهاً لمسلكتها بمسلك أصحاب الملل الفاسدة والنحل الشاردة .

ورمى بعض العلماء به — كما فعل خالد — قد ينظر إليه على أنه تجوز في التعبير وإيغال في الإهانة . أما أن يصل الأمر إلى اعتبار ذلك حقيقة علمية نتصيد لها الشواهد والدلائل فهذا لا معنى له ، وما لا يقبل من أحد قط .

ولقد شعرت بغضاضة شديدة ودهشة عميقة عند ما تكلم الأستاذ خالد عن الكهانة والعقل فأراد أن يوهماً بأن هناك كهانة شرقية إسلامية قد أعلنت الحرب على العقل البشري والتقدم العلمى وإنها أطفأت الأنوار على الإنسانية الساعية للحضارة والنهوض وأنها أخفقت في محاولتها الباطلة (كما — والكلام للأستاذ خالد — قد حاولت أخت لها من قبل ؛ وهى الكهانة الغربية محاولتها الخاسرة وأبطرها الظفر الذى أحرزته أول الكفاح واستمرت لحوم العباقرة حتى دفعت الثمن أخيراً من حياتها وسار موكب العقل في زحفه الميمون وسيظل يسير) .

يا للدواهي ! أين هذه الكهانة الشرقية الإسلامية ذات البطش الرهيب
بالعلم وعباقرته ؟ كهانة إسلامية هي أخت للكهانة المسيحية ؟ لاشك أن
هذا التعبير يصلح عنواناً لقصة خيالية غير مضحكة وغير مسلية للأسف .
إن الأيادي البيض التي أسلفها الإسلام وعلماؤه لحضارة العالم لا يستطيع مؤمن
ولا ملحد إنكارها ، وإن القول بكهانة إسلامية خاصمت العقل البشري ساعة
من نهار ؛ بله عصراً من الزمن قول باطل ممجوج ، وليس يصلح لتسويق هذا
الكلام أن الأستاذ خالداً سمع من تلميذ له أن خطيباً بمسجد في إحدى حارات
القاهرة قال للمصلين يوم الجمعة — والعهد على الأستاذ خالد وتلميذه — :
(لعلكم تفرمون في الصحف الكافرة أن العلماء سيتصلون بالقمر ، وأن
المريخ كوكب عامر بالناس . هذا كفر فالقمر ليس غير كوكب منير والشمس
كذلك ، والأرض لا تدور) اهـ .

أفقتل هذا الهذيان الفارغ يسوغ لمؤلف أن يذكره وأن يستنتج منه هذه
النتائج الغريبة ! وهل يصح للأستاذ أن يكتب تحت عنوان : « الكهانة
تتوسل بالمسجد والمنبر لتقويض المجتمع » (إن الكهانة تحارب العقل لأنه
يرى الناس عوراتها ويبدى لهم سوءاتها ويعمل جاداً لفض سوقها . . الخ) .
لقد اشتغلت أنا بنفسى بالمساجد إماماً ومفتشاً نحو عشرة أعوام وأعلم أن
الشيخ خالد اشتغل واعظاً بالجمعية الشرعية عدد سنين فما شعرنا للكهانة الشرقية
المرعومة بسياسة جامدة تقيدنا ؛ بل على العكس لا يوجد في الدولة رجال
مطلقو السراح في أسلوب الدعوة والإرشاد كالعلماء ، وإنما يتفاوتون بمواهبهم
ودراستهم ومدى حرارتهم وإخلاصهم .

ثم لنفرض جدلاً أن هناك كثيرين من أمثال خطيب القمر والمريخ الذي
ذكره لنا خالد ! بل لنفرض أن خطباء مصر أجهل من خطباء نجد واليمن ؛

بل لنفرض أن رجال الجمعية الشرعية — حيث كان يعمل الشيخ خالد —
 شنقوا سراً أحد علماء الذرة المصريين . فهل هذه الوقائع المتخيلة تبيح لنا
 القول بأن هناك كهانة إسلامية تُعدُّ أختاً للكهانة المسيحية ، هذه الكهانة
 التي ظلت عصوراً متطاولة تنشر الذعر والإرهاب في ميادين الفكر وتنشب
 أظافرها المتوحشة في أعناق العلماء والمخترعين ، وتسبب التشريعات وتقيم المحاكم
 التي تجعل من الجهل قوة مهيبية ومن العقل جريمة منكرة محذورة ؟؟
 شتان شتان لا يختلف في هذا اثنان .

السقطة الكبيرة

لقائل من الناس أن يذكرنا بأن صاحب (من هنا نبدأ) أراد أن يحسم
 عورات الملتصقين بالإسلام ، والإسلام منهم برىء ، وأن الفصل الذي عقده
 للدين والكهانة يدور على محاربة الجهل والخداع والاستغلال ، وهذا ما يتفق
 مع روح الإسلام ونصوصه .

ونحن نقول : إننا نحارب التدين الباطل بالتدين الصحيح ، ونحارب
 الكهانة المنافقة بالإسلام الحق ، ونختبر كل ما يجد في الدنيا من أسماء وحقائق
 بما لدينا من كتاب وسنة ، فما وافق موارثنا المقدسة من كتاب الله وسنة
 رسوله قبلناه ، وما جافاه نبذناه ولا كرامة ! .

والأستاذ حارب الكهانة — التي افترضها في الإسلام المعاصر — بكهانة
 جاء بها من عند نفسه ، ذلك أن تشبعه بالروح القومية خيل إليه أن اليهودية
 والمسيحية والإسلام أديان متساوية ، وأنها قد تصاب بمرض واحد فيوصف لها
 دواء واحد .

والفكرة الوطنية في العصر الحديث تقوم على جعل الأديان — سماويها

ووثنيَّها — تحت وصايتها المشتركة . ومن ثم نسمع رئيس حزب مصرى يقول لأتباعه : أذهب إلى المسجد يوم الجمعة إن كنت مُسليماً ، وإلى الكنيسة يوم الأحد إن كنت مسيحياً ، وإلى المعبد يوم السبت إن كنت يهودياً .
والمقصود توجيه الأديان كلها — إلى ما فيه نفع الوطن — وتسخيرها على حد سواء فى تدعيم الناحية الروحية ، أو توطيد الأمن العام .

أما أن يُنظر مثلاً إلى الإسلام على أنه دين ذو رسالة عامة تسيطر على الأوطان والأجناس ، فهذا امتداد خطر يعالج بالبر كما يعالج نمو السرطان ! .
والشيخ خالد يميل إلى هذا الاتجاه ، بل إنه يعتنق العصبية القومية المطلقة فى الحكم وغيره ولا يفاوت بين دين ودين .

ولو أنه حارب الكهانة لوجه الله ونصرة الإسلام لما وجدنا بكلامه بأساً ولتأولنا مبالغاته وافتراضاته ، ولكنك تسمع إليه يقول : « أترانى نسيت الكنيسة ؟ . لا ! . وكل هذه المقترحات التى أدعو إلى تنفيذها بالنسبة إلى المسجد لا بد أن تنتظم الكنيسة أيضاً فيؤلف من رجالها الراشدين (كذا) من يشرفون على توجيه رسالتها توجيهاً يخلق الشعب الذى يحيا بالدين ولا يموت » ولكي تثمر هذه الخطة ثمرتها فلا بد من الدعاية الواسعة النطاق عن طريق

الإذاعة والمسرح الشعبى (!) وإقامة مسابقات أدبية ذات جوائز مغرية للمؤلفين الذين يصوغون تعاليم الدين صياغة تنزع بالناس إلى تمجيد الدين والحياة ... «
أى دين هذا الذى يراد حمل الناس على تمجيده ؟ . إنه ليس المذكور فى قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » . « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » « أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » .

إنه أعم من ذلك وأوسع دائرة ، فهو يشمل ما تواضع الناس على تسميته

ديننا فحسب ! ومن ثم جعل الأستاذ خالد من حقه أن يرسم برنامجاً لإصلاح الكنيسة والمسجد معاً عن طريق الإذاعة والمسرح .

مالك والكنيسة يا أستاذ خالد ؟ إن كنت تريد إصلاحها فهل ستأتي بمؤذن يصرخ فوق سقفها بتوحيد الله ؟ وإن كنت تبغى مصالحتها فلم ترسم للقوم ولم تقترح عليهم ؟ وإن كنت تريد إصلاح المجتمع الإسلامي فهل يلتبس الإصلاح إلا من الرجوع بالمسلمين إلى المنابع المنقاة من فيوض الوحي الإلهي .. إلى الكتاب الكريم والسنة المطهرة وإعلان حرب شعواء على المدجلين والخرفين ممن ضلوا هذا المنهج القويم .

أما أن نلتمس خيراً للشرق الإسلامي المتعب من الجاهلية الحديثة التي خرجت علينا في ظل النزعة القومية المجردة فأمل في سراب . وهذه النزعة ليست إلا حركة التفاف يقوم بها الإلحاد ؛ ليجتث بها بذور الإسلام من هذه البلاد .

كلمة صريحة

إننا نحب وطننا ، فتلك غريزة الحيوان قبل الإنسان ، ولكننا لا نبيع ديننا بملك المشرق والمغرب . وديننا هذا الذي نفتديه بكل ما نحب له سياسة تشريعية معينة ، وسياسة اقتصادية معينة ، وسياسة عالمية معينة ، وله في البيت والأسرة والشارع سياسة اجتماعية معينة . ومن السفالة أن يطالبنا مخلوق بتعطيل هذه التعليقات جميعاً باسم القومية أو الشيوعية أو الديمقراطية أو أى اسم آخر لا نعرفه ، لأن معنى ذلك أنه يطالبنا بالارتداد والكفر .

« والإسلامية » التي نؤمن بها ونعمل لها ترفع شأن الوطن وتضمن لكل فرد يعيش تحت سمائه حياة زاخرة بالبر والعدالة والمساواة ، وإن اختلف الملل وتباينت النحل .

ثم إن حالة الشرق الآن وحاجة العرب أكثر تطلباً لإقامة النهضة على أساس إسلامي صريح ؛ وبخاصة بعد السكوارث المتلاحقة التي أصابت البلاد والعباد في كل ميدان .

وما دام الإسلام يعطى أبناء الديانات الأخرى مالا يثنائه من حقوق ، ويفرض عليهم ما على أبنائه من واجبات ؛ ولا يتعرض لعقائدهم التي آثروها برد ولا نقد فإن ما يسمى « مشكلة الأقليات » ليس إلا مكرراً استعماريّاً خبيثاً يراد به الكيد للمسلمين خاصة وتسويغ الجور عليهم واحتلال بلادهم . وهذا يجعلنا نضاعف اليقظة والجهاد حتى نصل إلى نصر حاسم للإسلام وأنظمتيه وأهدافه .

إن الاتجاه القومي الحديث منذ نشأته في أوروبا ومنذ اعتُبر أساساً للتنظيم الدولي ، لم يكن ينظر للأديان عموماً إلا على أنها ضرورات يحسن التمشي معها إلى حد غير بعيد . وعند ما نقل هذا الاتجاه إلى الشرق الإسلامي شابهته عناصر كثيرة من الإلحاد السافر والتقليد الأعمى . وكان المسلمون على حال من الضعف والرخاوة جعل مقاومتهم لهذا الانقلاب فائرة كليله الحد . وقد يكون غير نارح به وهشّ له ، لا شيء إلا لأن هذا الاتجاه يمكن استغلاله استغلالاً واسع النطاق في هدم شرائع الإسلام وتعاليمه ! وذلك ما حدث فعلاً .

فإن الإسلام كجنسية عامة بين أتباعه في قارّات الأرض الخمس قد ضعف كثيراً على حين قويت القوميات الخاصة ! .

ثم إن الإسلام ضعف كذلك كقوة خَلقية عاصمة من الدنيا والردائل ، ولم يوجد شيء يعنى غناؤه في رفع مستوى المسلمين الأدبي ! .

هذا إلى أن الاستعمار الغربي حرص أشد الحرص على تحطيم الإسلام كعقيدة دينية ذات طابع عسكري يقنادى المسلمون بها لردّ العدوان ودفع

الطغيان ، كما أن أوروبا حرّضت الأقليات على أن تطالب بحق الشريك المساوى في العدد كأنهم النصف . أى أن الشخص الواحد يطلب لنفسه مثل أنصبة تسعة عشر شخصاً ، ولن تعدد الدول المحتلة للبلاد الإسلامية أن تجد من يقوم بهذا التحدى المعيب ! . والعهد قريب بما كان يكتبه ولا يزال يكتبه «سلامه موسى» في جريدة مصر الطائفية المعروفة من مقالات لا يستفيد منها إلا الإنكليز .

ونحن إن نعجب فلخفاء هذه الحقائق المريعة عن الأستاذ خالد وانزلاقه إلى مجارة هذا التيار الذى يحاول منذ قرن أن يحرف الإسلام .

موقف علماء الأزهر من هذه النزعة

يخزننا أن نقول إن الأزهر لم يبدأ حربه ضد هذه الحركة إلا مؤخراً . بعد ما شعر رجاله بالأخطار الهائلة التى تهدد الإسلام فى صميمه ونخشى أن يكونوا جاءوا بعد قيام القطار ، لقد تركوا الشيطان يلقى غراسه فى الأرض ويتعهد نماءها فلما بدأت الثمار السامة تنقص بها الحلو وتتنقرز منها النفوس تعالت صرخات الألم ، وإليك مقتطفات من كتاب أرسله إلى رئيس الحكومة يشونه شكواهم .

« وإن الناظر فى حال أمتنا العزيزة وما آل إليه أمر الدين والخلق فيها ليهوله ما يرى ويأخذه كثير من الحزن على حاضرها الذى صارت إليه ، ويخالجه كثير من الإشفاق على مستقبلها الذى هى مقبلة عليه ، فقد استهان الناس بأوامر الدين ونواهيها ، وجنحوا إلى ما يخالف تقاليد الإسلام ، ودخل على كثير منهم ما لم يكن يعهد من أخلاق الإباحية والتحلل ، جرياً وراء المدنية الزائفة ، واغتراراً ببريقها الخادع ، وكثرت عوامل الإفساد والإغراء

في البلاد ، ولا سيما أمام ناشئتها وفتيانها المرجوين للنهوض بها والأخذ بيدها في حاضرها ومستقبلها ؛ فمن حفلات ماجنة خليعة يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهتكة جريئة تشرب فيها الخمر ويرتكب فيها ما ينافي المروءة والخلق الكريم إلى أندية يباح فيها القمار ويسكب على موائد الذهب وتبتر فيها الأموال وتزلزل بسببها البيوت والكرامات . إلى ملاعب للسباق والمراهقات تنطوى على ألوان من الفساد وإضاعة المال . إلى مسابقات للجمال إنما هي معارض للفسوق والإثم يرتكب فيها ما يندى له جبين الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات أكبرها وأخطرها ؛ إلى شواطئ في الصيف يخلع فيها العذار ويطلق فيها الأشرار . إلى أخبار ذلك تذكر وتنشر وتوصف وتصور وتستثار بها كوامن الشهوات والغرائز في غير تورع ولا حياء . إلى كثير من ألوان المنكرات وفنون الموبقات .

كل هذا يحدث في البلاد ، ويعمل عمله المتواصل في أخلاقنا وتقاليدينا حتى اشتد الخطب ، وجل الأمر ، وأصبح في حاجة إلى علاج سريع .

لقد أورثتنا المدنية الأوروبية وما وفد علينا من وافدات الرذيلة والإباحية وما غزينا به في أخلاقنا وتقاليدينا الكريمة — أورثنا كل ذلك — عرفاً فاسداً وذوقاً مريضاً ومجتمعاً صار ينظر إلى هذه المفاسد نظرتة إلى شيء مألوف فلا يكاد ينكرها فضلاً عن أن يغيرها ، بل أصبح يراها — إلا قليلاً ممن عصم الله — آية من آيات التقدم وعلامة على النهوض والرقى ، ورضيت بها القوانين بل حمتها ونظمتها وجبت من كسبها الحرام الضرائب والرسوم كما تجبها من الأعمال المشروعة والمكاسب الشريفة .

ألا وإن أكبر الفساد بعد الوقوع في الفساد أن يرى الغنى فيه رشاداً

والضلال هدى فإنه حينئذ دليل على تأصل جرائمه وتمكنها من القلوب ،
وصيرورة الأمة إلى الزمان الذى يرى فيه المعروف منكراً والمنكر معروفاً
والقيبح حسناً والحسن قبيحاً .

وإن لنا فى بعض الأمم الحاضرة لعبرة إذ أفسدها الترف وفت فى عضدها
الانحلال فسقطت يوم الجهاد أمام أعدائها ولم تنطق صبراً على ما أصابها من
بأسهم وقوة شكيمتهم ، وقد نادى بذلك قادتها وولاة أمرها ، ولكن
بعد فوات الأوان ، وتلاوموا عليه ولكن بعد أن فاتتهم الفرصة فأصبحوا على
ما فعلوا نادمين .

وسوف تسأل : ماذا حدث بعد هذه الشكاية ، والجواب العاجل
لم يحدث شئ . ولن يحدث شئ ! لقد قوبل مبلغوها بالحمأة تنطوى على
التوقيف والإجلال حتى إذا أداروا أكتافهم وتواروا عن الأنظار أقيت بقلة
اكتراث فى أقرب درج ولا نقول أكثر من ذلك . إنك تطلب من سدنة
الأوثان أن يكسروها فوق رؤوسهم أنقاضاً ! وكل ماشكا منه السادة من كبار
العلماء لا يزال باقياً ، بل إنه يزيد . !!

التحرر من الخوف والطمع والاتجاه إلى الشعب

والطريقة المثلى للإصلاح ليست هذا الوعظ المكتوب أو الخطوب فإن
النبي صلى الله عليه وسلم لم يلجأ إلى الوعظ إلا لما ، وبقدر ما يعينه على وظيفته
الأولى — وهى التربية وإعداد النفوس بالعمل الرتيب والخلق القويم والأسوة
الحسنة — ومن ثم كان يتخول أصحابه بالنصيحة مخافة السامة عليهم وانظروا
قول ابن عباس لعكرمة « حدث الناس مرة فى الجمعة فإن أبيت فترتين وإن
كثرت فثلاث ولا تمل الناس هذا القرآن ! ولا ألفتك تأتى القوم وهم فى

الحديث من حديثهم فتقص عليهم — قصص الدين — فتقطع عليهم حديثهم فتعلمهم ولكن أنصت فإن أسروك فخذتهم وهم يشتهونه .

ولذلك نؤكد هنا أن محاولة العلماء خدمة الدين عن طريق الكلام الكثير خطة نسيء إلى الدين ويسيثون بها إلى أنفسهم . والواجب أن يعنوا بالتنظييات الشعبية وتأليف الجاعات التي تتعارف على العبادة وتتعاون على الخير وتتواصى بالحق وتتربص للعدو وتستعد للجهاد .

وهذا المسلك يتقاضى العلماء أن يحددوا مسلكهم من الحكومة وأن يهاجموها إذا تهجمت على الدين . وبالحرى أن يبصروا الأمة بحقيقتها إذا كانت المبادئ التي قامت عليها منافية للدين نفسه .

إن فساد الحكم في الشرق داء قديم . وعيب العلماء في محاربتة ثقيل فإذا فسد الحكم فعلى العلماء ألا يكتفوا بالإنكار القلبي . وإلا صاروا وعامة الناس سواء . وخانوا الأمانة التي حملوها . وخاسوا بالميثاق الذى عقده والحديث المشهور « صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمرء » .

أما الذين يتملقون الظلمة ويترضونهم ابتغاء سلطة زائلة أو منصب تافه أو متاع قليل فأولئك ليسوا بعلماء . بل هم شرار الخلق قال صلى الله عليه وسلم « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه » وقال « يكون آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق » وقال « من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس وجهه ومحق ذكره وأثبت اسمه في النار » .

وقد نكب الإسلام بعدد كبير من هؤلاء ، وإنها لفتنه لا ندرى بم ينتهى أمر الناس معها .

أسمعت إلى نبيّ ذهب — قيل أن يدعو الناس إلى التوحيد — إلى مقر
الأنعام ليقدّم لها الولاء ويستأذنّها في الدعوة إلى الله ؟ . . إن ذلك مثل الذين
يريدون خدمة الإسلام . فيفكرون قبل كل شيء في أقرب الطرق إلى قلب
الحاكم لترضيه وتوقيره ... !!

تحرّروا أيّها الناس من الطمع في المناصب . والخوف من الحكام وإلا
فلن تبلغوا رسالة الله .

بين الهلال والصليب

« ستفتحون مصر — وهي أرض يسمّى فيها القيروط —

فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » .

حديث شريف

لعلك تلاحظ في يسر — وأنت تطالع القرآن الكريم — أن تعاليم
الأديان واحدة ، وأن كلمة « الإسلام » زبما كانت جديدة على أسماع الناس
في العهد الأول للبعثة العامة . ولكن القرآن أكد أن هذه الكلمة قديمة
قدم النبوة ، وأن المرسلين السابقين من لدن الحق — تبارك وتعالى —
كانوا يؤدنون الرسالة نفسها التي قام محمد بأعبائها بل كانوا يؤدونها تحت
العنوان نفسه « الإسلام » الخفيف ! .

والفروق الطفيفة في التشريعات الفرعية لا تخدش هذا الأصل العتيق
ثم إن حقائق العلم الواحد قد يدرسها للطلاب عدد من المدرسين المتفاوتي
الكفاية والمقدرة فتخرج من فم أحدهم أوضح وأبلغ من الآخر . ولذلك
اختلفت درجات الأنبياء وإن اتفقت تعاليمهم « تلك الرسل فضلنا بعضهم
على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم
البينات ، وأيدناه بروح القدس » .

وربما كان السر في عظمة محمد وامتيازهِ على غيره من الدعاة إلى الله ،
أن أحداً من المرسلين الأولين لم يبلغ مبلغه في تمهيد طريق الحق وربط الناس
به على ضوء من العقل الحر والعاطفة الحارة . ومن أرسل بصره في بحال سيرته
الزاكية لمح عملاقاً فارعا يطمس آثار الجاهلية في جلادة وحزم ، ويفتح الآفاق
عل حضارة جديدة أعلت قدر الإنسان ووثقت صلته بالله الواحد الديان .

وليس هنا موضع الكلام عن صاحب الرسالة العظمى بيد أننا نذكر
من قرآنهِ ما يشرح لنا معالم الوحدة التي تجعل الأنبياء صفاءً واحداً يسعى إلى
غاية مشتركة .

فنوح يقول لقومه : « إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله

فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة . . . »
إلى أن يقول « وأمرت أن أكون من المسلمين » وفي إبراهيم يقول : « ومن
يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا . وإنه في
الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » .

وفي يعقوب — الملقب بإسرائيل ، والذي تحاول الصهيونية الحديثة أن
تنسب له — يقول : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال
لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل
وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » .

وفي موسى حين يعلم قومه مقاومة الظلم ومصاهرة الأحداث السود « وقال
موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » وفي سليمان
حين يدعو ملكة سبأ لعبادة الله ونبذ عبادة الكواكب « قالت يا أيها الملأ
إني ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان وإنه بآسم الله الرحمن الرحيم
ألا تعبدوا على وأتوني مسلمين » ، وقول ملكة سبأ بعد ذلك « رب إني ظلمت
نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

ويوسف لما شرفه الله بالنبوة والملك وساق إليه مجد الدنيا والآخرة .
يقول : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر
السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً والحقنى بالصالحين » .
وفي عيسى الذى أحسن عبادة ربه وبذل جهده كله ليقود الناس
إلى الله ويطهر نفوسهم من أدران الهوى والشرك ، فإذا بالسفهاء يتنكرون له
ويحاولون الاعتداء عليه « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى
الله . قال الحواريون نحن أنصار الله . آمنا بالله واشهد أنا مسلمون »

والآيات التى تشير إلى وحدة الأديان في الموضوع والعنوان كثيرة « ما يقال
لك . إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » .

وتبعاً لهذا كانت عواطف المسلمين تتجه إلى اليهود والنصارى على أن الشكل إخوة، بل كان إحساس المسلمين بأواصر القرى بينهم وبين أهل الكتب الأولى إحساساً ظاهراً صادقاً. . . ويبدو هذا بالنسبة إلى النصارى في حادثتين نقصهما عليك لما اشتد ضغط الوثنية المخرفة على المسلمين في مكة أشار النبي (ص) على أصحابه المضطهدين أن يلجأوا إلى الحبشة. ورأى في جوار ملكها المسيحي عاصماً من الفتنة وأماناً. وقد حاولت قريش أن توغر نصارى الحبشة على المسلمين الفارين بدينهم إليها. وتوسلت إلى ذلك بأن المسلمين لا يرون في عيسى وأمه معنى الألوهية الذي يلحظه الأحباش فيهما ولكن النجاشي استمع إلى حديث القرآن عن مريم وميلاد عيسى وخلب له فيض التمجيد والكرامة الذي يغمر به الإسلام قصة الميلاد. ثم أبى أن يقصى المسلمين عن جواره.

وفي الوقت الذي كانت أفئدة المشركين تهوى فيه إلى مجوس فارس. كان المسلمون يعطفون على نصارى الروم ويتمنون لهم الخير. وقد حزنوا أشد الحزن لما هزم الفارسيون الجيوش المسيحية. بل كان حزنهم ماثراً شامة من جانب العرب المشركين حتى طمأنهم النبي صلوات الله عليه وسلامه إلى أن المجوسية ستتكسر. وأن المسيحية ستنتصر « ألم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ».

وكما أمل المسلمون في مطالع تاريخهم — أن يلقوا الخير عند النصارى تطلعوا إليه عند اليهود. فما كادوا يهاجرون إلى المدينة حتى سارعوا إلى عقد حلف معهم يقوم على تأمين الحقوق ودفع العدوان بل إن عواطف المحبة وسلامة الصدر جعلت المسلمين يتوقعون من اليهود أن ينصروا دعوة التوحيد

أو على الأقل يخلوا بينها وبين الوثنية فلا يتدخلون في الصراع الذي نشب بينهما على الحياة والموت ... لا يتدخلون إلى جانب عبدة الأصنام .. انتظر أهل القرآن أن يسمعو من أهل التوراة شهادة حسنة تقرر الحق في مجتمع طال عليه الأمد وهو لا يعرف ربه إلا أحجاراً منحوتة « ويقول الذين كفروا : لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .
ولكن الذي عنده علم الكتاب ضمن بالكلمة المطلوبة : بل شهد أن الوثنية أفضل من دين محمد !!!

الواقع أن المسلمين — كأصحاب المثل دائماً — تطغى عليهم طيبة القلب وصفاء الطوية فينشدون السلامة ويحسنون الظن ثم يفجؤهم ما ليس في الحسبان فيعلمون أنهم مهما أحبوا مكروهون . ومن ثم يقول الله لهم « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم . وتؤمنون بالكتاب كله . وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

ومع ذلك التاريخ السابق فإننا نحب أن نمد أيدينا وأن نفتح آذاننا وقلوبنا إلى كل دعوة تواخي بين الأديان وتقرب بين بنيها وتنزع من قلوب أتباعها أسباب الشقاق ، إننا نقبل مرحبين على كل وحدة توجه قوى المتدينين إلى البناء لا الهدم ، وتذكرهم بنسبهم السماوي الكريم ، وتصرفهم إلى تكريس الجهود لمحاربة الإلحاد والفساد ، وابتكار أفضل الوسائل لرد البشر إلى دائرة الوحي بعد ما كادوا يفلتون منها إلى الأبد .

وهذه الوحدة المنشودة لبت مركباً كيمياوياً تذوب فيه العناصر المكونة له وتنفى خصائصها ! فهذا مستحيل . ونحن لا نقبله ولا نفكر فيه ! بل سيبقى الأديان كما هي ؛ وسنستفيد الكثير من هذا التعاون .
وفي حدوده الواسعة نحب أن نقرر ما يلي :

أن ما يقده أتباع دين ما ، لا يكره عليه أتباع دين آخر ، فاليهود لا يرغبون على الإيمان بعيسى ، والنصارى لا يرغبون على الإيمان بمحمد . ومهما اعتبر المعتنقون لدين أن ما لديهم حق وأن ما لدى غيرهم باطل . فلا مجال لإقحام هذا في ميدان الحياة العامة ، واستغلاله في إيقاع المظالم والاضطهادات . . .

والأديان — من مصادرها الثابتة — تحترم هذه القاعدة كل الاحترام ومن الإنصاف — كذلك — ألا نكلف أتباع دين ما بأن ينزلوا عن تعليم من تعاليم كتابهم ، أو وصية من وصايا نبيهم ليكون هذا التنازل عربون المودة لغيرهم وإلا كان هذا التكليف معناه تغليب دين على دين ، ونصرامة على أمة . . . ومحور التفاهم يدور على الاحترام المتبادل لا الاستهانة والمهضم ! ! فإذا اختلطت مذاهب شتى في وطن واحد فإن تنسيق مصالحها كلها ليس بالأمر العسير . وضمان المصلحة المعقولة لاشياع كل نزعة دينية لا يهدم — بداهة — حق السكثرة في إعلان سيادتها وتنفيذ برنامجها . . .

وقواعد الديمقراطية الحديثة تقوم على هذا الأساس . ألا ترى حزب العمال في إنجلترا يزيد خمسة أصوات فقط على حزب المحافظين ومع هذه الأغلبية الضئيلة فقد انفرد بالحكم وفرض نظمه الاشتراكية على البلاد جمعاء . فإذا كانت مصر تضم كثرة مسلمة تبلغ أكثر من ٩٠٪ فمن حق مسلميها يقيناً في نطاق ما أسلفنا من قواعد أن يجعلوا الدولة في مصر إسلامية لحماً ودماء . وإنه لما يساعد على ذلك أن الإسلام كما رأيت يرى نفسه صدى الكتب الأولى ، وامتداداً صحيحاً مشرقاً لتعاليم موسى وعيسى عليهما السلام .

هذه أسس نضعها لإقامة تعاون مشترك بين أهل الأديان السماوية .

ونحب أن نقول في صراحة إن هناك أسساً أخرى لجمع المنتسبين إلى الأديان في صعيد واحد . وهذه الأسس معروفة بل مطبقة فعلا في أكثر من قطر من أقطار العالم الرحب وهي تجمع بين اليهودى والنصرانى والمسلم على أنهم جميعاً إخوة سواء . . . ولكن بعد أن تسليخهم جميعاً من عقائدهم وتستوثق من نبذهم لرسالاتهم وشرائعهم . . وأحرى بنا أن نسمى هذه « بالوحدة اللادينية » .

إن هناك يهود لا يعرفون موسى ولا التوراة ! هل قرأت الدعوة التى وجهها « أنشتين » إلى أخطر المؤتمرات العالمية يطالبها أن تحارب فكرة الألوهية وتنقى الأذهان من هذه الخرافة ؟ ويعتبر النجاح — فى محاربة الله — أكبر كسب تحرزه الإنسانية (!)

هل هذا يهودى ؟ وهل يسمع لمثله رأى فى التعاون بين أهل الدين ؟ ثم تنزل من قمة العلم الطبيعى حيث يوجد هذا العالم الملحد وتهبط إلى السفح فترى « محمد التابعى » المسلم — كما يقال — و « سلامه موسى » المسيحى — كما يقال — فإذا بكلا الشخصين يدعوا بقوة وحاسة إلى إقرار البقاء وإباحة الزنا ! ! ولا عجب فلا هذا ولا ذاك يؤمن بالله أو يصدق باليوم الآخر . وليكن هذان الشخصان من رجال الصحافة أو السياسة ولكن كلامهما فى شئون الأديان لا يسمع إلا يوم يسمع رأى الشيطان فى شئون الوحى ! ! ومع ذلك فالوقاحة تجعل سلامه موسى يكوّن عصا به من الشطار أو الصغار لترسم خطوط التعاون بين المسلمين والأقباط فى مصر !

إننا نستريح من صميم قلوبنا إلى قيام اتحاد بين الصليب والهمال ، بيد أننا نريده تعاوناً بين المؤمنين بعبسى ومحمد لا بين الكافرين بالمسيحية والإسلام جميعاً .

والذين يخوضون في العلاقات بين عنصري الأمة المصرية — كما يصفونها — صنف من الناس لا نطمئن إلى تقواه ولا إلى ابتغائه وجه الله !

ومن فترة طويلة وعصاة « سلامة موسى » تعكر المياه لتصيد فيها وقد استهدفت لإثارة الضغائن بين المسلمين والأقباط .

١ — هدم الإسلام بإعلان حرب متواصلة على شريعته ومحاوله إرغام المسلمين على تركها ونسيان أحكامها .

٢ — هدم المسلمين أنفسهم بإغراء القلة القبطية أن تحكمهم وتستأثر دونهم بالنصيب الأكبر من المناصب والوظائف العامة .

وسنسوق في المقالات المقبلة الشواهد على هذه النوايا الخبيثة من كلام العصاة التي يترجمها حضرة سلامة أفندي المسيحي ظاهراً ، وذو الباطن الذي فضحته الأيام .!!

إنها مؤامرة على الأديان كلها وإن كانت في ظاهر الأمر حملة ضد الإسلام وحده ، وردّاً لشعائره وشرائعه ، وغضباً من مكائده وجدواه على الناس والحياة .

وعصاة « سلامة » في كيدها لدين الله تتبع المبدأ المشهور في الدعايات المهرجة الباطلة ، مبدأ « اكذب ثم اكذب ثم اكذب فسيقع في أذهان الناس من هذا الكذب المتلاحق شيء ما » .

وقد دار محور كذبها في الأيام الأخيرة على أن المسلمين أعداء للأقليات التي تعيش بينهم (!) وأن الكثرة المسلمة في مصر تكن السوء لغيرها (كذا) إن أربعة عشر قرناً مضت على ظهور الإسلام وعلى دخوله هذه البلاد

لتحشد الأحياء والأموات صفوفًا تصفع هؤلاء الدجالين وترد أكاذيبهم في حلوقهم ..

فإن الأقليات الدينية لم تُسمَّ سوء العذاب إلا في «أوروبا» المتعصبة المتوحشة لقد عاش اليهود بيننا قرونًا متطاولة فما وقع عليهم ضيم ، ولا غضب منهم درهم ، ولا استبيحت لهم حرمة ! في الوقت الذي كان اليهود في أوروبا يذبحون فيه ويحرقون . وكانت الحكومات من روسيا في الشرق إلى أسبانيا في الغرب ينصبون المشانق والمحارق لتزحق أرواحهم بالآلاف لأنهم « قلة مسكينة » ! وما كانت حركة « هتلر » الأخيرة في إفناء اليهود إلا صورة لما توطأ الأوربيون على اقترافه من آثام غليظة ضد أعدائهم في الدين !! ولم تبرأ من هذا الوباء وحده إلا بلاد الإسلام ..

بل إن المسيحيين في أوروبا قد انقسموا فرقًا تعبد بتعذيب خصومها في الرأي . والمذابح البشعة التي لوثت تاريخ أوروبا السياسي لا يمكن نكرانها والوقائع التي فتكت فيها الكثرة الكاثوليك بالقلة البروتستانت أو بالعكس مسطورة بالدم في صحائف لا يمحوها الزمن . ولم يكن هناك أسعد على وجه الأرض من النصارى الذين يعيشون بين ظهرائي المسلمين .

وإلى اليوم . نستطيع أن نملأ أفواهنا غرًا بأن سماحتنا وترفعنا فوق الريب التي يحاول أن يرجف بها أولئك الخراصون من عصاة سلامة . وأننا لن نفقد من أخلاقنا الأصيلة ذرة مهما وجدنا من جحود وكنود !!

نعم مهما وجدنا من جحود وكنود ! فقد أكرمنا آلاف اليهود فخانونا ونسوا أننا أمناهم يوم كان العالم أجمع يتقرب إلى الله بقتلهم ، نسوا ذلك كله ، وانضموا إلى الجبهة الاستعمارية في الغرب ضدنا ، وجزونا جزء سنار .. !!

وها هي ذى عصابة مأفونة من الملحدین المبغضين لله ورسله كافة يحاولون إثارة فتنة عميةا بترويج أ كذوبة فارغة ، لم تُعرف في ماضينا ولم تُعرف في حاضرنا ولن تؤثر عنا في غدنا.. لا لأننا نهاب أحداً من الناس . . . بل لأننا مسلمون . والإسلام يعلمنا أن ننصف الناس ، ولو من أنفسنا .

والدوافع إلى هذه الأكذوبة أنهم يريدون إقامة حكم لا ديني في مصر التي يسكنها ٢٠ مليون مسلم .

فإذا قامت جماعة من المسلمين تريد أن ترجع الناس إلى أحكام السماء وتنادى بضرورة احترام القوانين والتقاليد التي شرع الله . . صرخت هذه العصابة : أغيثونا ، نحن في خطر !! لا حكم لله هنا !!

وقد نقل كتاب — طائش نشرته هذه العصابة — نقل كلاماً لاسماعيل صدق باشا يصور الاتجاه الإلحادى في حكم هذه البلاد .

قال الباشا — الذى لا دين له — « يجب أن نباعد بين سياستنا وبين الاتجاه الدينى . لقد بدأت تصطبغ بصبغة دينية . وهذه نعمة قديمة انتهت منذ مئات السنين . ولم تعد السياسة العربية ولا الإسلامية تلائم العصر الحاضر بل إن سياستنا قامت فى الماضى على غير هذا الأساس . فمحمد على الكبير — ذلك الرجل البارع — كان يتطلع إلى الغرب وكانت إصلاحاته غربية . ومن بعده إسماعيل . وكذلك كان الملك فؤاد . بل إن سعد زغلول خريج الأزهر لم تكن سياسته عربية ولا إسلامية . بل كانت مصرية خالصة تتجه نحو « أوربا » فلماذا نتجه اليوم هذا الاتجاه — الإسلامى — وأى مصلحة لنا فيه ؟؟ »

يقول الدكتور « زغيب » — وهو من أعضاء العصابة — هل بعد هذا

كلام واضح صريح من رجل كان فريداً في ذكائه وحيداً في تفكيره ممتازاً في بعد نظره ورجاحة عقله ... ؟

هذا الكلام هو قرعة عين سلامه موسى وعصابته . وكل معول ينقض بنيان الإسلام فهو في نظره مسلك ينطوى على الفهم والحصافة ويدل على التقدم والارتقاء . فإذا قال أحد : إن لله وحياً ينبغي أن يطاع ، انبعث صوت هذا الغر يطلب النجدة من أوروبا وأمريكا قائلاً : الأقلية في خطر !!!
وقد علمت أن تحدث هذا الشخص عن الأقباط خدعة تستر وراءها أخبث النوايا نحو التوراة والإنجيل والقرآن .

وفي كتاب آخر نشرته هذه العصاة جاءت هذه العبارة « إننا عاتينا مذبحة فلسطين — ولم نزل — تحت تأثير فكر عنصري . واستجابة لإثارة طائفية . ومن العبث أن نخفي ذلك أو نتجاهله » .

ومعنى هذا الكلام أن فلسطين كان يجب أن تترك لليهود . وأن الحماية الدينية التي دفعت المسلمين لنجدة إخوانهم هي نزعة طائفية بغيضة يجب البعد عنها . كما يجب البعد عن كل دوافع المروءة والشرف في إغاثة المظلوم وإعانة الضعيف ... !!

هذا هو الهدف الذي يروج له الأوغاد في بلادنا . والذي يعتبرون الوقوف له تعصباً تستصرخ من أجله أوروبا وأمريكا ! لكي تحمي الأقليات ! وقد مضى الكتائب في حقه المشبوب على الروح الإسلامى الذى استيقظ فجأة في دماء الشباب المتطوع لمقاتلة اليهود في فلسطين . ولم يجد ما ينتقصه به إلا أن يولول كالمراة الفزعة فيقول « قد رأينا كيف كان يوم الصهيونية أغبر علينا . راحت فلسطين — أى ضاعت ! — ودخلنا الحرب زاعمين أننا سنمنع دولة

اليهود فمنعنا دولة العرب » ثم يوجه الحديث للإخوان المسلمين « أفتريدون يوماً آخر للنصرانية — نعم هم يريدون ؟ » . هكذا يتساءل الكاتب القذر ثم يجيب !!!

ما هذا اللغو الذى تمضغه هذه العصابة الماجنة ؟ .

إن المسلمين والمسيحيين هم عوا جميعاً لمقاتلة اليهود المعتدين . وقتال هؤلاء اليهود لو لم يوجه داعى الدين لأوجبه مصالح الدنيا . فما هو الغرض من الكلام عن النصرانية فى هذا المجال ؟

الغرض واضح . إن عصابة سلامه — كما قلت فى صدر هذا الحديث — فى سبيل محاربتها للإسلام تريد أن تستثير الأقباط . وأن توهمهم بأن كل نقطة إسلامية تعنى العدوان عليهم . ولا شك أن جمهور الأقباط يعرف أن هذا التوهم لا مبرر له أبته . وأن الحكم الإسلامى طيلة القرون الأولى كان أنظف كثيراً جداً من أنواع الحكم التى هيمنت على « أوروبا » فى العصور الوسطى وأذاقت شتى الأقليات الفصص والويلات .

ثم إن المتدينين من المسلمين والنصارى لن يقبلوا قيام حكم إلحادى كهذا الذى تدعو إليه عصابة سلامه موسى وتصدر الصحف والرسائل تمهيداً له . . إنها تدعو علناً إلى إقامة حكم لادىنى فى مصر . وتطلب من جمهور المسلمين أن يهملوا تعاليم دينهم فى هذا الشأن وأن ينزلوا عن حقهم ككثرة كبرى . وفى هذا يقول سلامه موسى : « أعتقد أنه يجب فصل الدين عن الدولة وأنه ليس من حق المدارس الحكومية أن تعلم ديناً معيناً . ومهمة المدارس هى إيصال المعارف إلى رءوس التلاميذ وليس الدين معارف ! إنما هو تربية العواطف . وهى تربية يجب أن تترك للأبوين » .

وينكشف الغطاء عن مقاصد هذه العصابة بجملة فى محاولتها قطع الأواصر

بين مسلمي مصر ومسلمي العالم ومطالبة جمهور المسلمين في مصر أن يذكروا شيئاً واحداً وينسوا ما عداه . هو أنهم مصريون فحسب . ويعلق عضو من أعضاء هذه العصبة على مولد الحزب الوطني القديم فيقول : « إنه أول حركة خرجت بالقومية المصرية إلى معناها الواضح المحدود ووضعت أسس القومية المصرية وخلصتها من ميوعة الدولة العلية والاندغام في الكل الإسلامي » إنها أول ثورة في الشرق لم تقم على أساس ديني ... » ويقول : « إننا نسجل بكل فخر هذه المادة الرائعة من برنامج الحزب الوطني فقد جاء فيها : « الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذاهب ... » .

أما أننا مصريون فنحن لا نتكر وطننا ولا نبجد حقه ...
وأما أن شرط المصرية الصحية الانسلاخ من الإسلام والتفكير لفرائضه ومعالله فهذا ما نستغربه ونستغرب الدعوة إليه !!
لماذا لا يخلص المسلمون في مصر لدينهم . ويبقى الأقباط كذلك مستمسكين بأناجيلهم وكفائسهم . وقد كانوا كذلك دهوراً طويلاً من غير نكير ؟ ؟

هل الإلحاد شرط للوطنية ؟ والكفر بالله دليل المصرية الصحيحة ؟
ما هذه السفالة التي تنحدر إليها الأجيال الجديدة ؟
أي غضاضة ياقوم — في أن تكون الوحدة الوطنية بين متدينين لا ملحدين . وبأي وجه صفيق يُطلب منا أن نذهل عن إخواننا في العقيدة ونتركهم وشأنهم في دنيا مليئة باللصوص والظلمة ؟ ولماذا نتهم بالتعصب إذا أصحنا لشكايتهم ، فإذا تحركت عواطفنا لنصرتهم صاحت هذه العصبة الجنونة عصابة سلامه (أذكر كونا . نحن في خطر . الرجعية عادت إلى مصر) !

ثم يقال للمسلمين — أجل للمسلمين وحدهم — لا أديان في الوطنية ولا وطنية في الأديان !!

وفي الوقت الذى تقام فيه الحواجز الكثيفة بين أتباع محمد وبين قرآنهم وشريعتهم ، ويفرض عليهم بالعنف أن يهجروا الإسلام . . . في هذا الوقت نفسه يشتد ساعد التبشير المسيحي وترصد له الألوف المؤلفة وتسانده الدول المحتلة بأساطيلها وجيوشها ويقول الدكتور زغيب ميخائيل مفتخراً بأمريكا « والشعب الأمريكى — رغمًا عما يذاع عنه — شعب متدين قبل كل شيء يحب الحرية يكره الاستعباد ويثور للظلم . . الخ » والدكتور زغيب هذا قبضى صعيدى . ومع ذلك فهو يعز بهذه الروح المسيحية الأمريكية وينوه بها . ثم يوجه الكلام إلى المسلمين فى مصر — لى يتركوا الإسلام — فيقول : « إننا نريد أن نشبه بتركيا الناهضة . تركيا التى أوجدها كمال أتاتورك وليست تركيا القديمة التى عممت الظلام وأفسدت الأمم وخربت العمران أكثر من أربعمائة سنة » .

وماذا يطلب الدكتور ؟ هو نفس طلب سلامه موسى وسائر أعضاء العصبة الماحنة التى تريد القضاء على الدين والمتدينين فيقول : « فصل الدين عن الدولة هو الدعوة العصرية إلى الديمقراطية . ولذلك رأينا هتلر وموسوليني يردان الدين إلى الدولة ثم رأينا بيتان أيام الاحتلال الألمانى — لفرنسا — يفعل ذلك . ومازلنا نرى الدولتين الفاشيتين الباقيتين أسبانيا والبرتغال تجعلان الدين أصلاً من أصول العدل .. »

وأى عار فى ذلك . إننا نحن المسلمين فى مصر يسرنا جداً أن تكون فرنسا مسيحية لاداعة . وأن يكون الدين أساس حضارتها ، لا الفساد والتحلل ويهمننا أن يكون الدين كذلك فى مصر . فإذا كانت الكثرة فى مصر مسلمة

قام الحكم على أساس إسلامي . وإذا كانت الكثرة في أمريكا مسيحية
لا يهودية قام الحكم على أساس مسيحي . وستبقى للأقليات حرمتها الدينية
مصونة مرعية .

أما نعيم حكم الإلحاد فلا ..

إننا الآن نسمع أقبح الشتائم موجهة إلى الإسلام ولكننا نكظم غيظنا .
وسنمضي في سبيلنا الصحيحة لا نلوي على شيء . وسنرى أن لعصابة سلامه
موسى غرضاً آخر من وراء هدم الحكم الإسلامي نعرض له بعد .

الجهة الشيوعية تقصى الدين تمام الإقصاء عن ميدان الحياة العامة
والجهة الاستعمارية ترى ضرورة فصل الدين عن الدولة إذا كان هذا الدين
هو الإسلام لأن فصله عن الدولة طريق إلى انحلال عراه وانقراض معالمه
خصوصاً إذا كانت شعوبه عانية في إسار الاحتلال الأجنبي . أما إذا كان
الدين هو اليهودية مثلاً فلا بأس أن تتصل الدولة بالدين وأن تجمع رعاياها على
أساسه من أنحاء الأرض ، خصوصاً إذا كان هذا الحكم اليهودي يغتصب الرقعة
التي يعيش عليها من أوطان المسلمين المحروين .

أما إذا كان الدين هو المسيحية فسواء اتصل بالدولة أو انفصل عنها فيجب
أن يأخذ امتداده الكامل من ناحية الشكل في أوطانه نفسها ومن ناحية
الشكل والموضوع حين ينطلق دعاته في بلاد الإسلام بينون الكنائس
ويقومون المدارس لخدمة الحضارة الغربية والاستعمار الجشع .

وهكذا نحمل وحدنا الغرم في هذه المسألة ولا كلام ولا ملام ..

والعصابة التي تسكيد للأديان في مصر يهملها أن تهدم الإسلام قبل كل

شيء . فإذا كان هدم الإسلام لا يوصل إليه إلا بالتظاهر بهدم المسيحية كذلك فلا بأس أن نظهر بهدم الاثنين معاً على طريقة القاتل :

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي !!

إلا أن بعض رؤساء الكنيسة قرروا أن يحاروا العصابة الملحدة في أعمالها ضد الإسلام وضرورة فصله عن الدولة رسمياً .

ثم يعملون من جانبهم على أن تكون الدولة عملياً في أيدي كثرة ساحقة ماحقة من رجال الأقلية الدينية . يستولون في صمت على الوظائف وتصبح أمعاء الدولة في أيديهم من غير ضجة وقد مهد الإنكليز — عليهم لعنة الله — لهذه السياسة وأحكموا المؤامرة ضد الإسلام وضد الأكرثية التي تعتنقه واستغلوا السلطة المتاحة لهم من أول يوم للاحتلال الغادر فبدأوا بتنفيذ هذه السياسة الجائرة . وما هي إلا أعوام حتى كانت نسبة الموظفين الأقباط نحو ٦٠٪ في الأعمال المعتادة ونحو ٩٠٪ في المناصب الكبرى وكانت ١٠٠٪ في مهن معينة كالصيرفة مثلاً .

هذه السياسة التي سنذكر من كتب العصابة أسانيد صارخة بها ، ونحيا طويلاً لعدم بقائها ، ليست وقفاً على الروح الإنجليزوية في مصر على عهد الاحتلال . بل لقد رأيت في فلسطين لما وقعت في برائن هيئة الأمم المتحدة . وبدأت الهيئة الموقرة تعول أهلها — وقد أصبحوا لاجئين — رأيت جزءاً ضخماً من الميزانية المرصودة للاجئين ينفق على جمهور ضخم من الموظفين الذين روعي في اختيارهم أن يكونوا من العرب المسيحيين فإذا وظف مسلم ، ففي عمل تافه ، وعلى شريطة أن يكون متحلاً لا خلق له ولا إيمان .

إنها نزعة صليبية واضحة وحقد على الإسلام دفين . وانتظار مسلك آخر من أوروبا وأمريكا غير هذا المسلك يعتبراً ضرباً من الغفلة . ولكن

العجيب أن تمللنا من هذه السياسة يعتبر تعصبا أثميا . أى أنه يجب أن نذبح
ونحن سكوت ، حتى يرضى سلامة موسى وأشياعه من رجال الإلحاد أو الراضون
بعدوانه علينا من رجال الكهنوت !!

وإذا حدث أن ارتفعت نسبة الموظفين المسلمين قليلا دوى الصراخ
فى الجو عن سيادة الرجعية وفساد الزمان . وطلب البحث عن أثر
الاخوان المسلمين فى هذا الانقلاب . وهدد القمص سرجيوس بأنه سيهاجر
إلى الحبشة .

لماذا بالله ؟ أيجب أن تبقى الكثرة ذليلة فى كنف السياسة التى رسمها
الإنجليز ؟ أيجب أن يعيشوا إلى الأبد مغفلين ؟

يقول الدكتور زغيب « منذ ربع قرن كان نحو النصف من موظفى
مصلحة البريد ومصلحة السكة الحديد أقباطا — بل أكثر من النصف —
والمهم أن المصلحتين كانتا مضرب المثل فى حسن النظام والدقة فى العمل
والأمانة فى الخدمة — طبعاً لأن الكثرة أقباط — » .

ثم ماذا ؟ نقل عشرات المدرسين إلى مصلحة البريد — كما يقول زغيب —
وانخفضت نسبة الموظفين الأقباط عن النصف . وهنا حدثت الطامة ، يقول
الدكتور زغيب « فماذا صارت إليه الحال بعد هذا التغيير العنصرى ؟ أصبحت
المصلحتان البريد والسكة الحديد مضرب المثل فى الفوضى والإهمال وكثرت
الشكاوى منهما .. الخ » .

والسبب طبعاً أن المسلمين أقل ذكاء ونشاطاً من غيرهم !! وزغيب
لا ينجل من اتهام المسلمين بالغباوة والبلادة دائماً فهو يفضب لأن وزير العدل
صرح « أن بعض الصحف انتقدت الحركة القضائية لأن الأقباط مغبونون
فيها — كما يزعم سلامة موسى — وإنى أصرح بأن نصيهم فيها أحسن حالا

منه في الحركات الماضية وذلك بالنسبة لعدددهم » فال تفسير الوحيد لهذا التصريح أن النوايع من الأقباط ظلموا وأن الكسالى من المسلمين قُدموا . لأنه ليس في المسلمين عدد من الحقوقيين الأكفاء ملء حركة الترقيات . ولن تكون الحركة معقولة إلا إذا رمى بالمسلمين في الطريق وشحنت وزارة العدل بغيرهم . وإذا كانت نسبة الصيارفة ١٠٠٪ من الأقباط فأصبح النصف تقريباً من المسلمين . فهذه جريمة نكراء يدل وقوعها على تعصب أعمى من المسلمين ! وكذلك إذا انخفضت نسبة الأقباط في كلية الطب مدرسين وطلاباً إلى ٤٠٪ بعد ما كانت ٧٠٪ فالويل للمسلمين إنهم انصاعوا لصوت الرجعية البغيض !! أو كما يقول الدكتور زغيب « ماضية المرضى المتألمين والاستغاثات اليومية من المحرومين إلا نتيجة هذه السياسة المجرمة في حق الوطن وحق الإنسانية » .

أسمعت هذا الصراخ المفتعل ؟ أعرفت بواعثه ؟ . إما أن يقصى الإسلام عن الدولة قانوناً . وتمكن القلة المسيحية من حكم الكثرة المسلمة وأما أن تسمع أقذع من هذا التحدى وأوقع من هذا الهجوم . فإذا حاولت الدفاع قيل لك اسكت حتى لا يتهم المسلمون بالتعصب وهكذا « يرضى القتل وليس يرضى القاتل »

عندما طرق الإسلام أبواب مصر قبله فريق منا — وله الحق في قبوله — ورفضه آخر — وله الحق في رفضه . ورأى كلا الفريقين في الآخر من ناحية إصابته للحق وتوفيقه لمرضاة الله ليست له نتائج عملية عاجلة في هذه الدنيا . وإنما تعرف حقيقته في الدار الآخرة . وقد علمنا القرآن نحن المسلمين أن نقول لخالفينا في الدين « الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

أما من ناحية النظام الخيوى وعلاج المشاكل القرية فلسنا عشاق خصومة
لمن يؤثر احترامنا وترك حريتنا لنا « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلواكم في الدين
ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »
وقد أجمع فقهاء الإسلام على أن قاعدة المعاملة بين المسلمين . ومسلميهم من
اليهود والنصارى تقوم على مبدأ « لهم مالنا وعليهم ما علينا » . وإذا كان
هذا المبدأ قد طبق أحسن تطبيق في أقطار الإسلام . فهو في مصر قد طبق على
نحو ممتاز بالنسبة للأقباط . وقد رضينا نحن في تطبيقه أن يكون لهم أكثر
مما لنا وعليهم أقل مما علينا . وهذا الرضا عن سماحة مطبوعة لا متكلفة فإذا
جاء بعض الناس — مما لا دين لهم ولا خلق — يحسبنا مغفلين لأننا طيبون !
ويريد أن يجعل الكثرة المسلمة محكومة بقلّة ناعمة حاكمة ، فهذا بداهة يجعلنا
ترك منزلة الفضل إلى منزل العدل ، ونأخذ حقنا كاملا ونعطى سوانا حقه
حسب . . . !!

خذ هذا المثل لما يحدث في نظام الدولة ، ثم قس عليه وانظر بعدئذ : هل
أخطأ المسلمون أم أخطأ غيرهم .

في سنة ١٩٢٤ كان الوفد المصرى الممثل الفذ للشعب . وكان بين أعضائه
الكبار وموجهى سياسته الوطنية البحتة نفر من إخواننا الأقباط . وتقدم
الوفد بقائمة ترشيحاته لمجلس النواب . وكانت ترشيحات الوفد بمثابة تعيين
حاسم . فإذا بالنتيجة الرائعة للانتخابات العادلة أن أصبح للأقباط ١٥٠ نائباً
من عدد أعضاء المجلس وهم ٢١٤ فقط ، أى أن $\frac{1}{3}$ المجلس هم من الأقلية التى
تبلغ $\frac{1}{5}$ من تعداد الشعب كله وقد ارتاع العقلاء لهذه النية المغشوشة نية
هيمنة الصليب على الهلال باسم اتحاد الصليب مع الهلال . فبدأوا بأدب ورقة
يعيدون التوازن . ولكن هذا المسلك اللطيف لم يعجب طلاب الفتنة وأعداء

الحق فهاجوا وماجوا . وانطلق أفراد العصاة المشهورة يسبون الإسلام
ويلعنون مصر ويستصرخون العالم . ويقولون في قحة : لقد عادت إلى المسامين
رجعيتهم البالية ! لماذا ؟ لأنهم ينشدون المساواة والعدالة والكرامة !!!
ياقص سرجيوس : شيئاً من الإنصاف . ياأستاذ سلامة : شيئاً من الأدب
يادكتور زغيب : شيئاً من الحياء .. أو .. لا .. فاكشفوا عن الخبوء من
أغراضكم وقولوا في وضوح : إننا نحب أن نبيع هذا الوطن للشيطان ولانسمع
فيه آية للقرآن وتمثلوا : إن شئتم بقول شاعر الجاهلية وهو تصوير حق
لمعاملكم لنا :

بفاة ظالمين وما ظلمنا ! ولكننا سنبدأ ظالمينا !!

وأدهشني مايزعمه الأفاكون من أن في مصر حجراً على بناء الكنائس
والغريب أن الدكتور زغيب الذي يستغيث من هذا الحجر رجل من بلدة
أبي قرقاص . وقد كان من المصادفات الحسنة أني عملت في مركز أبي قرقاص
هذا واعظاً نحو العام .. وإني لأستغرب كيف يقول هذا الكلام مع أن أبا قرقاص
تضم ٧٠٪ من سكانها مسلمين و ٣٠٪ أقباطاً . ومع ذلك فيها مسجدان
وخمس كنائس فقط !! وبها كذلك إرسالية تبشيرية من فرنسا ، فهل هذه
النسبة الصارخة دليل الحجر على إنشاء الكنائس أم دليل السرف في إقامتها .
إنها ضجة مفتعلة لغرض خسيس . وإني أترك الأمر لضائر المنصفين من
الأقباط كي يفصحوا بأستهم عن قيمة هذا الاسفاف الذي يؤدي مشاعر كل
مؤمن مستقيم ، ويسرني أن أنقل كلمة تنطوي على استهجان لهذا المسلك
النابي من مواطن مسيحي كريم رداً على هذا الافتراء الأثيم .
قال الدكتور حنا حنا :

نشرت لي مجلة الوطنية منذ أمد بعيد مقالا أثبت فيه بالدليل القاطع

الحسوس أن الأقباط أسعد أقلية في العالم . ولا عبرة بما يهاتربه المهاترون من أن الأقباط هم أصحاب البلاد الأصليون منذ ألف وخمسمائة سنة ! فقد كان الزنوج أصحاب البلاد في أمريكا . والسنة القبطية التي أطلق عليها اسم « سنة الشهداء » دليل قاطع على أن الأقباط حينما كانوا أصحاب البلاد كانوا يعذبون بل يذبحون ذبيح الشياه . وليراجع التاريخ من يشاء . وكان من فضل الله عليهم ونعمته أن فتح العرب بلادهم فأحسنوا معاملتهم وأكرمهم ، بل أغدقوا النعم على المخلصين منهم ، ووهبوا المجتهدين المال والعقار ، حتى أصبح الكثير منهم أصحاب إقطاعيات في طول البلاد وعرضها . وما زال القبط للآن أكثر ثروة وغنى نسبياً من مواطنيهم . وهذا أيضاً دليل قاطع على تسامح الأغلبية وكرمها ، فالشعب المظلوم — كما نشاهد وكما يقره التاريخ — لا يتمكن من الثراء وجمع المال .

إن ما يشتكى الأقباط منه في هذه الآونة ، وما يردده هذا الشاب^(١) في صحيفته صباح مساء ، حتى جعل أشد الأقباط قومية وحماسة يملون قراءة ما يكتب . والله يعلم أنه لا يقصد سوى أن يصبح بطلاً ، وما هكذا يصبح الرجال أبطالا . أقول إن ما يشكو منه الأقباط يتلخص في :

١ — عدم المساواة في الوظائف .

٢ — الشروط المقيدة لبناء الكنائس .

٣ — التعليم الديني في مدارس الحكومة .

وبعد أن أبان الدكتور عن فراغ هذا الدعاوى — وقد رأى القارىء أنها باطلة كل البطلان بل رأى أن المسلمين هم الأحق بالشكوى من الحيف

(١) عضو في عصبة سلامة المعروفة .

الواقع بهم — بعد ما أبان الدكتور المنصف وجه الحق في الموضوع بطريقته
قال لهذا المتهجم على المسامين بالكذب :

أيها الشاب . . . إن البطولة التي تطمح إليها لا تأتي عن هذا الطريق
الوعر . والمسيحية التي تتظاهر بخدمتها لا تصرح لك بالشتم والسب والهجوم
على الضيوف الكرماء وفي قلب الكنيسة . وفي يوم عيد السلام والمحبة
والإخاء . أما أن تطلق لقلبك العنان ، لتقدمك النيابة للمحاكمة فتسجن شهراً
أو بعض الشهر ثم تخرج من السجن بطلا ، فهذا نسيج من الخيال ، وحلم
من الأحلام سوف لا يتحقق .
ولن تكون بطلا ..

المرأة والمجتمع

نساء قريش خير نساء ركبهن الإبل . . .

أحناء على طفل في صغره . . .

وأرعاه على زوج في ذات يده . . .

(حديث شريف)

« لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ »

(حديث شريف)

المرأة والمجتمع

ردفاع : كتب الأستاذ خالد عن المرأة مقالاً حار الأسلوب شديد الحماسة رد فيهِ الآمال التي تجيش بصدور طائفة من السيدات اللائي يقدن الحركة النسوية عندنا . وأعلن بقوة :

١ — أنه مغتبط لحصول الفتاة على حقوقها الثقافية كاملة وتمكنها من دخول الجامعات العليا وانتظامها مع الفتيان في سلك دراسة واحدة .

٢ — أنه يطلب لها المزيد من العلم ويشجع إرسال بعثات إلى الخارج من النساء يتلقين ما يعز مناله في مصر من المعارف والفنون .

٣ — أنه يستنكر حرمان المرأة من حقوقها السياسية ؛ ويرى ضرورة السماح لها بأن تكون عضواً في البرلمان نائبة أوشيشة وقاضية في المحاكم ووزيرة ومديرة وجندية وضابطة . . . الخ .

هذه خلاصة الفصل الذي كتبه الأستاذ . وقبل أن نبسط وجهة نظر الدين فيه ، نحب أن نقول : إن المؤلف حشا كلامه بعبارات نائية لم يكن هناك ما يبررها . فهو يقول لما أسماه الطابور الرجعي (إذاً لا تقولوا : إذا كانت أموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها) .

فهذه الجملة التي ينهى الأستاذ خالد عن النطق بها جزء من حديث معروف للنبي صلى الله عليه وسلم : (إذا كانت أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها . وإذا كانت أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها) .

والحديث يشير إلى أن النظام الاستبدادي الذي تطنى فيه شخصية الفرد على شخصية الأمة — وهو ما يقابل نظام الشورى — كثيراً ما تلعب النساء دوراً خفياً في إدارة أموره مما يجعل مصلحة الجماهير موضع عبث وطمش كما هو مشاهد، ونحن — وإن كنا من أنصار تدعيم المجتمع بالمرأة المثقفة — لا نرى أن تكون مقاليد الحكم بيدها . فهذا خروج بالأشياء عن طبيعتها . والدول التي أعلنت المساواة التامة بين الرجل والمرأة في كل شيء . لم يصل شأن المرأة فيها إلى هذا الحد . ونظرة إلى حكام روسيا — وهي التي تدين بهذا الاتجاه — تبرز هذه الحقيقة . فلن توجد « ستالينة » كستالين ، ولا « مولتوفا » كمولوتوف ولا . . . ولا . . .

ولا يزال الرجال ولن يزالوا حمالى الأعباء الثقال وموجهى التاريخ وحدهم إلى مستقبله المرسوم . وانظر إلى مجالس الأمن وهيئة الأمم وعشرات الحكومات ومئات الوزراء وآلاف المديرين وجماهير العلماء والأدباء والمحترفين إن مجال المرأة ضيق جداً في هذا الميدان . وقد يكون واسعاً جداً في الصف الذى يليه مباشرة وإيس هذا مما يعيب المرأة ويخدش مكانتها .

غير أن صاحب « من هنا نبدأ » اندفع في حماسه يقول عن المرأة « إن أفق الكثرة الغالبة منا نحن الرجال أضيق من أن يتسع لقضيتها » . ويقول عن معارضيهِ (إن أسدثتهم تدل على أن أصحابها من السذاجة بحيث لا ينبغي أن تكون معارضتهم واستنكارهم عائقين عن تحقيق هذا الهدف المقم بالاحتمالات الحسنة) أى جعلها نائبة ووزيرة .

ومن المساواة عنده بين الرجل والمرأة أن يكون للمرأة حق ضرب الزوج وتأديبه كما أن له حق ضرب الزوجة وتأديبها . ! !

وبعد أن وصف خصومه بالرجعية والجود قال : (إن المرأة لم تباشر عملاً

إلا أنت فيه بما يشبه المعجزات وكفاحهن أيام الأوبئة لا يزال بتألق
أمام أعيننا) !

وهذه المبالغات من السكاتب تجعل الكلام لغواً . أي معجزات ؟
لو ددت أن يكون كلامك حقاً ! وإذاً لولينا النساء أمورنا واسترحنا .

ويحتاج صاحبنا خالد على عدم إرسال الفتيات في بعثات تعليمية إلى
الخارج ويقول : (قام وزير خطير ففكر وقدر ثم نظر ثم عبس وبسر . ثم
أصدر أمره بحرمان الفتاة المصرية من السفر في بعثات علمية للخارج . مع أن
هناك من المعارف ما لا يمكن الظفر به في بلادنا وجامعاتنا . ومع أننا لا نملك
منع فتاة من الطموح العلمي إلا إذا جاز لنا حرمان الفتى من هذا الطموح) .

ومسألة سفر المرأة — وحدها — إلى الخارج لها في الإسلام حكم يعرفه
علماء المسلمين جميعاً فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يحل لامرأة تؤمن
بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محرم لها) وقال كذلك
(لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ! فقال رجل : إن امرأتى خرجت
حاجة ، وإني اكتب في غزوة كذا وكذا ؟ قال : فانطلق فحج مع امرأتك)
وهذا الحكم واجب التطبيق إلى قيام الساعة فكيف ساغ لخالد وهو من علماء
الأزهر أن يتجاهله ؟ وأن يطلب تسفير المرأة وحدها إلى « أوربا »
أو « أمريكا » حيث يعتبر العرض أرخص ما يملك المرء من متاع ، ومعروف
أن عضوة في بعثة بالخارج تزوجت رجلاً أجنبياً . وأن نسوة كثيرات من
بيوت كبيرة لما خلاهن الجوّ كان نبذ الدين — وراء رجل معجب —
أيسر شيء عليهن ! وكمن فضائح حملها هذا الدين المظلوم من المنتسبين
والمنتسبات إليه . منشؤها التمرد على آدابه . ويقول الشيخ خالد نريد أن
يكون عندنا « مدام كوري » أخرى . ونقول : وهل هذه هي الطريقة الفذة

للحصول على مثل هذه المدام ؟ لقد كان لدام كورى « مسيو كوزى » وكان تعاون الزوجين على خدمة العلم معروفا مشروعا . أما ماتقترحه أنت للمرأة فطريق معوج لم نستفد منه لاعلماء ولا فضيلة ! إنما كسبنا منه الجهل والارتداد .

النهضة النسائية بين تقاليد الشرق والغرب

ربما يتوهم البعض من هذا النقاش أننا أعداء المرأة نريد شل نشاطها وتعطيل مواهبها وقتل إنسانيتها . والواقع أننا نعرف أكثر من غيرنا الوظيفة التى تقوم المرأة بها فى المجتمع وحاجة هذه الوظيفة إلى قسط كبير جداً من الإعداد والعناية . ونعلم أن المرأة إحدى جفاحى المجتمع يستحيل أن يسمو إذا بُيِّرَتْ أو شُلَّتْ . بيد أننا ننظر فنجد الكلام فى قضية المرأة يتذبذب كبندول الساعة إلى أقصى اليمين وإلى أقصى اليسار ولا يستقر مطلقا عند الحد الوسط الذى يطلبه الإسلام .

قوم يحنحون بالمرأة إلى تقاليد الشرق . وقوم يحنحون بها إلى تقاليد الغرب . وهنا الانحسار والضيق ! وهنا الانطلاق والمروق ! وقد يذهب هؤلاء وأولئك إلى الإسلام يتصيدون منه الشواهد لأهوائهم . والإسلام بعيد عن إرضاء أيهما جاء إليه ، فإن تعاليم الوحي شئ وتقاليد أوروبا أو أفريقيا شئ آخر ... والتقاليد الشرقية التى يحرص بعض الناس على إحيائها تعتمد على :
١ - انتقاص مكانة الأنثى - لصفته الجسدية - فالرجل مطلقاً أفضل من المرأة .

٢ - حصر وظيفة المرأة فى المتعة المادية والاستيلاء الحيوانى وإبعادها عاطفياً وعقلياً عن كل ما يتجاوز حدود هذه الوظيفة التافهة .

٣ - النظر إلى المكافحة الشخصية . والقيمة الخلقية من خلال عرض المرأة وحدها ، فقد يعلم الرجل أن ابنه زنى فيتركه بلا نكير . فإذا علم أن بنته

زنت قتلها في الحال . وقد يضحك لفساد ابنه ، ولكن يسوّد وجهه لفساد ابنته
هذه التقاليد القائمة على ظلم المرأة تنشأ عنها تقاليد ثانوية أخرى تخضع لها المرأة
من المهد إلى اللحد وتصيبها بهزال شديد في جسمها وعقلها وديناها ودينها .
ولا يزال كثيرون من الناس يستمسكون بها ، بل الداهية أن عوام المسلمين
وطائفة من المتدينين الجهلة تحسب هذه التقاليد الضالة هي تعاليم الإسلام .

وأغلب ظني أن الجمعيات النسائية التي تنفر من الإسلام إنما تنفر منه لأنه
في نظرها الخاطئ امتداد لتلك التقاليد القانلة ، ومن ثم ارتمت في أحضان
الغرب تنشأ عنده الحياة والأمل . وتقاليد الغرب الحديثة تعتمد على :

- ١ — التسوية المطلقة بين الرجل والمرأة في المسكنة المادية والأدبية .
- ٢ — إقامة المجتمع على الاختلاط التام وترك المرأة تتقلب فيه كما تشاء .
- ٣ — النظر إلى الناحية الجنسية على ضوء الاستقلال الشخصي والتصرف

الطبيعي . ١

ولهذه التقاليد الغربية عشاق يدعون إليها وقد بدأ مجتمعنا ينساق نحوها ،
أو قل ينحدر إليها ، بل إن الأستاذ خالداً نفسه يريد أن يلعب النهضة النسائية
حتى تسمى زميلتها في الغرب وتستوى معها على الركب .

وغلبة التقاليد الغربية على بلانا ترجع :

- ١ — إلى فساد التقاليد الشرقية السائدة .
- ٢ — سطوة الاستعمار الغربي المسلح بالعلم والقوة والتقدم .
- ٣ — اكتفاء علماء الأزهر وأعضاء الجماعات الإسلامية بالاستنكار السلبي
والصياح الجرد ضد الفساد والعري والتحلل ، وعدم القيام بأي عمل إيجابي ،
حل مشكلة المرأة على أساس إسلامي صحيح ، وأشدّهم حماساً يكتب مقالا

أوبلقى خُطبة ثم يذهب إلى بيته فتستقبله فيه تقاليد الغرب المفتصرة وكأنها تخرج لسانها لوقاره المكذوب .

لم يَبْنِ أحدهم معهداً نموذجياً لتعليم المرأة . ولم يصنع « فستاناً » محتشماً ولم يتقدم بشيء يشغل به وقت المرأة في جدّها أو لهُوها . ولم تر أحدهم يرسم للمرأة المسلمة برنامجاً خاصاً تخدم به بيتها ووطنها . إنه صياح الاحتجاج فقط . وقد يبلغ الأمر بصرعى الغرائز المحتاجة وعبّاد التقاليد الجائرة أن يقولوا لك احبس المرأة في البيت ثم انفض يدك منها . ولو كانت عواقب هذا السفه تلزم أصحابها فحسب لتركناهم وسفهم . أما وهم يصيحون باسم الإسلام فلا بد من بيان الحقيقة وإنصاف الإسلام من تقاليد الشرق والغرب على سواء .

إن قضية المرأة ليست قضية جنس يسكن المريح ! . إنها قضية أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا ، فنحن مدفوعون إلى بحمها وفي جوانحنا عواطف التوقير والحب والحنان ؛ وهي قضية نصف الأمة ، النصف الذي لوحكم بإعدامه مادياً وأديباً مات النصف الآخر حتماً فنحن نحفظ ديننا ودينائنا كليهما عند ما نحفظ على المرأة وضعها الصحيح في المجتمع . وهي قضية الإسلام الذي كذبوا عليه يوم أوهموا الناس أنه يحقّ إنسانية المرأة ويخدش اعتبارها ، ويمنع تعليمها ، ويعدّها للفراش فقط .

ليس صحيحاً أن الإسلام يعد المرأة (لأنها أنثى) دون الرجل (لأنه ذكر) قَرَبَ امرأة أفضل من رجل ، لأنها أرقى منه عقلاً وأسمى خُلُقاً وأبقى ضميراً . ماقيمة اللحى والشوارب في وزن النفوس وعظمتها ؟ . إن مريم ابنة عمران وعائشة بنت أبي بكر أفضل من رجال كثيرين ! .

إن الله سُبْحانه سَوَّى بين الرجال والنساء في ميادين التقوى والاستقامة

« فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ
بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » . نعم ! بعضكم من بعض ، إن الرجل ينسل البنين
والبنات فتتوزع صفاته الجسدية ، وميزاته الأدبية على أولاده كلهم ، لا يضع
أدناها في جنس وأعلاها في جنس ، ثم ينطلقون جميعاً في رحاب الحياة ويبتلون
بتكاليف المعاش والمعاد ، فيكون أولاهم بالله أنقاهم له ، ذكراً كان أو أنثى ،
وهو الأفضل في نفسه وعند ربه ! .

ولا يفض من هذا الفضل أن الله جعل للأسرة نظاماً خاصاً واعتبر الرجل
سيد البيت ، فإن الترتيب الحيوى له شأن آخر . والرجل في الأسرة يحمل
الجانب الأشق من أعبائها . ولابد في كل شركة من رئيس مسئول له فضل
توجيه وتنفيذ ، حتى لو كانت الشركة بين رجلين فإنها تفشل إذا لم يتقرر
القياد لأحدهما من أول الأمر . ولهذه الاعتبارات وغيرها يعتبر الرجل قوَّاماً
على المرأة مع تساويهما ابتداءً في الحقوق والواجبات . وذلك قوله تعالى « وَلَهُنَّ
مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

هذه الدرجة ترتب مادىً بحت في الدنيا ، وإلا فنوح عليه السلام
أفضل من امرأته وامرأة فرعون أفضل منه . إن قيادة الأسرة شيء — والرجل
صاحبها وله في هذا الميدان أفضليته — أما حقيقة الفضل النفساني والامتياز
عند الله فردّها إلى حُسن الإيمان والعمل . ولا يعرف أى الزوجين أرفع
درجة وأعلى مكاناً ! .

فما يتوهمه البعض من هوان منزلة المرأة — لا لشيء إلا لأنها امرأة —
سخف لا يقرّه الإسلام قط .

ومن المقرر أن هناك اختلافاً بين التكوين البدنى والعقلى للرجل والمرأة .
فالرجل تغلب عليه قوة التفكير وشدة المراس وثبات العزيمة . أما المرأة

فتغلب عليها سعة العاطفة وبقظة المشاعر الوجدانية والانفعالات القلبية والرجل أصلب من المرأة عوداً وأقوى بنية . بل لقد لوحظ أن أجساد الرجال أدنى إلى الجمال وأقرب إلى الاكتمال من أجساد النساء ! وليس ذلك فقط بالنسبة إلى الذكور والأنثى في النوع الإنساني فإن ذلك مطرد في شتى أنواع الحيوان .. فالأسد أقوى وأجل من البقرة ، والدب أكبر من الدجاجة ، والكبش أنضر من النعجة ، والحمار أفره من الأتان .. الخ .

وهذا التمييز مقصود في سنن التكوين حتى لا نشعر الأنثى بغضاضة من الائتلاف مع قرين يفوقها في ناحية ما . مع أن هذا الائتلاف ضرورة لبقاء الحياة .

ونسارع إلى استدراك لا بد منه . فليست كل امرأة من ناحية هذا التكوين الطبيعي أدنى من كل رجل ..! فقد تكون المرأة في مستوى عقلي ، أو في طاقة بدنية أعلى من رجال كثيرين . وأقل من رجال كثيرين كذلك . وأنثى الأسد أرفع درجة من ذكران الخيل والبغال والحمير .!! والبشر في مواهبهم فصائل وسلالات تتسع الفروق بين أفرادها مراحل شاسعة ولكن الأنثى التي تعلو على طوائف من الرجال في ذكائها أو قوتها « يغلب » أن تكون في هذه النواحي أدنى من آيائها أو إخوتها أو أبنائها . فنسرى عليها القاعدة التي تجعل الذكورة متميزة على الأنوثة جثامياً ونفسانياً ...

أما ما ورد في السنة من أن النساء ناقصات عقل ودين فقد فسرتة السنة نفسها بما لا يعدُّ تحقيراً للمرأة أو إسقاطاً لمنزلتها . فإن المرأة تسقط عنها الصلاة أياماً في كل شهر . ولا تصوم هذه الأيام نفسها من رمضان — إذا غشيها الحيض — فهذا النقصان في عبادتها الذي لا يعترى الرجال هو المقصود بنقص الدين !

كذلك تعدل شهادة المرأتين شهادة الرجل الفذ لأن النسيان أسرع إليها منه . فجانبتها العاطفى يستبد بها أكثر مما يؤثر فى الرجال . ونسيان المرأة الكثير سبب مشاكل متجددة فى حياة الأسرة . ففى إذا أصابتها من زوجها إساءة نسيت حسناته الماضية جملة ووجدت ما كان . !! فكان من حق الشرع أن يحتاط فى الشهادة باثنتين « أن تضل أحدهما فتذكر أحدهما الأخرى » وذلك ما عبر عنه بنقصان العقل !!

لقد أخذت المرأة فى هذه الأعصار حريات بعيدة المدى ووجدت من يقول لها : أنت أذكى من الرجل وأقوى إن لم تكونى مثله ذكاء وقوة !! . بيد أن الواقع معنا فيما ذكرنا من أحكام . ولا حيلة فى تغيير الواقع ... على أن الإسلام نظر إلى المرأة ... فإن كانت أمًّا .. فالجنة تحت قدميها ! وإن كانت طفلة فتربيتها وقاية من النار ! . وإن كانت زوجة فكرامة الرجل وخيره فى رعايتها ومحبتها ... فهل فى وصايا الإسلام التى وكدت هذه المعانى ما يعتبر خدشاً لمكانة المرأة فى المجتمع ؟ . كلا ، فلا ينبغي أن تتناول فوقها ، ولا أن تنزل دونها .

وظيفة المرأة الاجتماعية

أحب أن أرحب مؤقثاً الخوض فى هذا الكلام المملول عن الحجاب والاختلاط وما إليهما : ولألفت النظر إلى أركان الدين نفسها ، فإن النساء مكلفات بها كالرجال . وما من شئ يقوم به الإسلام وتعتز به أمته كلف به مسلم إلا كلفت المسلمة بمثله ، غير أمور محصورات استثنيت النساء منها ، ولا تهدم أصل المساواة فى التكاليف الشرعية البتة .

لكن تقاليد الشرق التى حصرت وظيفة المرأة فى المتاع الحيوانى قلما تهتم

بهذه التكاليف ، غلبت المرأة في البيت لا ترى أحداً ولا يراها أحد فريضة ؟
أما الصلاة مثلاً فلا بأس من تركها . وتسعون في المائة من النساء المحجبات
لا يُقمن الصلاة ! . وغير الصلاة من تعاليم الإسلام الأخرى لا يعرف اسمه
فضلاً عن مفهومه ومدلوله ! .

فلما خرجت المرأة من البيت قسراً تكاتف أهل الدين على إدخالها فيه
لنستأنف حياتها الأولى نفسها ، فلما فشلوا تعالى صراخهم بلعنتها ولعنة من
أخرجها . والحقيقة أن دُعاة السفور يقودونها إلى جاهلية حديثة . ودُعاة الحجاب
يردونها إلى جاهلية قديمة . والنزاع بين فريقين أحدهما جاهل بإسلام والآخر
جاحد له ، وانتصار أحدهما لا يفيد الإسلام بل يضره !

تحسسوا الإيمان أولاً

عندما تزوجت فتيات — مسلمات بالوراثة — فتياناً أقباطاً ، أو أمريكاناً
مسيحيين حدثت ضجة كبيرة لهذا التصرف الشاذ واعتبرناه نحن المؤمنين
خروجاً على الإسلام وارتداداً عن الملة ، ووصلت صيحات المستنكرين إلى آذان
أولئك النسوة غريبة نابية ! أجل غريبة نابية لأنهن للأسف كن منطقيات
مع أنفسهن ، فهن لا يعرفن عن الإسلام شيئاً وليس في قلوبهن إيمان به ،
أو إجلال له ، وبنت هذا شأنها مع الدين لا تبالي من تختار بعلاً . فإذا حدث
أن اختارته مسلماً فحضر الصدفة . أما أمر الدين فليس يعنيها أولاً . . .
ولا آخرأ . ما أشبه دين أولئك النسوة ، بما أسماه « ابن عربى » دين الحب
وقال في وصفه :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني !
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة !! فرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح تورا ، ومصحف قرآن ! !
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيماني . !
والمؤسف أن هذا الدين الجديد الذى زينه الشيطان « لابن عربى »
لم يصبح دين أولئك النساء فقط ! بل دين كثير من القادة والزعماء . على
اختلاف الدوافع والمآرب ، وهذه الحال لا تعالج إلا بإعادة الإيمان أولاً إلى
تلك القلوب الخربة . فيا من يعينهم أمر النساء ! املأوا أفئدتهم بالعقيدة
الصحيحة ، ثم عرضوا بعد ذلك ما تطلبون .

وتجد الرجل الغيور (!) يلفتك إلى امرأة دهنت خدودها بالأصباغ
ومشت فى الطريق خليعة متبرجة .

أنا شخصياً ممن يتقززون من هذه المناظر ويخيل إلى أن صاحبها مومياء
مطلية بأصباغ الموت ، وأن أظافرها الحمرة بالدهان القانى إن هى إلا مخالب
حيوان شرس .

ولكن الذى أدركه من أمر هذه المرأة أنسكى من ذلك . إن الإسلام
يكلفها بالصلاة من غبش الفجر إلى العتمة ، ومعنى ذلك فى حياة المرأة المسلمة
أن تفسل وجهها ويديها فى الصباغ والظاهرة والأصيل بضع عشرة مرة كل يوم
أتري امرأة هذا برنامج الإسلام الذى رسمه لها تترك التدلك بالطهور من ماء
السما . إلى شئ آخر ؟ ولكن المغفلين من المتدينين ينقلون المعركة من هذا
الجال الأساسى إلى مجال آخر هو هل يجوز للمرأة التزين أو لا ؟ .

المرأة والمسجد

إن الإسلام وصل ما بين حياة المرأة وحق المسجد بأواصر متينة ، وهذا
الحكم من أحكام الإسلام يضيق به أصحاب الأمزجة المنشأمة والغيرة المفتعلة

حدث هذا قديماً ويحدث اليوم ، حَدَّثَ الزَّوَادُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ :
« قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِذَا اسْتَأْذَنْتَ أَحَدَكُمْ أَمْرَاتِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ
فَلَا يَمْنَعُهَا . فَقَالَ بِلَالُ (وَهُوَ ابْنُ لَعْبِدِ اللَّهِ) وَاللَّهُ لَيَمْنَعُنَّ ! . فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُوهُ
عَبْدُ اللَّهِ فَسَبَّهَ سَبًّا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ . وَقَالَ : أَخْبِرْكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَتَقُولُ :
وَاللَّهُ لَيَمْنَعُنَّ » . وَقِيلَ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ هَجَرَ ابْنَهُ هَذَا إِلَى الْمَمَاتِ غَضَبًا مِنْهُ أَنْ رَدَّ
حُكْمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وكان النساء قديماً يشاركن الرجال في أبواب المسجد حتى أبدى الرسول
صلى الله عليه وسلم رغبته في تخصيص باب لدخولهن ، فعن عبد الله بن عمر
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو تركنا هذا الباب للنساء . قال
نافع : فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم
يسوي الصفوف في المسجد ويرغب الرجال في الصفوف المقدمة والنساء
في الصفوف المؤخرة ، ويزجر أن يتأخر الرجل وتتقدم المرأة ، فيكون من
تقاربهما في المكان ما يعكر صفاء العبادة : « خير صفوف الرجال أولها
وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » .

وكان النساء يخرجن قبل غيرهن من المسجد حتى لا يزحمهن في الطريق
أحد ، وكُنَّ مأمورات في أثناء الصلاة بتأخير الاقتداء قليلا عن الرجال ،
فعن أسماء بنت أبي بكر . قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء :
« من كانت منكناً تؤمن بالله واليوم الآخر فلا ترفع رأسها حتى يرفع الرجال
رؤوسهم » — كراهة أن يرين عورات الرجال — .

هذا ولما كان الإسلام يرى أن عمل المرأة في بيتها كبير المؤونة وطبيعة
حياتها ورسالتها وارتباطها بأولادها وما قد ينشأ عن تكرار خروجها لصلوات
تتكرر خمس مرات في اليوم . كل ذلك قدره الإسلام فلم يؤكد سنة الجماعة

في حقها كالرجال ، بل جعل صلاتها في بيتها أفضل لها مع الاحتفاظ بحقها في التردد كلما شاءت ذلك بين الحين والحين . وكان النساء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلين الجمعة ويسمعن خطبتها ، فعن أم هشام بنت حارثة قالت : « ما أخذت (ق . والقرآن المجيد) — أى ما حفظت السورة — إلا من لسان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بها على المنبر في كل جمعة ، وذلك لكثرة ترددها على المسجد في صلاة الجمعة .

وفي صلاة العيدين كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بحضور النساء مع جماعة المسلمين ليشتركن في الصلاة وسماع الخطبة ، فعن أم عطية أمنا بأن نخرج العواتق ذوات الخدور . فإن كانت المرأة معذورة — حائضاً — اعتزلت المصلى وسمعت الخطبة . وقد حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصلاة والخطبة ذهب إلى صفوف النساء فوعظهن وذكرهن بالله وأمرهن بالصدقة . وكان بلال يجمع ما يتبرعن به .

قال عطاء لجابر بن عبد الله — راوى هذا العمل عن النبي صلى الله عليه وسلم — أترى حقاً على الإمام ذلك ؟ . قال إنه لحق عليهم وما لهم لا يفعلونه ؟ بل لقد أمر النبي أن تستعير المرأة ثوباً تخرج به — إذ لم تكن تملك ثوباً — حتى لا تنقطع صلة المرأة بالجمتمع المسلم في أحفل أيامه ، وفي مجمع من أجل مجامعه . وقد عنوان البخارى لهذا الموضوع بقوله : إذا لم يكن لها جلباب في العيد ، عن حفصة بنت سيرين كنا نمنع جوارينا أن يخرجن يوم العيد فجاءت امرأة فبزلت قصر بني خلف فأتيتها فحدثتني أن زوج أختها غزا مع النبي اثنى عشرة غزوة فكانت أختها معه في ست غزوات ! قالت : فكنا نقوم على المرضى ونداوى الجرحى . فقالت : يا رسول الله : هل على إحدانا من بأس إذا لم يكن

لها جلباب ألا تخرج — إلى العيد — فقال لتلبسها صاحبته من جلبابها فليشهدن الخير ودعوة المؤمنين .

قالت حفصة : فلما قدمت أم عطية أتيتها فسالته . قلت : أسمعت في كذا وكذا ؟ قالت . نعم بأبي ! قال النبي : ليخرج العواتق وذوات الخدور وليعتزل الحيض المصلى وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين . ولما كان التكبير من شعائر العيد فقد كانت أصوات الرجال ترتفع بالتكبير ثم يحاولونها تكبير السيدات وظل الأمر كذلك حتى خلافة عمر بن عبد العزيز .

ولا شك أن خروج النساء كان يخرج بعض ذوى الفيرة وقد حاول عمر ابن الخطاب الاعتراض عليه فلمح سودة أم المؤمنين سائرة فصاح بها . قد عرفناك يا سودة فشكت ذلك سودة إلى رسول الله فقال الرسول : (إن الله قد أذن لكن أن تخرجن في حوائجكن) أما ما روى عن عائشة (لو علم النبي ما أحدث النساء بعده لما أذن لهن في الخروج) فهذا كلام لا يلتفت إليه . والسيدة عائشة على جلالة قدرها ليست مصدر التشريع في الإسلام فرد ذلك إلى الله ورسوله . والمعروف أن للسيدة عائشة اجتهدات سياسية وآراء علمية لم يوافقها عليها جمهور الأمة . ثم إن الله عز وجل لما شرع لعباده كان أعرف بأعمالهم وأحوالهم في كل زمان ومكان . فلا يترك حكمه لقول بشر مهما كان .

بحث فقهي

قرأت في مجلة تصدرها جماعة دينية أن وجه المرأة عورة ، وإن كشفه حرام ، والرضا بذلك فسوق . فهل إذا خرجت إحدانا إلى المسجد للصلاة أو لسماع درس ، وهي كاملة الثياب مغطاة البدن ، ما عدا الوجه ، ومضت

إلى غايتها محتشمة في غير تبرج يعتبر ذلك حراماً وفسوقاً ، ويعد سفوراً محرماً
« سيدة مسامة »

روى الشافعي عن أبي يوسف قال « أدركت مشايخنا من أهل العلم
يكرهون في الفتيا أن يقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، إلا ما كان في كتاب
الله تعالى بينا بلا تفسير . ونقل ابن مفلح عن شيخ الإسلام ابن تيمية :
« إن السلف لم يطلقوا الحرام إلا على ما علم تحريمه قطعاً » .

ومن ثم فالجراة على رمي الناس بالمعصية لأموار تختلف فيها الأنظار شيمة
من لا قدم لهم في الفقه . ومن هذا القبيل تحريم كشف الوجه — على
المرأة — واعتبار ذلك فسوقاً ، هذا جهل ، فإن كشف الوجه في حدود
الملابس التي ذكرتها السيدة المسامة في سؤالها ، لم ير فيه حرجاً ولا منه بأساً
كثير جداً من فقهاء الإسلام ، قال ابن حزم :

وأما المرأة فإن الله تعالى يقول : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ،
وليضربن بخمرهن على جيوبهن — صدورهن — ولا يبدين زينتهن
إلا لبعولتهن » .

وهذا نص على ستر العورة والعنق والصدر وفيه نص على إباحة كشف
الوجه ولا يمكن غير ذلك أصلاً . وقوله تعالى : « ولا يضر بن بأرجلهن ليعلم
ما يخفين من زينتهن » . نص على أن الرجلين والساقين مما يخفى ولا يحل
إبدائه . حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بسنده عن ابن عباس يذكر
« أنه شهد العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه عليه السلام خطب
بعد أن صلى ، ثم أتى النساء فوعظهن وذكرهن وأمرهن أن يتصدقن ، فرأيتهن
يهوين بأيديهن يقذفنه في ثوب بلال — أي المال — » فهذا ابن عباس

بحضرة رسول الله رأى أيديهن ، فصيح أن اليد من المرأة والوجه ليساً عورة وما عداها ففرض عليها ستره .

وعن سليمان بن يسار أن ابن عباس أخبره أن امرأة من خثعم استفتت رسول الله في حجة الوداع والفضل بن العباس رديف رسول الله . ثم ذكر الحديث وفيه « فأخذ الفضل يلتفت إليها وكانت امرأة حسناء ، وأخذ رسول الله يحول وجه الفضل من الشق الآخر » .

فلو كان الوجه عورة يلزم ستره لما أقرها عليه السلام على كشفه بحضرة الناس ، ولأمرها أن تسبل عليه من فوق . ولو كان ووجهها مغطى ما عرف ابن عباس أحسناء هي أم شوهاء فصيح ما قلناه يقينا والحمد لله كثيراً »
هذا كلام ابن حزم وهو رأى الأحناف والمالكية وغيرهم .

وروى أحمد بن حنبل عن عائشة أن الحبشة كانوا يلعبون عند رسول الله في يوم عيد قالت : « فاطلعت من فوق عاتقه فغطاً لى منكبيه ، فجعلت أنظر إليهم من فوق عاتقه حتى شبت ثم انصرفت » وبهذا الحديث وأمثاله مما حفلت به كتب السنة احتجاج من رأى جواز نظر النساء إلى ما ليس عورة من الرجال — مع الغض والأدب — وذهب النووي وهو من فقهاء الشافعية المنتسدين ، إلى أنه لا يجوز أن يرى رجل امرأة ما ولا أن ترى امرأة رجلاً ما وأول حديث عائشة بأنها كانت صغيرة السن لما تبلغ بعد . ولكن الحافظ ابن حجر تعقب النووي ، فذكر أن قدوم وفد الحبشة كان سنة ٧ للهجرة بعد بعد بناء الرسول بها بأمد طويل ، فكيف يقال إنها صغيرة السن مع أن عمرها نحو ستة عشر عاماً ، وقد زعم كاتب معاصر أن وفد الحبشة كانوا غلماناً (!) وهذا كلام لا يلتفت إليه !

وحجة النووي ماروى عن أم سلمة وميمونة أن رسول الله أمرها بالاحتجاب

عن عبد الله بن أم مكتوم . فقال له : أليس أعمى لا يبصرنا ؟ قال : أفعميا وان
أتما ألسنا تبصرانه ؟ ؟

وهذا الحديث قد أجيب عنه بوجوه منها . أن في سنده مقالا وقد لا يضر
ولكن درجته — لأنه من رواية أصحاب السنن — لا تجعله في صف الأحاديث
التي تفيد جواز الرؤية ، وهي بأسانيد من رواية البخارى ومسلم فتقبل دونه
وقد اتفق المحدثون على صحة حديث فاطمة بنت قيس ، التي أمرها الرسول
بأن تقضى عدتها في بيت ابن أم مكتوم وقال لها : إنه رجل أعمى ! تضعين
ثيابك عنده ! وهو حديث أقوى بمراحل من حديث أم سلمة وميمونة السابق
وقال ابن حجر في فتح البارى أن الأمر بالاحتجاب من ابن أم مكتوم
لعله لكون الأعمى مظنة أن يكشف منه شيء ولا يشعر به !!

وقد جمع أبو داود بين ما روى في الصحيح وغيره فجعل حديث أم سلمة
مختصا بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وحديث فاطمة بنت قيس وما في معناه
لجميع النساء . . قال الحافظ في التلخيص : قلت وهذا جمع حسن ، وبه جمع
الحافظ المنذرى في حواشيه ، واستحسنه شيخنا . ا . ه .

والواقع أن تخصيص الحجاب المطلق بنساء الرسول كما فعل أبو داود
تصرف حسن في الآثار الواردة . وهو أقرب إلى قوله تعالى لهن : « لستن
كأحد من النساء إن اتقيتن » وإلى أن رأى منعقد على عدم منع النساء من
الصلاة في المساجد . قال ابن حزم : « ولا يحل لولى المرأة ولا لسيد الأمة
منعهما من حضور الصلاة في جماعة في المسجد إذا عرف أنهن يردن الصلاة .
ولا يحل لهن أن يخرجن متطيبات ولا في ثياب حسان ، فإن فعلت فليمنعها ،
وصلاتهن في الجماعة أفضل من صلاتهن منفردات » . كذلك يقول ابن حزم
وهو يخالف بذلك من يرى أن صلاتهن في بيوتهن أفضل ، وبعد أن ساق

دلائل كثيرة على هذا الحكم قال : « لو كانت صلاتهن في بيوتهن أفضل ، لما تركهن رسول الله يتعنين بتعب لا يجدى عليهن زيادة فضل ، أو يحطهن من الفضل ، وهذا ليس نصحا وهو القائل : « الدين النصيحة » ، ولو كان ذلك لما افترض ألا يمنع ولما أمرهن بالخروج تغلات — غير متزيفات — وأقل هذا أن يكون أمر ندب وحض . ثم قال ابن حزم مفنداً رأى من يقول بأن صلاتهن في بيوتهن أفضل : « وشغب من خالف ذلك بما روى عن أم حميد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : إن صلاتك في بيتك أفضل من صلاتك معي » . قال : هذا حديث عن مجهول لا يدري من هو ؟ ولا يجوز أن نترك رواية الثقات المتواترة لرواية مجهول ، وعلى فرض صحة الآثار بأن صلاة البيت أفضل فهي معارضة لأمره عليه السلام بخروجهن حتى ذوات الخدور والحيض إلى مشاهدة صلاة العيد ، وأمر من لا جلباب لها أن تستعير من غيرها جلبابا لذلك . . وقد اتفق جميع أهل الأرض على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمنع النساء قط الصلاة معه في مسجده إلى أن مات ، ولا الخلفاء الراشدون بعده فصح أنه عمل غير منسوخ !

وعن الزهري أن عائكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل كانت تحت عمر ابن الخطاب ، وكانت تشهد الصلاة في المسجد . وكان عمر يقول لها : والله إنك لتعلمين إنى ما أحب هذا . فقالت والله لا أنتهى حتى تنهانى . قال عمر : فإنى لا أنتهاك . فلقد طعن عمر يوم طعن وأنها فى المسجد .

ومن طريق عبد الرازق أن على بن أبى طالب كان يأمر الناس بالقيام لرمضان فيجعل للرجال إماما وللنساء إماما .

اتهى كلام ابن حزم ملخصا عن المحلى ، وهذا المذهب خلاف ما يراه

الأحناف والمالكية إذ صلاة البيت عندهم أفضل لمن . وهذا خلاف علمي يسير .

والذي نحرص على تبيانه أنه لا بد للنساء — إذا خرجن — من ثياب سابعة وافرة لانصف ولا تشف ، وأن إنكشاف وجوههن لا إثم فيه مادامت خالية من الأصباغ والعطور ، وإن فقهاء المسلمين لم يقولوا بأن الوجه عورة حتى من أفتى منهم بضرب النقاب . . وإنما جئنا إلى ذلك سدا للذريعة وخوفا من الفتنة ، ونحن حريصون على إبعاد الفتن عن طريق الناس بأصح الأساليب وأنجعها لا بالإحراج والتضييق ، وقد رأينا مجتمعات محجبة يسودها الانحلال والفوضى ، ورأينا قرى تعج بالفلاحات السافرات لاريبة فيها ، على أن حديث أسماء بنت أبي بكر: « إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يحل أن يرى منها إلا الوجه والكفان » حديث صريح الدلالة ، وهو من الناحية الفنية يساوى حديث الحجاب إذ كلاهما من رواية أصحاب السنن ، ولكن حديث أسماء موافق للآية ولروايات البخاري ومسلم بعكس حديث التحجب .

وقد شرح حديث أسماء كاتب معاصر فزعم أنه خاص بالبيت وهذا خلط فالمرأة في بيتها تكشف ما تشاء من بدننها غير الوجه وهذا مالا خلاف فيه . ونحن ننصح أعضاء الجماعات الإسلامية أن يتعلموا الإسلام قبل أن يدعوا إليه فإن الإخلاص مع الجهل قد ينتهي بشر المأسى .

المرأة والآداب العامة

لعل أول ما يثب إلى الذهن بعد ما فهمنا أن الإسلام لا يحكم على المرأة بالسجن المؤبد . هو : كيف تخرج المرأة وماذا يكون لباسها الذي يراها الناس به ؟ وهل فساد المجتمع اليوم يبقى هذا الحق أم يقف تنفيذه ؟

وستنسط الإجابة في هذا الموضوع متوخين التمشي مع النصوص المجردة إن جماع الشهوات بلغ في العصور الحديثة أقصى حده . وقد طوعت الشهوات المتبعة للناس أن ينتهكوا كل مستور وأن يرتكبوا كل محذور وأصبحت أفواه السكك وأسافها معارض للأعراض المرتخصة والعورات المتكشفة ، وما أحسب المرأة كانت ترتدى في قعر بيتها قديماً — حيث لا يراها أحد — هذه الثياب الفاضحة التي مالبت إلا لتفتن النظارة وتثير الأهواء وتحرك القلوب .

إن ملابس الفضيلة معروفة تهدي إليها الفطرة . ويعرف الناس سمات مرتديتها وحالتها ومنزلتها ، وقد رفض الإسلام تعرية الأذرعة والسيقان والصدر كما رفض ترقيق الثياب بحيث تصف ما تحتها .

دخلت أسماء بنت أبي بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها — مستنكراً — وقال :

(يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه) .

وقد نص القرآن على وجوب تغطية الرأس والصدر وستر الزينة الداخلية وإرخاء الجلايب حتى تصل إلى الأرض — كما في بعض الآثار — والواقع أن ملابس الراهبات المسيحيات أدنى ما تكون إلى آداب الإسلام وكذا ملابس بعض الريفيات من سكان المنوفية والشرقية وغيرها .

وللمرأة ما دامت بريئة الغرض أن تنظر إلى الناس في حدود الفضيلة فقد كان النبي يرى زوجته عائشة رجال الحبشة وهم يقومون باستعراض عسكري في المسجد . على أن الرجال والنساء جميعاً مكلفون بغض البصر وكسر النظر

وملازمة الجدة ، وتركية القلب ، والبعد عن دواعي الفتنة . والنساء خاصة مكلفات بالبعد عن ليونة القول وطراوة الحديث « فلا تَخْضَعْنَ بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض » .

وبيت المرأة حصنها الذى لا يجوز أن يقتحمه أحد عليها ، ولا يصح بقائاً أن تخلو بأجنبيّ فيه أو فى غيره : « حَقِّمَ عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذنّ فى بيوتكم لمن تكرهون » . . « ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذى محرم » .

وقد كره النبىّ صلى الله عليه وسلم لبعض نسائه أن يرين ابن أم مكتوم وهو فى بيته ، لأنه كان مكفوفاً لا يحسن تعهد ثيابه ، وربما انكشف من بدنه شيء . وإلا فإن عائشة — كما أسلفنا — كانت ترى لاعبي الحيشة فى المسجد من بيتهما ولا ينبغى للمرأة إذا خرجت أن تتبجح فى الطريق أو تحدث مظاهره حولها ! عن أبى أسيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق : « اسْتَأْخِرْنَ فليسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطريقَ ، عليكنَّ بحافات الطريق » ، فكانت المرأة تلتصق بالجدار — مخافة أن تراحم أحداً — حتى أن ثوبها ليعلق بالجدار من لصوقها به !

وخروج النساء للمسجد ، أو للمدرسة ، أو لأى غرض مشروع ؛ مادام فى أزياء العفة السابغة الوافرة ليس موضع خلاف بين الفقهاء المعبرين . ولا يوجد نص صريح فى تغطية الوجه ، بل المروى يفيد الكشف . كما ذكرنا وقد توسّع بعض الفقهاء فأفتى بستره منعاً للفتنة . ونحن لا نرى هذا النقاب وسيلة اتقانها مهما تعلق به المتزمتون بل إن المسلمين لجأوا إليه فى عصور العجز . وتدريب الرجال والنساء على الفضائل يحتاج تربية على نطاق أتم وأشمل .

وعلى تقاليد تعتمد على النصوص أكثر من اعتمادها على المتشابه والمختلف فيه .
والإسلام يقرن جريمة الزنا بالشرك ويعدها من أغلظ الآثام ويعلق
الأبواب المفضية إليها بعنف . وكما ينظف المجتمع من مظاهر الوثنية ينظفه من
مظاهر الخلاعة فهو يحمي تقاليد الشرف كما يحمي عقيدة التوحيد . على عكس
حضارة الغرب فإن بناءها قائم على الكفر والفسوق وقد سلطت اللذة البهيمية
تشرّح بدن المرأة تشريحاً منكراً وتفتن في الإغراء بها وسلخها من ثيابها
وآدابها . وحشرت المرأة في أعمال مختلفة لتيسّر السطو عليها واعتبرت المخادنة
تصرفاً عادياً والمرافقة فعلاً مشروعاً وارتداء المرأة في أحضان أجنبي عنها شيئاً
لا غبار عليه بل إنها تلام إن نكصت عنه .

والإسلام يرى هذه الحيوانية الجائحة أخت الشرك بالله ويعان عليها حرباً
لا هوادة فيها . ويجب أن تقتل بذورها في مجتمعاتنا بكل ما نملك من قوة وأن
نسعى لإقامة تعاليم الإسلام بدلها .

والمسلم في هذه الأيام مطالب بمزيد من التصوّن والحذر . وقد أوردنا
نصوصاً كثيرة توضح ناحية من علاقة المرأة بالمجتمع . لكن أحكام هذه
العلاقة جزء من أحكام الشريعة العامة وهي معطلة في البلاد ومن الصعب
تنفيذ بعض الدين في غيبة الجزء الأكبر الذي يحميه .

إن عيون الشبان المتسكعين تمتد جائعة ولا تجد من يقمعها . وأن السنة
السفهاء تطول كثيراً ولا تجد من يردعها . والكبراء الذين يحتكم الشعب إليهم
هم من عبدة أوربا صنعتهم بيدها أقبح صناعة ثم رمتنا بهم ليفسدوا علينا
ديننا ودينانا .

وخروج المرأة — على النحو الذي أباح الإسلام — يتطلب حراسة

ومشقة . إلا أن يتغير الوضع كله وتعود لأحكام الدين مكانتها فينبى الخشون
ويجلد المتطاولون ويحتقر المهازون المازون .

المرأة والقضاء

طلب فريق من النسوة أن يتولين مناصب القضاء وأن يستمتعن بالحقوق
المحولة للرجال في شغل هذه الوظائف وغيرها من الأعمال العامة . وأقم الإسلام
في المناقشات التي دارت حول هذه الرغبة النسوية ، فمن قائل بأن الإسلام
يبيح للمرأة هذا الحق ، ومن قائل بأن الإسلام يرفضه رفضاً حاسماً . !

ونحن نضحك من إقحام الإسلام في هذه الموضوعات لأنها خارجة
عن دائرة اختصاصه . بل لأن الإسلام أفتى بتحريم الربا والزنى ، ومع ذلك
تجهلت فتواه ! وحث على الصلوات والفضائل ، فجاء قوم أضاعوا الصلاة
واتبعوا الشهوات يسألونه عن حكمه في أمور أخرى ؟؟ كأنهم حريصون على
أداء رسالته وإنفاذ شريعته .. !!

أما موقف الإسلام من تولى المرأة القضاء ومن توليها المناصب
العامة فمعروف :

١ — إن الإسلام في القضايا المدنية اعتبر شهادة المرأة نصف شهادة رجل
ورفض قبول شهادتها منفردة ورفض قبول شهادتها في قضايا الحدود وأشباهها
مطلقاً فكيف يقبل قضاؤها فيما ترفض فيه شهادتها .

٢ — والقضاء منصب له جلاله ، وللقاضى على الناس ولاية عامة وسلطان
واسع ، فإذا كان الإسلام يجعل الرجل قواماً على المرأة في البيت — وهو المجتمع
الصغير — فكيف يجعل المرأة قواماً على الرجال في المجتمع الكبير ؟

٣ — لا شك أن للمرأة حقها كاملاً غير منقوص في تدبير شأنها وإنفاق

مالها واختيار رجالها . وحريةها في أحوالها الخاصة كحرية الرجل ، بيد أن القضايا المتصلة بكيان الأم ومصالح الجماهير لها وضع آخر ينزل استعداد المرأة دونه ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم امرأة « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » .

٤ - ستظل المرأة هي اليد اليسرى للإنسانية . وسيظل عملها في البيت أكثر من عملها في الشارع . وسيظل الرجال حمالي الأعباء الثقيل في الشئون الخاصة والعامة لأن طاقة كل من الجنسين هكذا ... !

ولأمر ما لم يرسل الله نبيه من النساء ولم يحك التاريخ لإشواذ من الجنس الناعم قن بأعمال ضخمة على حين شحنت صفحاته بأسماء الرجال .

وإذا كانت المرأة لم تختر رسولا فقد استطاعت أن تكون زوجة عظيمة لرسول وأن تعينه إعانة رائعة على تبليغ الوحي وجهود الناس . فلماذا لا تكرس المرأة جهودها وتسخر مواهبها لتجعل من نفسها ظهير الرجل وعونه . وأن تقف في الصف الثاني بدلا من مزاحمة الرجال في الصف الأول ؟

إننا نأسف إذا كانت المرأة ستفهم من هذا الكلام أنها في نظر الإسلام مهانة ، أو أنها محرومة عنده من وضع تستحقه ... هذا غلط ! فالنساء شقائق الرجال ، ولهن من الحرمة والمكانة والحقوق الفطرية ما يكفل لهن السعادة والاستقرار وتكليف الإسلام أن يعينهن قاضيات أو وزيرات ظلم للطبيعة وافتيات على المصلحة . وقد قرأنا لأستاذة محامية جربت الأعمال العامة ، وأدركت ما سوف تعانیه لو أسندت لها أعمال النيابة والقضاء فكتبت تنصح بنات جنسها معلنة لهن هذا الرأي الحكيم .

قالت الأستاذة « عزيزة عباس عصفور » الحامية :

لو كانت الخطوة التي خطاها معالي وزير العدل بتعيين الحقوقيات في نيابات الأحداث كسباً للمرأة ، لكنت أول من تدعو الله أن يبارك للمرأة فيها أما وإنني ممن خرجتهن كلية الحقوق في الأفواج الأولى ، وزاولت المحاماة أكثر من عشر سنين ، ونجحت فيها نجاحاً أحمد الله عليه ، وبلوت فيها حلاوتها ومرارتها معاً . فإنني أعلن في صراحة أن النيابة والمحاماة معاً تتنافيان مع طبيعة المرأة ، وتتعارضان مع مصلحتها ! . وأعلن إشفاقي على البقية الباقية من فتياتنا المثقفات اللاتي مازالن بخير ، أن تجربن هذه التجربة المريعة المضنية وأهيب بهن أن ينجون بأنفسهن من عاقبة لا يدركن مرارتها إلا بعد أن يقعن فيها ، ويهدمن بأيديهن صرح سعادتهن !

لقد تحطمت أعصابنا - نحن المحاميات - من إرهاق المهنة وعنتها ، ومن محاربتنا للطبيعة ، وتنكبنا طريق الواقع ! . فما ظننا بالناثبات ؟ !

إن المحامية تتحكم في وقتها وظروفها ، وتسيطر بحرية تامة على عملها ، فهي حرة في أن تقبل من القضايا ما تشاء ، وترفض منها ما لا تشاء !

أما النائبة فلا إرادة لها ولا سلطان في اختيار الزمان والمكان والعمل ! بالله ماذا تكون العاقبة إذا خضعت النائبة لطبيعتها واستجابت لحقها في الحياة ، فنزوجت ورزقت أطفالاً ، واقتلعتها من بينهم طبيعة التحقيقات والانتقالات والمعاینات ، وتركت زوجها قعيد الدار ، يربي الأولاد « ويرضع » الصغار ؟ ! وهي في الخارج تدور في كل مكان ، كأنها رجل الشارع الذي يهجر بيته أثناء الليل وأطراف النهار ؟

تري هل ظننت زميلاتنا الحقوقيات السكريمات أن العمل في نيابة الأحداث تدليل ومداعبة و « طبطبة » ؟ . إنها كسكل النيابات تحقق من الجرائم التي تقع بين الأحداث الخطير مع الهين ومنها ما يمس العرض ، ومنها

ما يتنافى مع الأدب ، وهنا لابد للنائبة من التخرج حياء وخفراً ، والإحجام عن استجواب المتهمين وسؤال الشهود من الرجال أمام كتبة التحقيق وأمام رجال الأمن والحاميين الذين يحضرون التحقيق .

وسلامة التحقيقات لا تعرف الخفر ولا الحياء !

ترى أتتولى التحقيق من وراء الستار ، أم تعتذر عنه ، وتنيب « النائبة » نائباً عنها يتولاه ، أم تتغافل عن الأسئلة المخرجة ، فيسكون العجز ، والنقص ، وضياح العدالة ؟ ! أم تراها تخرج عن طبيعتها فتلقى نقاب الحياء والأدب والأخلاق عن وجهها ولسانها وكرامتها وسمعتها جميعاً ؟ !

إننا — نحن المحاميات — لا نقبل مثل هذه القضايا ، ونأبى المرافعة فيها هرباً من الحرج ، وصوناً لطبيعتنا الخفيرة .

وماذا تصنع النائبة إذا عينت في بلاد نائية عن أهلها وليس بها للسكنى غير استراحات الموظفين ، هلى تبئت ليلتها مع زملائها من الرجال ، أم تطالب بالبقاء في المدن العاصرة . فتعتمد المساواة التي تنشدتها المرأة ؟ !

إن الدين والأخلاق والعرف الحميد تحتم أن تemiş المرأة بعيدة عن مواطن الفتنة والإغراء والزلل ، واختلاطها على هذه الصورة يعرضها لخطر محقق وحذر مؤكد ، ويضع سيرتها في ألسن الناس تلو كها بالمذمة والمسبة والعار !

إن المحاميات من لم يسمن من الطعن ، حتى من زملائهن المحاميين أنفسهم قالنا جحة استغلت أنوثتها ونعومتها ، والخصم الذي يوكل محامية يفاخر خصمه بأنه لى يذله جابهه في المعركة بامرأة لا برجل .

وأريد أن أسأل : كم عدد الحقوقيات اللاتى تخرجن ؟ وكم منهن اشتغلت بالمحاماة ؟ ومن منهن أثبتت وجودها محامية ناجحة ؟ فقمنا نسن تشريعاً جديداً من أجلهن ، لينزلن إلى الحياة الصاخبة النائرة التي يحياها زملاؤنا وكلاء النيابة

ومعالى الوزير يعلم مدى ما يلاقونه من إرهاب وعنت ، فقد كان محامياً يرى متاعبهم بعينه ويلمسها بيده ! وهو يعلم أنها عاطفة مندفعة بغير عقل تلك التي حدث بالزميلات إلى المطالبة بوظائف النيابات ، التي ستؤدي بمستقبل الحقوقيات كأمهات وزوجات وربات بيوت وآسات محصنات ، لا تريد لهن غير ذلك ، ولا تريد منهن الطبيعة نفسها أن يكن نائبات ولا سفيرات !

إن رسالة المرأة في الحياة لها جلالها وقديسيها ، التي لاتعادلها حقوق تمنحها ولا امتيازات تعطاها ، وإن كثرت !

إن رسالتها أن تكون زوجة صالحة ، وأما رؤوماً يقتربى في أحضانها وبين ذراعيها مستقبل الوطن العزيز !

ولقروية ساذجة في حجرها طفل أفضل للأمة وأنفع للبلاد من ألف نائبة وألف محامية .

إن أثر المرأة في الحياة لو هي استقرت في بيتها ، واستوت على عرشها ، أبلغ وأعظم من أثر الرجل نفسه . لأنها هي التي تقدم للإنسانية إنسانها الحي تقدمه من كيانها : دماً وعظماً ولحماً ... هذا العالم الإنساني ثمرة من ثمارها ، وحياته من حياتها !

وأنتن أيتها الزميلات النائبات ، همستى إليكن : « إن إعجاب الرجل بقدرة المرأة الماهرة لن يعادل حبه وتقديسه للزوجة الكاملة لأنها هي الكائن العظيم الذي يستروح في ظلاله النعيم . وغرض الطبيعة منكن ، وحكمة الله فيكن ، أن تكن أمهات ، لائبات ، ولا محاميات ! » .

وصدق جون سيمون في قوله : « إن الحياة هينة ، وطيبة ، إذا علم كل من الرجل والمرأة المحل الذي خصصه الله لكل منهما » .

المرأة والعلم

القصد الأول من التنقيف الصحيح هو تفتيق الذهن وتفيمة المواهب وتصحيح فكرة الإنسان عن الكون والحياة وتعهد سلوكه بما يلائم الحق والواجب . .

والمرأة والرجل سواء في ضرورة الحصول على أقطاب كبيرة من هذه الثقافات النافعة ؛ فإن الأمية العقلية والاجتماعية والسياسية خطر كبير على كيان أي من الجنسين .

والعلم ليس زينة قد يعطل الإنسان عنها فلا يضيره شيء . كلا . فإن التجرد من العلوم والمعارف منزلة إلى الدرك الأسفل لارضائها لأحد بله أن نلزمه بها . ولذلك نحن نفتتح آفاق التعليم أمام المرأة ونغريها بالمزيد منه لو حاولت الاكتفاء . مثلها في ذلك مثل الرجل .

والملاحظ الآن أن مستوى المرأة الأدبي والعلمي أقل من مستوى الرجل وفي كثير من البلاد الشرقية يحرصون على تجهيل المرأة وإسقاط كيانها الروحي والعقلي وهذا أمر منكر . فإن الذي يلحظ المجتمع الإسلامي الأول لا يرى فارقاً بين فقه الرجل وفقه المرأة في الدين ولا تفاوتاً بين إدراكهما للأمور العامة — وهذا ناشئ عن أصل المساواة في التكاليف الشرعية بين الجنسين — أما اليوم فقد كان الشبان يطلبون لفلسطين ، فتتساءل الأم أو الأخت أو الزوجة : ما فلسطين هذه ؟ وأين تقع من دنيا الناس وماصلتنا بها ؟؟ يحدث هذا من نسائنا في الوقت الذي يواجه رجالنا في الميدان فتيات «إسرائيل» وهن يقاتلن كأشجع الأبطال .

إن المرأة الجاهلة أعجز من أن تدرى شيئاً عن القضايا العامة أو الخاصة .

بل هي أعجز من أن تشرف إشرفاً منتجعاً على تربية أولادها ، وكذلك الرجل الجاهل طبعاً ، والتعليم في أوسع دائرة ممكنة هو علاج هذا التأخر والانحطاط

مما يدعو إلى الغرابة أن نخصص مدارس ابتدائية وثانوية للبنات ثم نخلط بين الجنسين في التعليم العالي !! لماذا لا نخصص كليات أو جامعات بأسرها للفتيات ؟ فنستجيب لمنطق الفضيلة والدين ، أما أمر البرامج فلنخضعه للمصلحة العامة كما نخضعه لمساكنات الأفراد واستعدادهم الخاص ، فما يصلح له الرجال وحدهم لا معنى لإقحام النساء فيه . وليس السبب في ذلك الافتيات على حق المرأة في العلم . فإننا نرفض قبول كثير من الطلاب في الكليات الحربية والبوليسية مثلاً لعدم توافر شروط معينة فيهم فإذا رُدَّت النساء عن بعض الكليات فلأن استعدادهن لا يؤهلن لها لحسب .

ثم إننا لا نريد البتة أن نعلم المرأة لشغلها كاتبة في مصلحة . أو رئيسة لقسم أو وزيرة في حكومة . إننا نريد لها العلم لذاته أولاً . ثم نريد لها بعد أن تخدم في الميدان الرحيب الهائل الذي تأخر الشرق قروناً إلى الوراء بسبب قلة العاملين به وهو ميدان التربية والتعليم . ميدان الأسرة المتداعية والروابط المنهارة . وقد تكون للمرأة أعمال أخرى رسمية وشعبية تخدم بها دينها وتنفع بها قومها وتساهم بها مع الرجال في أداء الرسالة العظيمة التي كلفوا بها .. لا عليها أن تلتفت لذلك إذا شاءت والإسلام ظهير الصالحات المصلحات في كل عصر ومصر . وكل ما نريد التنبيه إلى جلاله وخطره أن وظيفة المرأة في بناء الأسرة وبالتالي في بناء الأمة تحتاج إلى جهد يتصل فيه عمل الليل والنهار . والمؤلفات العلمية في ذلك تستغرق في دراستها سنين فكيف بتطبيقها ؟؟

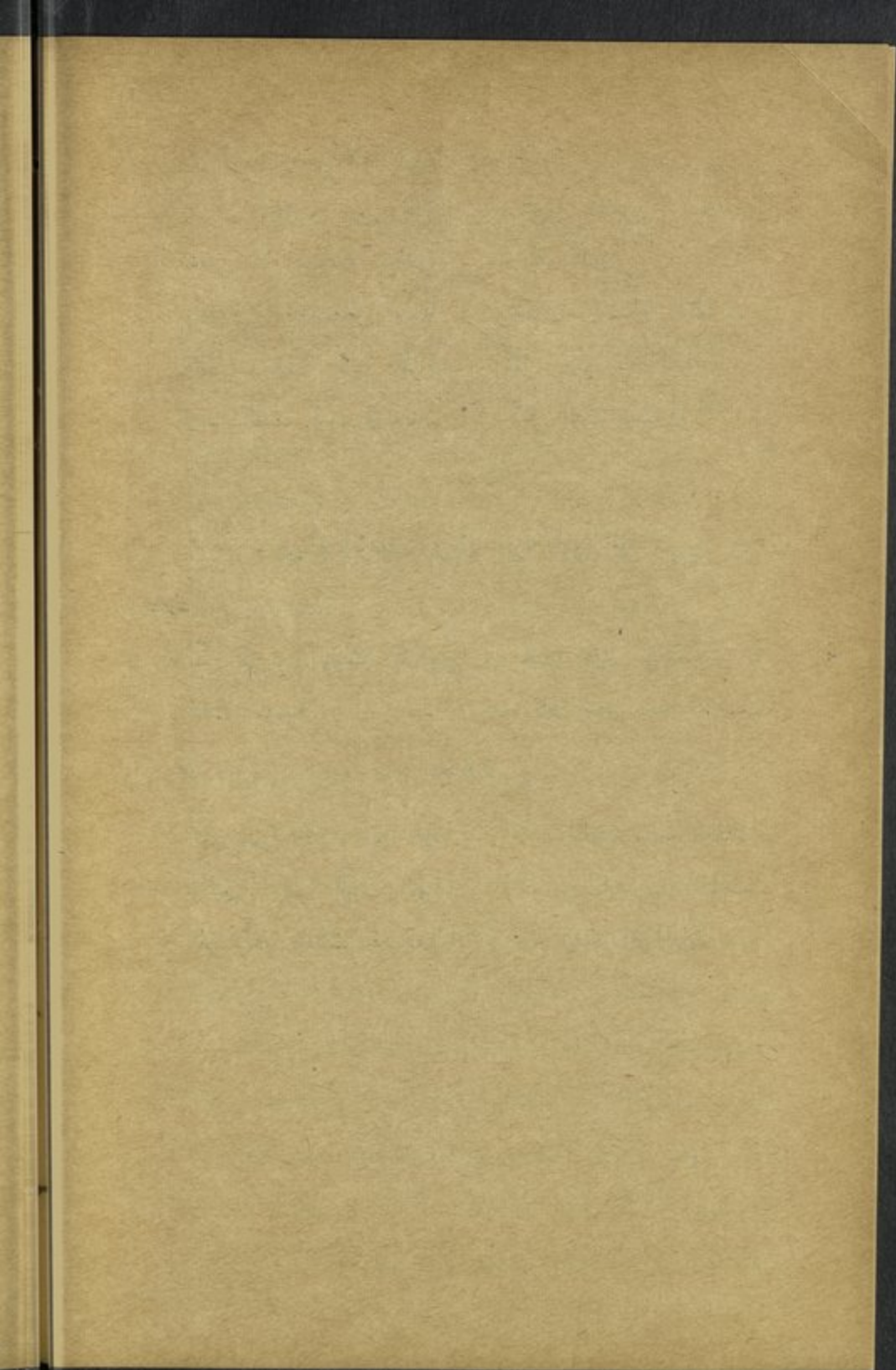
قال الرصافي يوصي الأمة بضرورة تربية النساء :

ولم أر للخلاق من محلّ يهذبها كحُضْن الأمّهات
 كحُضْن الأم مدرسة تسامت بتربية البنين أو البنات
 وأخلاق الوليد تقاسُ حُسناً بأخلاق النساء والودات
 وليس ربيب عالية المزايا كمثل ربيب سافلة الصفات..
 وليس النبت ينبت في جنان كمثل النبت ينبت في الفلاة

ثم هو يناجي أم المؤمنين ، ويثبها حزنه لجهل المؤمنات من بعدها ،
 فيقول : —

أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ نَشْكُو مصيبتنا بجهل المؤمنات ...
 فتلك مصيبة يا أُمُّ مِنْهَا نَكَادُ نَفْصَ بِأَمَاءِ الْفِرَاتِ

رى جهل الفتاة لها عفافاً كأن الجهل حصن للفتاة
 ونلزمهنَّ قعر البيت قهراً ونحسبن فيه من الهنات
 لئن وأدوا البنات فقد قبرنا جميع نسانا قبل المات ...



الاسلام والاشتراكية

« إن الأشعرين إذا أُرْمُوا في الغزو أو قُلَّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في نوب واحد . . .
ثم اقتسموه بينهم . . . بإناء واحد . . . بالسوية . . .
فهم مني وأنا منهم . . . » .

(حديث شريف)

أَنْصَفَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى فَالْكَلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ مَوَافَقُ
(شوقي)

اشترائية الصدقات !!

يقول الأستاذ خالد : الصدقة في نظر الكهانة نظام اقتصادي واف
وسيلة ناجحة لمحاربة الفقر وإسعاد الشعوب . وإنك لتسمع وترى
الدعوة إلى الصدقة والإحسان حتى لتكاد تشك هل أنت في مجتمع أم في
ملجأ . وإنني لأصفق بقلتي يدي لهذا الكشف الرائع الذي كشفه (ويلز)
في طبيعة الكهانة حين قال :

... ولماذا نجرى مع الأستاذ خالد في نقل الكلام عن (ويلز) ؟ .
لا ضرورة لذلك ، ولننقل بدلاً عنه كلاماً في علاقة الصدقة بالاشترائية كما يقررها
الإسلام ، وخطأ فريق من الناس — أو من الكهان — في فهم هذه العلاقة
نقله عن كتابنا : « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » .

كثير من العلماء إذا ذكر عناية الإسلام بالفقراء وحده على الطبقات
البائسة ، لم يجد ما يستشهد به على ذلك إلا الزكاة . تلك الصدقة التي فرضها
الله في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يتسع لحاجات المنكوبين ويفرج به ضيق
المكروبين ، وهذا تفكير محدود واستدلال ناقص ، ذلك أن الزكاة لا تعدو
أن تكون ضريبة إحسان . ومصارف الزكاة التي بينها الشارع تشير إلى هذا .

ومكان الإحسان المالي في بناء أي مجتمع ليس مكان القواعد والأوتاد .
ومن العبث أن تربط حياة قسم كبير من الأمة بالفضلات التي تلقى
إليه من القسم الآخر ، والشخص الذي يستطيع العمل من كد يده وعرق
جبينه لا يجوز أن تفرض عليه الاعتماد في حياته كلها أو جلها على الزكاة

وإلا فقد انقلبت الزكاة تشريع إفساد لا تشريع إصلاح تشريعاً يعين على البطالة ويدفع إليها .

مادامت الفريضة لا بد من إخراجها وما دام المحتاجون لا بد أن يأخذوا أنصبتهم منها .

وتلك كلها نتائج لا يقصد إليها الدين ولا يمهدها .

وقد قال الرسول صلوات الله عليه : « لا تجوز الصدقة على غنى » ، ولا على

ذى مرة سوى « — قوى سليم — .

فالرجال الأثماء لا بد أن تهيأ لهم وسائل العمل . والرجح الوافر الذى يكسبونه من الأعمال هو الدعامة الاقتصادية الأولى فى بناء كل مجتمع صحيح بحيث يكون موضع الزكاة معها ثانوياً يظهر مع طوارئ الضعف والعجز والتعطّل والتعود .

وهذا هو موضع الزكاة الواجب ومصرفها المعقول .

ثم إن توفير أسباب العمل أمر تلزم به الحكومة ويفرض عليها ، وبياح لها أن تتخذ من الوسائل الاقتصادية ما تراه كفيلاً بتحقيق هذه الغاية العظيمة ؛ بل يتحتم عليها أن تتخذ هذه الوسائل وأن تبتكر من المشاريع العمرانية والتحويلات المالية ما يقطع دابر التعطل ويسوق أفراد الشعب قاطبة إلى ميادين العمل والإنتاج ، وليس فى دين الله ، ولا فى تعاليم الحياة ما يحول دون هذا ، بل على العكس ، هناك من التوجيهات الدينية الخاصة والعامة ما يؤكد هذا المسلك ويحمده ، فإن الإسلام مثلاً يفرض التجنيد المالى إلى جانب التجنيد العسكرى ، ويحتم تعبئة النفوس والأموال لخدمة الحق والفضيلة والإيمان ، وتجنيد النفوس وتجنيد الأموال ليس عملاً عسكرياً بحتاً ، ومن الخطأ فهم ذلك فى عصر تطورت فيه الحروب حتى أصبحت علماً وإنتاجاً

يستنفد طاقة الأمم حتى لا يبقى لها قطرة ، فتجنيد النفوس والأموال هو عمل زراعى وصناعى وتجارى هو تسخير للقوى المنتجة وجعلها تروساً قوية فى الآلة الدائبة التى ينبغى أن تدور فى أوقات الحرب والسلام معاً للإعداد والاستعداد . ومثل هذه الحالة لا يبقى معها عاطل ، ولا يعيش فيها متشرد والمساهمون فى حركتها النشيطة هم جميعاً جنود مجاهدون يعرفون رسالة الحياة جيداً ، ويقومون بأعبائها على خير وجه ، وإلى بعض هذا يشير الحديث الشريف : « إن الله يثيب فى السهم الواحد ثلاثة نفر : الذى صنعه والذى ناوله والذى رمى به » .

وعلى ضوء هذه الحقائق تعرف القصد من قول القرآن الكريم : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، فتستطيع كل حكومة عاقلة معقولة أن تسن من القوانين ، وأن تضع من النظم ما ترى أن فيه الوفاء بحاجة الأمة على اختلاف طبقاتها ، وفاء لا يبقى معه عاطل ولا محروم .

هذه الحقائق التى بسطنا فيها وجهة نظر الإسلام يعرفها صديقنا خالد . وكان حسبه أن يلتزمها عند ما تكلم عن « اشتراكية الصدقات » لكنه لبس الحق بالباطل لبساً سيئاً . والذى يقرأ كلامه فى الموضوع يخرج منه :
 ١ — بأن الصدقة حرام على الرسول وأسرته فهى كذلك حرام على أمته .
 ٢ — أن الإسلام يكاد يكون مخطئاً فى نظره — لأنه فرض الزكاة؟ غير أنه معذور — أى الإسلام — لأن هذا الفرض مبررات كانت موجودة قديماً .

فى النقطة الأولى يقول الشيخ خالد « لقد رأى رسول الله حفيده الحسن يمد يده نحو ثمرة من تمر الصدقة ويدفعها فى فيه فأنزعها منه وهو يقول له كين

كنخ ، إنها لا تحمل الحمد ولا لآل محمد إنها أوساخ الناس . فهل كان آل محمد طبقة أورستقراطية خاصة تأنف الهوان وتستنكف عنه ثم تبيحه لبقية الناس ؟ كلا . إنما هو مثل رائع يضربه محمد لهذا المجتمع الذي هو أمرته ، للمجتمع الكبير الذي هو أمته » .

لقد علمت فيما قلنا موضع الزكاة في إصلاح المجتمع . والذين يأخذون من أموال الزكاة عن استحقاق لا يأكلون ميتة ولا يرتكبون جرماً ولا يفترون عاراً . وقد أحل للناس — أن يأكلوا من الصدقات عندما ينالونها — عن حق — بينما حُرِّمَ ذلك تحريماً قاطعاً على النبي وأمرته ، فلا يجوز بأية حال أن يأخذوا منها شعرة . وهذه خاصة بالأسرة النبوية لها دواعيها وحكمتها ، وليس الأمر متصلاً بأورستقراطية مزعومة لهذه الأسرة ، فإن وضع الرسول كداعية إلى الله هو الذي أوجب هذا التحريم .

إن الله عز وجل يريد أن يجعل الدعوة إليه مَبْرَأَةً من كل غرض . وقد سبق أن واجه الأنبياء جميعاً الأمم التي أرسلوا إليها بهذه الكلمة التي تنص على مبدأ التجرد والإخلاص والتي تنفي ظنون الانتفاع والاستغلال . بدأ بها نوح مع قومه : « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

١ — فإذا كانت الزكاة رُكْناً في الإسلام كالتوحيد والصلاة ؛ رُكْناً يقاتل الرسول دونه ؛ فكيف تكون الحال إذا كان له ولأمرته حق الأخذ منها ؟ أليس في هذا ما يثير الريب ويطلق الأسنة المفترية ، لا على النبي فقط ؛ بل على الدين نفسه ، ثم كيف يستقيم هذا الأخذ مع كثرة إدلال القرآن بنزاهة الرسول وبُعدِهِ عن كل ما يبرزُ الناس في أموالهم : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ

مِنْ مَغْرَمٍ مُتَقَلُّونَ . « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ؛ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ . إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

٢ — ثم إن الرسول إمام للناس ، موقفهم منه موقف الأتباع من الزعيم أو التلامذة مع الأستاذ أو الجنود مع القائد أو الأولاد مع الوالد ، بل إن مكانته المعنوية ووظيفته الأدبية كرجل منسوب إلى الله موصول بالوحى ، أسمى من أولئك جميعاً . فكيف يتصور فى حقه أن يمدّ يده لتسكون السفلى ، فيأخذ صدقة من يد هى العليا حتماً مادامت يد المعطى ؛ أو كيف يسمح لهذه الصدقات أن تصل إلى بيته عن طريق أفراد أسرته ؟

٣ — هب أن دولة اعتمدت فى ميزانيتها مبلغاً لإعانة الضعفاء والعاجزين فهل يرضى رئيس الدولة أن يفرض له مرتب من هذا الاعتماد . وهل يتهم بأورستقراطية إذا جعل مخصصاته من باب آخر ؟

إن رفض الرسول أن يكون له أو لأسرته شيء من مال الزكاة واضح الحكمة وما يحرم بالنسبة له ليس عجيباً أن يباح بالنسبة إلى آخرين ولا يعتبر إهانة لهم .

٤ — ولقد حُرِّم على البيت النبوى ما أبيح للآخرين من التوسع فى المباحات والتشبع من الطيبات . ومعروف أن نساءه لما طلن مزيداً من متاع الدنيا خَيْرَهُنَّ بين البقاء معه على شظف العيش أو الانطلاق إلى أهلن وهذه من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم .

٥ — ومن خصائص الرسالة كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس له ميراث ؛ بل كل ما تركه صدقة . وليس الأمر كذلك بالنسبة لجمهور الأمة

فتحريم أكل الصدقة خاصة للنبي صلى الله عليه وسلم وحكم ينفرد به ولا يجوز القول بعمومه بين المسلمين .
ولا يفهم من هذا بداهة أننا نفقئ بأكلها للأغنياء والقادرين .

أما الزكاة ففريضة كريمة ؛ وهي قبل أن تكون ضريبة على الجيوب فإنها طهرة للقلوب وتركية للطبائع وتأسيس للسماحة وتحصين للمجتمع . وقد ذكرها القرآن بآثارها المعنوية قبل أن يذكرها بنتائجها المادية : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

والزكاة بداهة ليست ذريعة النسل والتعطل ولكنها الضمان الآلى للطفولة والشيخوخة والعجز .. والعون الطيب للمرهقين والمنكوبين والغارمين والزكاة - في عصرنا هذا - لم تكن بها حكومة من الحكومات الإسلامية ولم تحصر منابعها ولا مصارفها ، وهي تظهر كتصرف فردي محدود عند أفراد من الأتقياء . ولا يوجد الآن ميل شعبي أو حكومي للقيام على هذه الفريضة الجليلة ؛ لتؤدي رسالتها في دائرتها . ولا يجب فالدنيا لا تعرف فوضى اقتصادية كالتي تعرف في بلاد الإسلام . وقد أبنت فيما صدر من كتب أن الزكاة لا تطهر أموال الكثرة الساحقة من كبرائنا ، لأن أصولها جمعت من حرام ، فالحملة على الزكاة ناشئة أولاً عن الجهل بحقيقتها وعن المواطن التي تنفق فيها والأصول التي تؤخذ عنها . وهي ثانياً حملة على نظام غير موجود للأسف الشديد ومن ثم فنحن نخشى أن تكون هذه الحملة موجهة لمشروعية الزكاة نفسها في الإسلام . والأمر في هذه الحالة خطير ، فالزكاة ليست نافلة تافهة ، وشأنها لو نفذت ليس بالشأن الهزيل .

ويقول صديقنا الشيخ سيد رجب في الكلام عن الزكاة وخطرها :

إن الحبة والتراحم والمواساة والعطف ، لمن أعظم الحقائق التي أقام الله عليها خلقه وأحكم بها أمره ، فهو — سبحانه — الرحمن الرحيم ، ومن هذا المصدر الأسنى فاضت الرحمة على الخلق أجمعين ، حتى تألف الجماد ، وتعاطف الحيوان ، وتراحم الإنسان ، وتجاذبت الأفلاك ، وأمسك الله السموات والأرض أن تزولا .

ومن هنا كان الدين في دعوته إلى البر والإحسان — كما هو في سائر نواحيه — قائماً على أساس الفطرة نفسها ، داعياً إلى حق لو لم توجهه الشرائع لأوجبه الطبايع ، ولو لم ينزل به قرآن من السماء لتنزلت به حقائق الأشياء . وليست الزكاة إلا كلمة الله في تنظيم هذا البر والإحسان والمواساة .

لذلك كانت فريضة من فرائض الدين في كل ملة ، وشرعة من شرائع الاجتماع في كل أمة ، وركناً من أركان الإسلام التي ينهض عليها بناؤه ، وتم بها كنهه وتركز عليها أمته .

ومن حق المشرع الإسلامي — وهذه مكانة الزكاة في الإسلام — أن يحرص عليها ، ويشدد في أمره ، ويضعها حيث وضعها الله في مقدم الفرائض والواجبات ، ويرتب عليها من النتائج ما هي جديرة بما أثره وآثاره في الأنفس والآفاق .

وإن في ذكر التطهير والتزكية والتسكين مقرونة بتشريع الزكاة ما يسمع لكل ناظر في كتاب الله أو مستمع لحدّثه أن يدرك كنهه ويعلم حقيقته ، فإنها ألفاظ ومعان لاتذكر في كل حكمة من حكم التشريع ، ولا يقصد إليها عند كل فريضة من فرائض الدين ! بل هي لم تأت مجتمعة في هذا النسق البديع إلا لأغراض جليلة ، وغايات بعيدة وحقائق عظمى لا يقوم لها من فرائض الإسلام غير الزكاة ، فإنها طهرة لنفوس الناس من الشح والبخل ، وطهرة

للمجتمع من الحاجة والعوز ، وتركيزاً للأمة -- في دينها ودينها -- بإبعادها عما يفضى إليه ذلك كله ، من الميول الخطرة ، والمبادئ الهدامة والثورات الجائحة ، التي لم يكن لها سبب في التاريخ أظهر من تمايز الطبقات — تمايزاً غير معقول — بالغي والفقر ، والكثرة والقله ، والجاه والذلة .

وإن من الأحداث العالمية التي يفتن بها الناس ، وتموج بهم موجاً في هذه الأيام ، وتقف بعضهم بإزاء بعض كتلاً وأحزاباً ، وتقسم الأرض إلى قسمين ، شرق وغربي و « بلشقي وديمقراطي » وما كان غير ذلك من مذاهب وآراء ، قامت كلها على أساس الغنى والفقر ، والثروة والعدم ؛ والمنافسة في الدنيا ، ومداغة الاستئثار بها ، إن في ذلك لآية على صدق القرآن في كلمته للرسول عليه الصلاة والسلام « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وعلى صدق الرسول في كلمته إلينا « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . وفي الحديث « ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ؛ وإعجاب كل ذي رأى برأيه » .

الخبز هو السلام

ذلك عنوان الفصل الذي عقده الأستاذ خالد لنقد أحوالنا الاقتصادية المعوجة والكشف عن العلل الخبيثة التي أدت إليها وقد امتلأ هذا الفصل الجيد بمعان حية وعواطف حارة وشواهد صادقة ويعتبر — والحق يقال — من خير ما كتب في هذا الموضوع ، وهو كذلك أحسن أبواب الكتاب وأقلها خطأ . ووددت لو أنه تخير له عنواناً أقل إغراقاً في المادية وأدنى إعترافاً بالقيم الروحية من هذا العنوان الجاف — الخبز هو السلام — وقد يكون له

المعذر في هذا الجنوح المادى فإنى أحمل « الرأسمالية الشرقية » وحدها أوزار ما تقترف من مظالم . وأوزار ماتثيره فى النفوس من تطرف .
 لقد وقر فى نفوس الناس أجمعين أن هذه الرأسمالية تقوم على سرقة الجهود والأموال والفرص . ثم على إنفاق ماتسرقه فى إشباع الشهوات ونشر الفوضى الخلقية والاجتماعية والسياسية . .

ولقد ألبأنا تصرفات هذه الرأسمالية للمعونة إلى طول الكلام عن الإصلاح المادى وتوفير الضرورات التى لابد منها للانسان .

وكان الإكثار من هذا الكلام على حساب النواحي المعنوية . . وعلى حساب الجانب الإلهى والنصيب الأخرى الذى لا يجوز لنا أن ننساه . ولكن ما العمل ؟؟ وهذه الرأسمالية تغتال دنيا الناس وتحتال على دينهم ولا تبقى منهم إلا حطاما لا يصلح لشيء . . .

إننى كداعية للإسلام مضطر أحيانا إلى التحدث فى أمور أرضية بجملة مدة طويلة لأنه لا يمكن أن أنقل إلى الملاء الأعلى رجالا — نسوا كل شيء تماما — من طول ما استخدموا فى الأرض واسترقوا لأصحابها واستهلكوا فى إراحة نفر فاسق مفسد من شياطين الإنس .

الإصلاح المادى بين نهجين

وللخلوص من هذا الحيف والظلام توجد طريقتان لامناص من اختيار إحداها ، إما اشتراكية مجردة لاتعترف بالدين أصلا كما فى روسيا أو قد تعترف به فى حدود ضيقة جداً كما فى بعض البلدان الأوروبية الأخرى .
 وإما الاشتراكية الإسلامية التى تعتمد اعتماداً مباشراً على هاتين المادتين من دستور الإسلام : (١) إله واحد فقط . (٢) أخوة عامة بين الناس .

غلا مكان في هذا الدستور لأرباب متفرقين من ذوى الجاه والسلطان ، ولا لأسر مقدسة تنحل شارات المجد الزائف والعظمة الكاذبة .

والأفراد على اختلاف لغاتهم وأوطانهم وألوانهم سواسية . لا يجوز أن يفضل واحد على آخر ، ولا أن تتاح فرصة لأمريء دون أخيه ولا أن يعمل هذا ويتعطل ذلك ، ولا أن يحرم ذلك ويعطى هذا ... ولا ... ولا ... مما تزرع به المجتمعات في بلادنا وغير بلادنا من مظاهر الفسوق والعصيان لأوامر الله الواحد القهار . هذان هما المنهجان ... ونحن لا نقبل — للخروج من المأزق الذى وقعنا فيه — اشتراكية مجردة ، لا تعترف بالدين ، ولا اشتراكية محايدة يستوى لديها الشرك والتوحيد . لأننا واجدون في الإسلام ما نبغيه من ضيافة لأصل الإيمان ، ومن إقامة لدعائم العدالة والمساواة بين الناس ومن العناصر الكاملة لبناء اشتراكية معتدلة نظيفة . ولأننا — إذا أفسد علينا بعض السفلة من الحكام والأغنياء دنيانا — لا نريد أن نضيع ديننا بشراء هذا الإصلاح المزعوم من أى اشتراكية أخرى . بل علينا أن نجاهد لكسب حقوقنا باسم الإسلام . وسنصل إليها حتما بتوفيق الله .

ونحن ننقل هنا فقرات من مقدمة كتاب « الإسلام المفترى عليه : بين الشيوعيين والرأسماليين » يزيد هذا المعنى وضوحاً .

(إن الإسلام عقيدة ونظام : والنظام في ديننا يتبع العقيدة ويقوم على خدمتها . أو هو امتداد مطلق لآثارها وفضائلها فهو تابع لها أبداً . وقد يأخذ أشكالاً مختلفة على مر الأزمنة . بيد أن ذلك يشبه اختلاف الوسائل مع اتحاد الغاية . . . وقد يظن السطحيون أن وجود مبادئ معينة في النظام الإسلامى قد تميل به نحو اليمين أو اليسار ، وذلك خطأ . فإن مبدأ الملكية مثلاً قد

يشارك في الاعتراف به النظام الإسلامى والنظام الرأسمالى . وتحريم الفائدة الربوية قد يشارك فيه النظام الشيوعى والنظام الإسلامى ، وليس معنى هذا أو ذاك أن الإسلام رأسمالى أو شيوعى . كلا . إنه منهج مستقل يستقى من طبيعته كدين ثم يمتد فى مجراه المرسوم لنفع الناس وحماية مثلهم العليا . والحالة الاجتماعية التى نعيش فيها تفرض علينا أن نذكر عن الإسلام هذه الحقائق التالية :

- ١ — أنه لا يعترف بملك من حرام ولا بكسب من سحت .
- ٢ — أنه لا يبيح معاوضة الجهد الشاق بأجر بخس ولا مكافأة العمل القافه بأجر كبير .
- ٣ — أنه لا يبيح التعطل والتسول والفوضى ويعتبر الحكومة مسئولة عن بقاء هذه الآفات .

والاشتركية الإسلامية تعتمد المبادئ الرفيعة أولاً ثم تقيم الأشكال المادية المناسبة لها وتستعين على ذلك بقوة القانون . فالأخوة العامة مبدأ . والدولة مسئولة عن تنفيذه وعن هدم أى وضع مادى ينافيه . والتترف مرض اجتماعى ، والدولة ملزمة بسن أى تشريع مادى يمنعه . والفضائل الإنسانية ضرورة لا بد منها ، والدولة مسئولة عن القوالب المادية التى تصوغها لحفظها ، وقد يتقاضاها ذلك أن تقنن على النحو الذى تدير عليه روسيا أو أمريكا لكن هذه القوانين لن تكون روسية ولا أمريكية مادام الغرض منها والدافع إليها إسلامياً مجرداً . . ! »

ذلك هو رأينا فى التشريعات الفرعية . فالعبرة بالدستور الأصيل الذى يراعاه والروح الذى يصاحبها ، ولو أن إنجلترا رأت لأسباب وطنية أن تدخل

إصلاحاً على قانونها الجنائي يقطع السارق ويجلد الزاني فإنها لا تنقلب إسلامية بإجراء هذا التعديل في تشريعها ما دامت المسيحية دينها الرسمي . بل قد يقال إن هذا تعديل تدعو إليه المسيحية !

ونحن نستطيع بلا مرأ أن نبقى مسلمين أوفياء لإسلامنا مهما شرعنا لأحوالنا الاقتصادية ما قد يشابه في ظاهره نظام الشرق أو الغرب .

أنصار الاشتراكية الإسلامية

منذ تعقدت المشا كل الاقتصادية واتصلت حلولها بالمصالح المباشرة للدول والشعوب . فكر رجال الإسلام في أمرها تفكيراً ينطوى على الإخلاص للدين والتيقظ للواقع . ومما له دلالة رائعة أن نتائج التفكير الإسلامي كانت متشابهة رغم تقطع الصلات بين الرجال الذين عالجوا قضية الاقتصاد العام وحكم الإسلام فيها .

فمنذ شهر جاءني عدة رسائل علمية للأستاذ المودودي رئيس الجماعة الإسلامية بباكستان . وقد قرأتها مثني وثلاث فما كان أشد دهشتي للتقارب العجيب بل التوافق الحرفي بين أسلوب إخواننا في الهند وكذلك بين ما انتهوا واتفقوا إليه من مقترحات وحلول .

وهكذا تمت الموافقات بين ثمار بحثنا هنا وبين ما استقر عليه جهاد إخواننا في الشام . فقد استطاعوا إدخال مبادئ هامة للإصلاح الاقتصادي في صلب دستورهم الجديد ، خاصة بتوزيع الأراضي والملكية الزراعية ، أصبحت الأرض به لمن يفلحها لا لمن يملكها ، وصار من حق الدولة هنالك أن ترفع يد المالك المهمل عما لديه من أرض لا يعمل فيها . وقد وصفت «الأهرام» هذا الدستور بأنه وثيقة تقدمية . ونحن نصفه بأنه كسب محدود للجهة الاشتراكية الإسلامية .

بلى إنه محدود ! لأن دائرة الإصلاح الإسلامى أوسع مدى مما يظنه الكثيرون .
وقد بسطنا فلسفة الاشتراكية الإسلامية وذكرنا أطرافاً من برنامجها
الضخم فى عدة كتب صدرت ونشرت فصولاً منذ سنين « الإسلام والأوضاع
الاقتصادية » ، « الإسلام والمناهج الاشتراكية » ، « الإسلام المغترى عليه
بين الشيوعيين والرأسماليين » .

وقد أصدر الأستاذ سيد قطب كتاباً غزير المادة جيد البحث فى الموضوع
نفسه « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » وكذلك قرأنا للأستاذ بهى الخولى
رسالة حسنة « إسلامية لاشيوعية ولا رأسمالية » . وقد تلاقت أفكار
المؤلفين جميعاً عند نقط ثابتة هدتهم إليها فطرة الإسلام ووحدة السبيل
واستهدفوا فيها وصف الدواء الفاجع من الإسلام نفسه لما يعانى به المسلمون فى
أقطارهم المريضة من نوائب وأزمات ، دون التطفل بآمتهم على موائد الشرق
أو الغرب !!

وحوش لا محكام

إن تعاليم الأخوة والتراحم التى ملأت كتاب الله وسنة نبيه كالخت أقصى
كفاح ضد لون من الحكم ساد بلاد الإسلام قروناً طويلة لو بليت به بقاع
أخرى من الدنيا لما بقيت فيها مظاهر للحياة ولا معالم لل عمران . كانت
الحكومات حرباً على الشعوب . وكانت كلمة الوالى لا تعنى غير الغصب
أو السرقة أو الظلم الفادح فى أحلك صورته . وكانت تعاليم الإسلام لا تستطيع
إلا أن تقوم بالخدمة التى يؤديها رجال الهلال الأحمر عندما تهيج الزلازل
أو تنور الحروب . قد تطب المريض أو تواسى الجريح أو تمسك الرمح على
جانح أو تهيب المأوى لطريد أو غير ذلك من المساعدات المتقطعة .

أما الحرب التي أعلنها هؤلاء الحكام على الشعوب فقد ظلت مشتتة الأوار ، بل لا تزال نارها تبق — إلى اليوم — في أقطار إسلامية منكوبة . إنها حرب على الإسلام وعلى أمته . وقد مرّ بك كيف أنه من هؤلاء الملوك من ألغى الحدود والقصاص بحرّة قلم : كأنما يقول لله : أنت تشرع في السماء وأنا أعطي في الأرض . !

ومن هؤلاء الملوك من اعتبر نفسه مالكا لرقة الأرض التي يعيش الناس عليها ويعملون فيها ، بل إن تاريخنا المؤسف حافل بالكثير من هؤلاء الملوك الذين سرقوا الأرض من أصحابها وأعطوها أذنابهم من المداحين والخدامين ! فكان الواحد منهم يريد ليشارك رب العزة في أسمائه الحسنى فينعت نفسه أنه مالك الملك . . . والبشر بعد ذلك هم عبيده الأذلون ! . . فترة قائمة مرت بالإنسانية في شتى الأعصار والأمصار جعلت الأرض غابة كبارها أسود وذناب وصغارها غم وأرانب ، ولا مكان فيها لدين أو شرف أو خلق . ولست أعجب لشيء عجبي من أن يحدث ذلك في بلاد الإسلام ، وأن يبقى مقترفوه أحياء لحظة من الزمن . وأن تمتد ظلال هذه الفوضى وتنتشر مع أنها تقلصت في سائر الاقطار . والعقبات التي تعترض الاشتراكية الإسلامية ليست إلا بقايا هذا التآله الباطل وهذا السكوت الزرئ . والمسلمون لا يزالون بشر ما ابتعدوا عن هدى دينهم في البديهيّات الأولى منه ، وهي بديهيّات لو تحققت لمحت ما تخلف في ديارهم — دون سائر بقاع الدنيا من فوضى التملك والتعطل ، ووحشية الأثرة والاستبداد .

قال الرصافي يصف هؤلاء الأمراء من آل السلطنة :

تركوا السعي والتكسب في الدنيا وعاشوا على الرعيّة عاله
يتجلى النعيم فيها فتبكي أعين السعي من نعيم البطاله

يأكلون اللباب من كدّ قوم أعوزتهم سخينة من نخاله
فكأن الأنام يشقون كدّا كى تنال النعيم تلك السّلالة
وكان الإله قد خلق الناس لحيا آل السلاطين آله... !
نعموا فى غصارة الملك عيشًا وحملنا من دونهم أثقاله
فإذا صاول العدو خرجنا دونهم للورى نرد صياله
وإذا هم جرّوا الجرائر يوما فعلينا تكون فيها الجماله
وإذا ما استهلّ فيهم وليد فعلينا رضاعه والكفاله
قد رضينا بذاك ؟ لولا عتوّ أظروه لنا على كل حاله
ما بهم ما يميزهم عن بنى السوقة إلا رسوخهم فى الجهاله... !
هم من الناس حيث لو غر بل الناس لكانوا نفاية أو خُئاله...
تلك والله حالة يقشعرُ الحق منها وتشمئز العداله
هى منهم دناءة وشنار وهى منا حماقة وضلاله
ليس هذا فى مذهب الاشتراكية إلا من الأمور المحاله
وهو فى الملة الحنيفية البيضاء كفر برّبنا ذى الجلاله...

إن الحاكم فى الإسلام أب رحيم قبل أن يكون ذا سلطان مكين وناحية
الرحمة فى نفسه أسبق من ناحية الصرامة والشدة . والأسوة فى هذا من الرسول
العظيم إذ يقول : « مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ،
إقرأوا إن شئتم : النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ... الخ .
فأما مؤمن ترك مالا فليترّثه عصبته من كانوا ، وإن ترك دينًا أو ضياعًا
— يتامى — فعلىّ وإلى » .

وروى عباد بن شرحبيل عن نفسه قال : أصابني سنة — جذب —
فدخلت حائطاً — بستاناً — من حيطان المدينة فمركت سنبلاً فأكلت
وحملت في ثوبي . فجاء صاحبه فضر بني وأخذني وأتى بي إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فذكر ذلك له . فقال له الرسول : « ما علمت إذا كان جاهلاً
ولا أطعمت إذا كان جائعاً » ثم أمره فرد علي ثوبي وأعطاني وسقاً أو نصف
وسق من طعام (الوسق ستون صاعاً) .

هذا إلى أن الحاكم ما كان في نظر الإسلام غير رجل مستأجر لعمل
إن أحسن فيه أخذ راتبه وإلا طرد منه . . . فمن انقلاب الأوضاع أن يتحول
الحاكم مالكا والأمة نفسها هي التي تؤجر أو تطرد . وتصحيح هذا الوضع
من أول مبادئ الاشتراكية الإسلامية .

وهذا استطراد دفعنا إليه المناسبة . أما أصول هذه الاشتراكية ففي
مظانها التي حدثنا القاريء عنها قبلاً .

أين هي ؟

وقد يتساءل المرء : أليس لهذه الاشتراكية الإسلامية صور حية وتطبيقات
واضحة في حاضر العالم الإسلامي حتى يمكن الاستدلال بآثارها على توجيهات
الدين بصدددها . والجواب الحزن . لا يوجد شيء من ذلك . فإن مبادئ
الإسلام منهارة في بلاده منذ أمد بعيد . وليس هذا الانهيار في مسائل قد
يصح أن تكون موضع بحث وخلاف كما تقترحه الاشتراكية الآن مثلاً من
تأميم المرافق العامة وتقييد الملكيات الخاصة . كلا . فالانهيار يتصل بصميم
المبادئ الخلقية في الدين نفسه .

فإن سرقة الأرض المزروعة على نطاق واسع ، واعتبار منابع البترول ملكاً لفرد متسلط ، واحتكار التجارات الهامة بواسطة عصابة معينة ، وتعريض الجماهير الغفيرة للعري والجوع في ربوع تفيض بالذهب وتتدفق بالخير . . . وغير ذلك من ظواهر الانحطاط والتلصص لا يعتبر خروجاً على مبادئ الاشتراكية الإسلامية فقط ؛ بل يعتبر خروجاً على أبسط قواعد الإنسانية . فليس خلاف الشعوب مع هؤلاء الحكام على أمور غامضة من النوع الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامُ بَيْنَ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ . فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ » . أجل . . ليس الخلاف على هذه الأمور المشتبهات . وإنما النزاع ؛ أي هل الحلال ومحرم الحرام أم لا ؟ . أنصاذر المسروقات المضبوطة أم لا ؟ . أينزل الحكم إلى مراتب البشر أم يبقون في مصاف الآلهة ؟ . وسيتبقى العالم الإسلامي أضحوكة لليهود والمجوس حتى تعرف هذه الأجوبة .

أى إيذاء لله ورسوله أنكى من هذا الإيذاء ؟ وأى صدء عن الحق أخس من هذا الذى يصنعه الأوغاد من كبرائنا بهذا الدين ؟ أن تُقدِّمه للإنسانية المحرومة أيد ملوثة على أنه طعام مسموم يتجرَّعه الإنسان ولا يكاد يسيغه ؟ . إن فسكرة الناس عن الإسلام وأمة الإسلام لا تشرف أبداً . وأرض الإسلام في المصور الجغرافى للعالم هى أرض الضياع والهوان والصورة المستقرّة فى أوهام الأجانب عن سكان هذه الأرض أنهم قطعان من الثعساء يمشون فى ركاب نفر من الكبراء . أهذا مبلغ ما فعله بأنفسهم أهل الديانة القائمة على التوحيد والعدالة ؟ : « لَيْسَ مَا قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ » .

.. وننظر إلى جانب آخر من العالم تقوم الحياة فيه على إنكار ما وراء المادة والبعد عن الدين جملةً فماذا نجد؟ نشرت جريدة المصرى حديثاً لأليس عازر بك وزيرنا المقوض في روسيا ذكر فيه ما يلي ننقله بنصه :

« إن الغلاء في روسيا شنيع بالنسبة إلى الأجانب ولكن الأسعار فيها متناسبة مع الأجور . وأوضح سعادته ذلك فقال : إن العامل أو العاملة يأخذ أجراً يحد أدنى مقداره ٥٠٠ روبل في المدن و ٣٠٠ روبل في القرى ، وأنه يدفع أجر سكن زهيد ويأكل هو وأسرته بمتوسط ٦٠٠ روبل في الشهر . فإذا افترضنا أسرة من ثلاثة أشخاص يعملون — وليس هناك من لا يعمل في سن العمل — فإنهم يحصلون على دخل نحو ١٢٠٠ روبل يستطيعون أن يسكنوا ويلبسوا ويأكلوا منه .

« وسأله مندوب المصرى أن يحدثه عن أهم ما استلفت أنظاره هناك ؟ . فقال . العناية بالطفل . إنها فائقة الحدود ، والأم تمنح أجازة أربعة أشهر قبل وبعد الوضع بمرتب كامل . والملاعب العامة تملأ كل مكان . وأدوية الأطفال تصرف مجاناً . والتعليم إجبارى سبع سنوات ! . وسألنا سعادته عن الحالة الصحية هناك . فقال : طيبة . والمستوى الطبى العلمى عال جداً .

وبعد كلام عن مكانة الفن في روسيا لانهم ينقله هنا . قال سعادته : — « إن مما لفت نظره هناك بشدة انعدام الهموم ، فليس بين الناس هناك من يفكر كثيراً في متاعبه المالية أو متاعب أسرته » .
نم قال : ونظام الأسرة هناك محكم جداً . وقد كفل القانون حماية الزوجة تماماً » .

قرأت هذا الحديث . ثم هجس في نفسى أن الشيطان عقد مع قرنائه من البشر تحالفاً أن يسقطوا مكانة الدين بأنجع الأساليب وذلك بتقديم الإلحاد على أنه منفعة اجتماعية . وربط الإيمان بعجلة الجوع والعري والتشرد والمسكنة ثم تقديمه للناس .

والحق أن هذا الذى يُقدم ليس إيماناً . والذين يقدمونه ليسوا رجال دين . والذين يحرسونه ليسوا رجال حكومات .

والله ورسوله برىء من هذا الإفك وأولئك الدجالين .
والإسلام — كما قلنا — توحيد لله وعدالة بين الناس . وعلى المنصفين من أبناء القرآن الكريم أن يذودوا عن دينهم . وأن يطهروا ربوع الشرق — عن مجل — من الأصنام التى نصبت فى أقطاره تحتكر الخير وتستعبد الشعوب وتطفىء منار الإسلام !

تكثير النسل لا تحديده

إننا نؤيد الأستاذ خالداً فى حملاته العنيفة على الفساد الاقتصادى الذى خرب بلادنا وهذقوانا وأسقط اعتبارنا ونؤيده فى أكثر المقترحات التى تقدم بها لتعمير ماخرب وتكريم من ذلوا . ولو أن خالداً من دعاة — الاشتراكية المجردة — ونحن من دعاة الاشتراكية الإسلامية إلا أن مسلكه فى نظرنا أشرف من بعض الرجال المحسوبين على الدين . ومع ذلك لم نقرأ لهم أى كلمة يعطفون بها على بئس أو يحاربون بها صاحب عدوان .

إلا أننا نرفض رفضاً حاسماً مقترحه العجيب فى تحديد النسل وربطه هذا المقترح بالإصلاح الاقتصادى ومعالم الاشتراكية ، ولسنا نزع أن تحديد النسل حرام . فقد كتب الإمام أبو حامد فى الأحياء وصدرت الفتوى من المسئولين

الرسميين عنها بإباحة التحديد إذا اقتضته ضرورات محترمة . وإنما الذى ننكره أن هناك ضرورات عامة تجعلنا ندعو الأمة إلى الاقتصاد . . فى الأولاد !

فالحقيقة أن الفقر فى مصر مرده سوء توزيع الثروة لاقلة الإنتاج ثم إن ما يمكن إنتاجه أضعاف ما نحصل عليه فعلا . ولو أن كل يد تستطيع العمل وجد لها المجال الذى تكدر فيه ، ولو أن الثروة الوطنية بعد ذلك وزعت على العاملين لا على القاعدين لما كان فى مصر بئس ولا محروم .

إن مصر تتسع لأربعين مليوناً ولا يضج فرد فيها بشكوى لو أن الحكومات فى مصر فكرت فى استغلال الصحراء بالزراعة والتعدين . وفكرت فى استغلال بحارها الواسعة وفكرت فى استغلال موقعها العالمى الفريد وفكرت فى استغلال نياها الذى يفيض بالخير الدافق كل عام .

إن أسباب الفقر فى مصر مصطنعة . والفكر السديد أن نعمل على إزالتها لا أن نمنع التوالد خوفاً من مواجهتها . والمعروف أن تكثير النسل محمود فى العالمين الشيوعى والرأسمالى . فى روسيا وأمريكا . فما الذى يجعلنا نجح إلى هذه الخطوة المؤدية إلى تضاؤلنا وانكماشنا ؟

أما الإسلام فراغب فى زيادة النسل وساع إليه بشتى الوسائل « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتزوج النساء ابتغاء الولد . وجعل إخصاب المرأة أرجح ميزات وأفضل حسناتها بل علامة يمتنها وبركتها « سوداء ولود خير من حسناء عقيم » .

والترويج لهذا الاقتراح يحجب عن أمتنا خطأ نفسياً واجتماعياً ينبغي أن نصارحها به فالخلق أن الأمة الإسلامية كسول متلاف مغبونة في وقتها مهضومة في مالها وخيراتها . ومع أن الرقعة التي تسكنها في العالم حافلة بأسباب الثراء والقوة إلا أن الكسل والقعود والتواكل عطل غرائز النشاط وملكات الابتكار فيها وقذف بها في مؤخرة القافلة السائرة . ولقد رأيت بقاعا كثيرة مشحونة بالكنوز التي تفيد منها التجارة والصناعة والزراعة يقطنها أقوام من الحمل السفهاء يعيشون على الخطف أو التسول أو التهريب أو الأشغال التافهة ورأيت أفراداً من الأجانب يغدون إلى هذه البقاع الغفل فإذا بها تتحول في أيديهم منابع رزق وفير، وكسب غزير، فتأ كدلدى أن الفقر فقر خلق ومواهب وأن الشرق الإسلامى يضيق بنصف بنيه — لو أصابت سكانه جائحة — ما دامت أخلاقهم ومسالكتهم على ما هي عليه من بلادة وخمول وصدق القائل :

لعمرك ما ضاقت بلاد أهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

والإسلام لا صلة له البتة بهذه الحال . فإن القوم لم تشغلهم أعمال الآخرة عن مطالب الدنيا ولم يقطعوا الليل في التهجد والنهار في التسبيح حتى تقول : صرفتهم أعمال عن أعمال ورأوا في ذكر الله غناء عن حاجات النفس وضرورات الدنيا !! لا والله . فقد قت بتشريح أحوالهم الفكرية والمعنوية فكدت أجزم بفراغ أفئدتهم من عقيدة التوحيد مثل فراغ أيديهم من وسائل العيش !! وخرجت من المقارنة بين نفسية كثير من المسلمين وكثير من الكافرين بالنسب الآتية أضعها تحت أنظار القراء وأطال بهم أن يتأكدوا من صدقها بتجار بهم الخاصة .

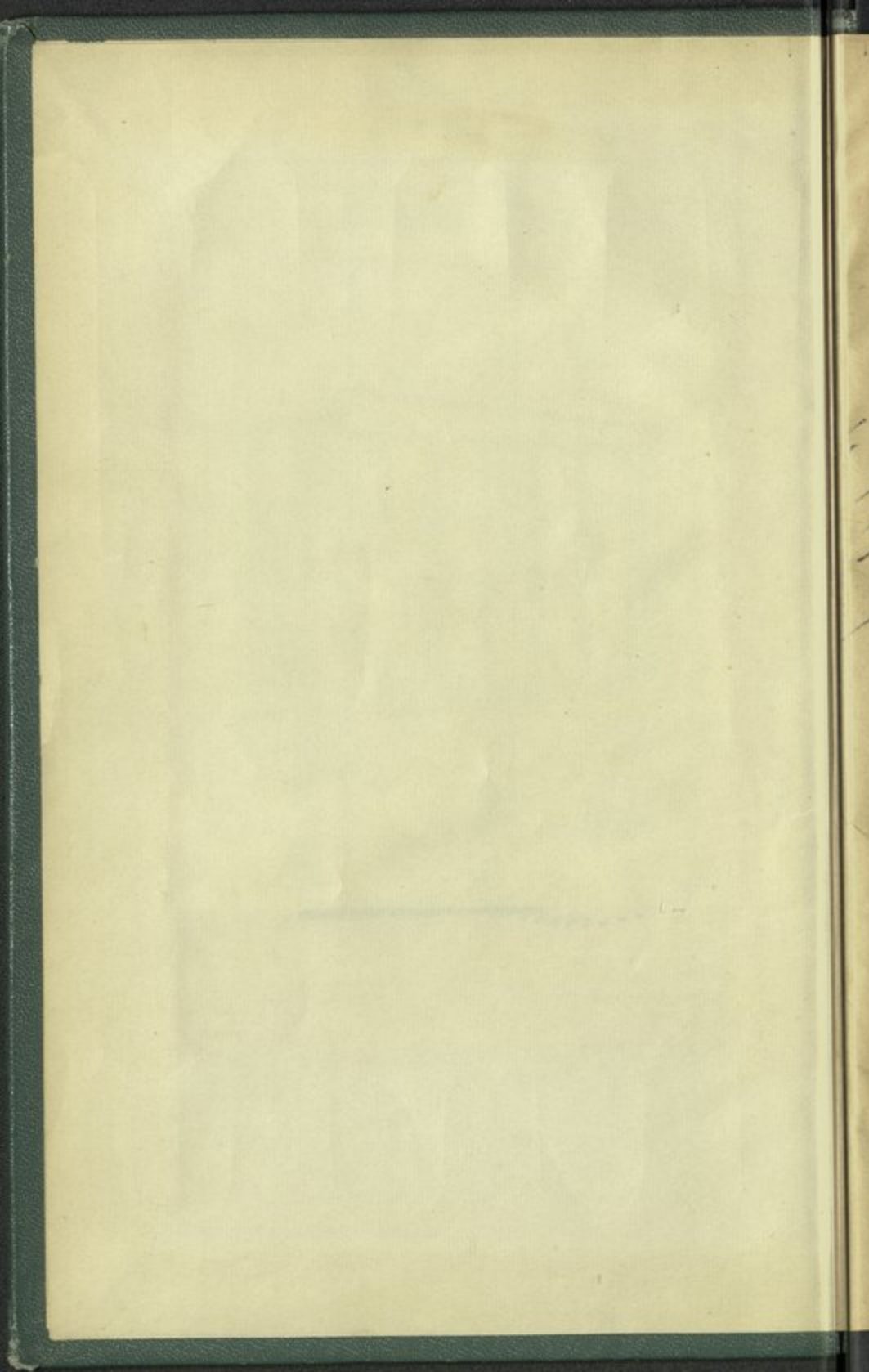
هذا عند المسلمين	{	١ ٪ من الوقت تدين
		٨٥ ٪ فراغ وغفلة
		١٤ ٪ للأعمال الدنيوية

عند غير المسلمين	{	$\frac{1}{3}$ ٪ من الوقت تدين
		٨٠ ٪ للأعمال الدنيوية
		$19\frac{1}{4}$ ٪ للفراغ والغفلة

ولنترك وصف التدين بالفساد أو الصحة عند الفريقين . ثم لنوازن بين النتائج المرتقبة بل الواقعة لكلا الحياتين .
 إن تحديد النسل أو إطلاقه لا يصنع مع هذه الحقائق شيئاً فإذا ارتفع المستوى الروحي والعقلي فإن الدعوة إلى تحديد النسل تصبح لا موضع لها .

فهرست

٦٣ فارق بين حكيمين	٣ تمهيد ..
٦٤ الحكم السماوي بين أمتين	٦ مقدمة الطبعة الثانية
٧٣ تاريخ وتاريخ	١٠ مقدمة الطبعة الأولى
٩١ الإسلام بين من جاهدوا له وخادعوا به	١٣ إسلامية الحكم لا قوميته
٩٣ الجبهة الإسلامية في مصر وأحوالها	١٤ فساد قديم
٩٥ لا حاجة إلى هذه النقول	١٦ الحكم أداة لا بد منها لكل إصلاح
٩٩ علماء الدين ورجال الحكم	١٨ بقية من الحروب الصليبية
١٠٣ الكهانة والإسلام	١٩ شبهات حول الحكم الديني
١٠٦ السقطلة الكبيرة	٢١ هل توجد الآن حكومات إسلامية
١٠٨ كلمة صريحة	٢٣ مثار الخطأ
١١٠ موقف علماء الأزهر من هذه النزعة	٢٤ الحدود وضرورة إقامتها
١١٢ التحرر من الخوف والطمع	٢٧ جزء من عمل الحكومة الدينية
١١٥ بين الهلال والصليب	٢٨ هل نريد إيماناً أعزل أمام لإحاد مسلح
١٣٧ المرأة والمجتمع	٣٠ عرائر الحكومة الدينية
... .. النهضة النسائية بين تقاليد الشرق	٣٢ شطط
١٤١ والغرب	٣٦ لإسرائيل
١٤٦ وظيفة المرأة الاجتماعية	٣٨ بدعة فصل الدين عن الدولة
١٤٧ تحسوا الإيمان أولاً	 الحكم الإسلامي بين اليهودية
١٤٨ المرأة والمسجد	٤٠ والصراية
١٥٦ المرأة والآداب العامة	٤٢ سلطة روحية وزمنية
١٦٠ المرأة والقضاء	٤٥ هذه مفالطات
١٦٥ المرأة والعلم	٤٧ الحكومة الدينية والمعارضة
١٦٩ الإسلام والاشتراكية	٤٩ بين الحكم الديني والحكم القومي
١٧٠ اشتراكية الصدقات	٥٠ هل يذهب الإسلام ضحية
١٧٧ الحزب هو السلام	٥٢ أعود إلى الجاهلية الأولى
١٧٨ الإصلاح المادي بين نهجين	٥٣ طبيعة الإسلام
١٨١ أنصار الاشتراكية الإسلامية	٥٥ خاسر المسدين من آثار النزعة القومية
١٨٢ وحوش لا حكام	٥٧ دستور أصلي وقوانين فرعية
١٨٥ أين هي ؟	٥٨ مكابرة
١٨٨ تكثير النسل لا تحديده	٦١ مؤسس دولة



DATE DUE



301.153:G41mA:c.1

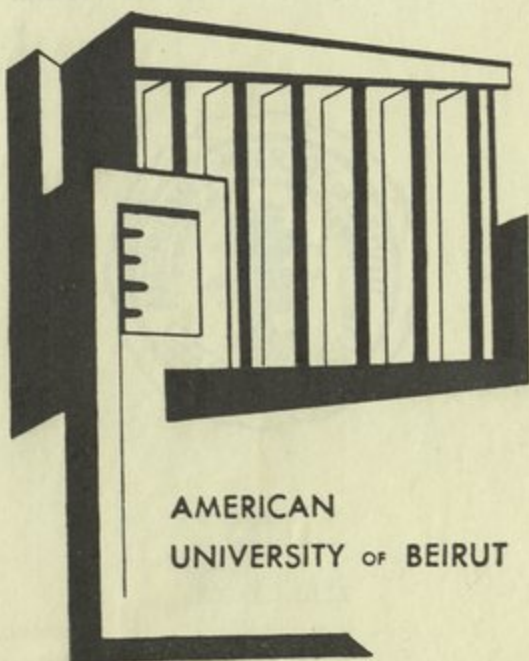
الغزالي، محمد

من هنا نعلم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010093



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

With Liberty and Justice